

وقع الخطى

ابتسام شاكوش

CANTAŞ

وقع الخطى

تأليف	Yazar
إبتسام شاكوش	Ebtisam ŞAKUŞ
تحرير	Editör
محمد ياسين جان	Muhammed Yasin Can
ترجمة	Çeviri
عبد الصمد كونش	Abdüsamet Güneş
تصميم	Mizanpaj
أحمد يانر	Ahmet Yanar

© Tüm hakları yayınevine aittir. جميع الحقوق محفوظة

İstanbul | 2016 Yayınevi Sertifika Nu.: 19556, ISBN 978-605-5158-69-9
Baskı: Simat Matbaası, Kapak: Salkım Ofset, Cilt: Gökhan Mücellit

CANTAS
Yayınları

Ticarethane sok. No:5/1 Çağaloğlu/İstanbul
www.arapcadagitim.com
iletisim@cantasyayinlari.com
Tel: 0 (212) 511 10 85

Çevirmenin Önsözü

Yüce Yaratanın adıyla sözlerimize başlarken çalışmamızı nihayete erdirmeye muvaffak olduğumuz için ona hamdediyoruz

Bugüne kadar yazdığı 16 eserle İslam dünyasında 5 ödül almış olan Suriyeli başarılı edebiyatçı yazar Ebtisam Şakuş, elimizdeki bu romanda bizlere Suriye'de yaşanagelen zulüm ve tutuşan devrim ateşini anlatmakta, ardından bir halkın büyüğünden küçüğüne tarihte eşine az rastlanır surette yaşadığı bir trajediyi gözler önüne sermektedir. Bu kitap için, roman kapaklarında klasik bir biçimde yazılan "Gerçek bir hikayeden alıntıdır" yerine "Günümüzün modern(!) dünyasında yaşanan milyonlarca gerçek hikayeden sadece bir tanesi" sloganının daha uygun olduğunu düşünüyorum.

Hem orijinal Arapçası, hem de çeviri Türkçe olarak, Arapça dili öğretimine gönül vermiş Cantaş Yayınları tarafından basıma sunulan bu eserde her ne kadar temel hedef Arapça bilgisini bir ileri düzeye taşımak isteyen öğrencilerin gelişimi olsa da, aynı zamanda eser bize Müslümanlık ve kardeşlik bilincimizi sorgulama

ve kapı komşumuz olan topraklarda yaşanan trajedik soykırıma empatiyle yaklaşma imkanı sunmaktadır. Bu nedenle Arapça öğrencilerine bir diğer notumuz da şudur ki; çeviri esnasında kelime kelime bire bir çeviri yaparak ana metindeki Arapça zevki seliminin romanın dilinde egemen olmasını bir nebze engellemeye çalıştık. Bu bağlamda bazı deyimler Türkçedeki en yakın karşılığı ile değiştirilirken, bazı Arapça isimleri Türkçenin damak tadına uygun isimlere uyarladık. Örneğin hikayemizin ana karakteri Ümmü Halime'nin isminin sıklıkla geçmesi sonucu kızı Halime ile karışması endişesiyle Hatice ismiyle değiştirdik. Bu bağlamda romanı iki dili karşılaştırmalı okuyan okurlarımız, her yerde olmasa da bazı noktalarda romanın ruhuna inen yolların dil pürüzleriyle tıkanmaması adına, örneğin "efendim" kelimesine "bacım" şeklinde mana verildiğini gördüğünde bunu yadırgamamalıdır. Bu yaklaşımın doğruluğunu veya yanlışlığını başka platformlara bırakırken, sizleri kardeş topraklara yolculuk yapacağınız, Muhacir ve Ensar faktörlerini yeniden gözden geçireceğiniz bir serüvenle baş başa bırakıyorum.

Eğer varsa başarımız Allah'tandır. Kusurlarımız aciz nefsimizdendir...

Şaban 1437 - Mayıs 2016

Abdussamet Güneş

في الخامس عشر من آذار، سنة ألفين واثنى عشر ميلادية، اصطفت الآليات العسكرية على حافة جوية شريفة، موجهة نيرانها إلى جهة الشرق، أولى طلقاتها اصطدمت بجدار المسجد العثماني، لم تفعل شيئاً - الطلقات - بل أضافت إلى الجدار ثقباً جليداً، اصطفت إلى جانب ثقب قديمة أحدثتها آليات مشابهة اصطفت في زمن سابق في الأماكن ذاتها، رمت نيرانها بالاتجاه ذاته، حينئذ كان يحيط بها رجال يرقصون الدبكة، ونساء يزغردن، هم آباء وأجداد الراقصين والمزغردات الآن، يمز الرصاص طائراً على الخط ذاته، فيسقط شهداء، هم أحفاد من استشهدوا من قبل، كان ذلك ١٩١٩ كانت تلك الآليات لجيش الاحتلال الفرنسي، وهذه الآليات لجيش الأسد.

الفصل الأول

انجلت الغارة الأولى على جبل صهيون بعيد المغرب بقليل، كان نهارا ممطرا بغزارة، اختلط فيه هزيم الرعد بأصوات انفجارات القذائف الثقيلة، من المدرعات التي تحيط بالقرية والمنتشرة في شوارعها، كما امتزج صوت حبات المطر تطرق الأبواب والنوافذ وسطوح البيوت بأزيز الرصاص، وضاع دوي الصواعق في تلك المنطقة الجبلية بين جلبة القبائل يلقي بها الجنود كيفما اتفق، لزرع الرعب وإخماد الثورة في النفوس الغاضبة.

انفجار كبير زلزل تلك القرية وهز جدران بيوتها، ارتفع بعده عمود من النار طويل، من منزل خليل درويش، انتهى بدخان أسود، تماهى مع الغيوم الثقيلة، وظلت الأمطار تهطل بغزارة لم تشهدا المنطقة من قبل، لكن تلك الأمطار على غزارتها لم تتمكن من إطفاء الحريق الذي التهم منزل الأستاذ رشيد، والد خليل، بكل ما فيه من أثاث جميل أنيق، تعبت الأسرة على امتداد خمسين عام في جمعه وترتيبه، وأتت على المكتبة التي تحوي مئات الكتب، بلغات ثلاث، كان الأستاذ رشيد يتقنها قراءة وكتابة ومحادثة، كما أفنت تلك النيران المشغولات اليدوية والمطرزات التي اشتهرت بنات الأستاذ رشيد، أخوات خليل، بإتقان صنعها.

انجلت الغارة وانقضى النهار، لكن النار لم تنطفئ في ذلك المنزل الذي تحول إلى جمره كبيرة، وظل الدخان يتصاعد من جنباته، أبيض تارة، أسود تارات، بنفسجيا بين هذا وذاك، وراح من بقي من سكان القرية يحمدون الله على أن الأسرة غادرت القرية قبل ذلك بيوم واحد.

هل كانت غارة؟ أم حرب؟ أم اجتياح؟ في الحقيقة كان كل هذا، مئات السيارات العسكرية والمدرعات دخلت القرية الآمنة الوادعة من محاورها الأربعة، نزل الجنود منها وانتشروا انتشار الجراد في الأتربة والحارات والدروب، اقتحموا البيوت بهجوم يندى له جبين المغول والتتار، نهبا ما خف

ابتسام شاكوش

حملة وغلا ثمنه، وحطموا ما عجزوا عن حملة من نفيس الأثاث والأدوات الكهربائية، عبوات زيت الزيتون التي تتسع لعشرات الكيلوغرامات، والتي تنتجها تلك القرية وتحفظ بها لمؤونة أسرها، أراقوها على المقاعد والأشرة والسجاجيد، فتحو الخزائن بعثروا الملابس على الأرض وتبولوا فوقها، ثم انصرفوا مع غنائمهم مع بداية الليل.

أحمد الشب رجل سبعيني، ضئيل القامة يصبغ شعره بالأسود، أرسل زوجته مع أبنائها إلى منزل ذويها في مدينة اللاذقية، منذ بلوغه الانذار بهذه الغارة، وبقي وحيدا في منزل كل أثنائه حصير وبضع مساند من القش، وبعض الأشياء التي لا تتغني عنها اية أسرة فقيرة في العالم، لم يرافق زوجته في رحلتها، فهناك في الطابق السفلي من الدار، أبقار هي كل ثروته ومصدر عيشه، لا بد من اطعامها وحلبها في كل صباح ومساء.

وقف العجوز ذاهلا في شرفة بيته يرقب ما يجري، كان العساكر بكامل لباسهم الميداني يركضون بجون تحت المطر الغزير، يركلون أبواب البيوت، يخلعونها، يدخلون الزرائب ومخازن العلف، يفتشون، يحرقون، يخربون كل شيء، يطلقون رصاصهم عشوائيا في كل الاتجاهات، ثم ينسحبون ليدخلوا حارة أخرى، يكررون فعلهم، على خلفية موسيقية من رصاص بنادقهم، وقذائف مدافع زملائهم، التي اصطفت أمام منزل خليل درويش، تحت نظر العجوز الذاهل في شرفته.

انتبه اليه أحدهم فأشار إلى رفاقه، تبعوه جريا على السلم الحجري الضيق المتسخ، اقتحموا الأبواب وأحاطوا بالرجل موجهين اليه فوهات بنادقهم

— أخرج ما عندك من سلاح فورا

— هذا بيتي، فقتشوه وخذوا منه ما تريدون

— أخرجها بنفسك وسلمها لنا، اياك أن تتعرض لغضبنا

— لن أتحرك من مكاني، البيت أمامكم فابحثوا فيه عن غايتكم

هدوء الرجل وبرود أعصابه أربكت قائد المجموعة، تأتا وأفأقا، تهدد وتوعد، ثم أمر جنوده بمغادرة المنزل والخروج من الحارة، وظل العجوز يرقبهم من شرفته، حتى غابوا عن نظره متجهين إلى منزل الأستاذ حسين ديب، لكن صوت رصاصهم وصياحهم لم يغب، بل اشتد وعلل، في حين اقتربت مجموعة

وقع الخطي

أخرى من الجنود قادمة من ساحة الواطية، على وقع خطى سابقتها، خلع أفراسها الباب الحديدي للمنزل أم تركي، وانتشروا داخله، عندئذ تراجع أحمد الشب عن شرفته وقد ابتل جسده بعدما ابتلت ثيابه بماء المطر، وصار يرتجف من شدة البرد، دخل المنزل ليستبدل ثيابه بأخرى جافة، وليكمل متابعة المشهد من وراء زجاج النافذة.

فات النهار، لا أحد يعلم كيف انقضى، ولا كيف غربت شمسه من وراء الغيوم الدكن والمطر الغزير، الذي لم يتوقف لثانية واحدة، ولا توقف إطلاق الرصاص، ولا خمدت النيران المشتعلة في منزل خليل درويش، بل تحولت من اللون الأحمر إلى الأصفر المبيض، ثم الأزرق، مما جعل من تبقى في القرية من سكانها يتساءل: أية مواد هذه التي تحترق داخل المنزل؟ وأي نوع من التفجرات زج فيه لتشتعل بهذه الألوان الغريبة؟

بدأ الظلام يلف القرية بسرعة رهيبية، مستمدا بعض ظلمته من الغيوم التي تركت سماءها وتنزلت إلى الأفق الأدنى متعجبة مستكشفة توقف إطلاق النار، فما عاد يسمع سوى بعض الرشقات تطلقها فلول الحملة أثناء مغادرتها القرية، لتؤكد وجودها وتثبت تهديدها ووعيدها، في حين بدأت سيارات الجيش ومدركاته بالعودة أدرأجها، محملة بالغانائم والأسلاب، ووقف سكان قرى خالفة والرطيلية وبزفت الواقعة على طريقها إلى ثكناتها، يتفرجون بصمت، ويتمسكون رؤوسهم، منتظرين دورهم، ليصيبهم مثل ما أصاب جيرانهم.

لم يرد سكان القرية على كل تلك الحرب برصاصة واحدة، كانوا يفضلون بقاء هذه المنطقة هادئة آمنة، برغم حملات الاعتقال التي سبقت هذا الاجتياح، منصتين لكلام كبارهم وعقلائهم، بألا يشعلوها حربا بينهم وبين جيرانهم في القرى العلوية المحيطة بهم، والتي ضربوا صداقة مع كثير من رجالها، يبيعون لهم ويشترون منهم، لعلمهم أن شرارة الطائفية لو قدحت هنا، ستضرم نارا تأتي على البلاد والعباد، ولن تنطفئ جمرتها الا بعلم الله، هذه ثورة، شعب يريد إسقاط نظام شمولي مخابراتي جائر، وليست حربا طائفية، برغم هذا، كانت حصيلة ذلك النهار ثلاثة شهداء من نخبة شباب القرية.

بدأ الرجال بالخروج الحذر من مخابئهم، بملابس يسيل منها الماء، اذ اضطر بعضهم للاختباء في ظلال أشجار لم تستكمل كسوتها الجديدة من أزهار وأوراق الربيع، أغصانها شبه العارية لا تمنع حرا ولا مطرا، وآخرون اضطروا للاختباء في أنفاق تتجمع فيها مياه السيول قبيل انصبابها في السلد، أو في مجاري الأنهار المحيطة بالقرية، أما أحسنهم حظا فهم من تمكنوا من الوصول إلى الكهوف في بطون الجبال، حيث

ابتسام شاكوش

أمضوا نهارهم في إعادة استكشاف ما يعرفون من تفاصيلها... في مغارة العليّة اجتمع عدد منهم، توزعوا بين أسرة منحوتة بالصخر، وتأمّلوا رفوفاً حجرية أعد بعضها لوضع السراج، وبعضها لوضع أشياء أخرى، وفرنًا للخبز يوقد بالحطب، يخرج دخانه من مدخنة منحوتة أيضاً بالصخر، إلى ظاهر الجبل، هذه المغارة كانت ملجأً لأجداد لهم في الملمات، كان آخرها أيام الاحتلال الفرنسي، حيث بدأت المعارك بمعركة (بزفت) يوم استقبال رجال الصهاونة الحملة الفرنسية القادمة من البحر ودحروها في معركة هائلة، في ذلك الحين جرت معاهدات بين كبار رجال صهيون ورجال القرى العلوية على الوقوف صفاً واحداً لصد الهجوم الفرنسي، لكن تلك المعاهدات لم تصمد سوى أيام قليلة، إذ انضم العلويون إلى صفوف المحتلين الغزاة، واجتاحوا القرية مسلحين بالسلاح الفرنسي، نيابة عن جنودهم، كمثل اجتياحهم لها هذا النهار.

وصل الرجال بعد انحسار الغارة إلى الساحات والمساجد يتفقد بعضهم بعضاً، دفنوا شهداءهم ورجعوا إلى البيوت لاستبدال ملابسهم، ومناقشة الوضع فيما بينهم، واضعين أسوأ الاحتمالات لما هو قادم في الأيام القليلة الآتية.

كان ذلك يوم الخميس الخامس عشر من شهر آذار من عام الفين وأثني عشر، هدأ المطر بعد العشاء وتقطعت السحب، انكشفت بقع من السماء، فأطلت النجوم من فرجات الغيم تنظر إلى الأرض بصمت، تعبر عن دهشتها بوميض متقطع ثم تعود للاختباء وراء السحب الراكضة عبر الأفق، فزعة من هول ما رأت، عشرات الأبقار والأغنام والخيول، وحتى الكلاب، خرت مضرجة بدمائها صريعة الرصاص، وبعضها ما يزال يتخبط بالأم صنعتها رصاصات استقرت في رؤوسها وأحشائها ولم يسعها الموت بالراحة.

هدأ صوت الرصاص، ما عاد يسمع في الجو سوى أصوات مبهمة بعيدة المصدر، توقف هطول المطر فجاء أحمد الشب إلى بيت أخيه الأكبر يطلب الدفء والأمان، ففي البيت ليس سوى العجوز وابنتيه، وأم حليلة مع أطفالها، سهر الجميع في غرفة واحدة أمام مدفأة الحطب، التي لم تخمد نيرانها، ولم تستطع تدفئة عظام العجوزين، التي نخرتها الثياب المبتلة طوال النهار، برغم حرارة حطب الزيتون والسنديان المشتعل في جوفها، تناولوا عشاء خفيفاً من حساء العدس، ثم شربوا الشاي، وجلسوا يتحدثون، بل يستمعون لحديث العجوزين.

بدأ الرجلان يتبادلان حديثاً عادياً يتناول الحياة اليومية متجاهلين ما حدث، في محاولة لبث روح الأمان، بعد نهار لا يشبهه النهار، بينما كان الأطفال يلتصقون بأهمهم، يلجمهم الرعب ويطفئ بسماتهم، برغم محاولات الجميع لإخراجهم من حالة الرعب التي شلت ألسنتهم وأجحظت عيونهم.

وقع الخطي

قال أحمد الشب: حكايات أبي ما تزال ماثلة في خاطري، حية كأني أسمعها الآن، وأشاهد في خيالي أحداثها مفصلة، في خيالي؟؟ بل اني أشهدها حقيقة وأعيش أحداثها حقيقة واقعة، حدثني أبي بأنه كان شابا يوم تعرضت صهيون لمثل هذا الهجوم، وهذا الاجتياح، ما اكتفى المهاجمون يومها بحولة واحدة، بل توالت هجماتهم، يحرقون فيها وينهبون ويقتلون، مما اضطر الرجال إلى إجلاء النساء والأطفال والدواب إلى جبل الزاوية في الشرق قريبا من ادلب، أخلوا القرية من سكانها ورجعوا ليحاربوا دفاعا عن أرضهم وشرفهم.

— هل سنترك بيوتنا ونهاجريا عمي؟ سألت أم حليلة.

— ليس بعد يا روح عمك، نأمل أن يعود الغزاة إلى تحكيم العقل، ويأخذوا العبرة من التاريخ.

— لو اعتبروا لما رجعوا بهذا الشكل الوحشي الذي رأيناه هذا اليوم.

— كان هجومهم في الماضي أكثر وحشية، أحرقوا بيوتا بسكانها، ودفنوا الرجال مقيدين أحياء.

مدت أم حليلة ذراعيها بلاوعي وشدت إليها أبناءها، تحميمهم من خطر يتهددهم، تذكرت الهياكل العظمية التي اكشفها خليل درويش في باحة داره حين كان يحفر مكان عمود جديد ليمد شرفة البيت أمتارا نحو الشرق، بعد متر واحد عشر على جمجمة، تأنى بالحفر ووسع دائرته، ليكتشف ثلاثة هياكل عظمية في وضعية الوقوف، مقيدة أرجلها بسلسلة حديدية واحدة، الجثث لا تقف، لابد أن أصحابها قد دفنوا أحياء، سأل أحد العجائز تفسيرا لما رأى فأخبره أنهم افتقدوا ثلاثة رجال يوم هاجروا من صهيون في بداية الاحتلال الفرنسي ومشروع إقامة الدولة العلوية، وضاع أثرهم، لا بد أن هذه الهياكل تعود لهم، صارت هذه الهياكل حديث القرية لسنوات تالية، واستفرت الشباب للبحث عن حقائق ما جرى في تلك الفترة، والذي لم يدون منه شيء سوى قصائد يحفظها بعض من عجائز القرية، أترانا نعود الآن الى مثل تلك الحقبة من التاريخ؟ هل قرر التاريخ إعادة الأحداث بنا؟ أحكمت المرأة ذراعيها حول ولديها خائفة هلعة، وذرفت عيناها دموعا صامتة سقطت إحداهما على وجه ابنتها حليلة، ذات السنوات الثمانية، الممتدة قرب المدفأة، واضعة رأسها في حجر أمها، رفعت الصغيرة رأسها بهلع تنظر في الوجوه

— أمي.. أنت تبكين

— لا يا حبيبي، مدفأة الحطب تطلق دخانا طرف عيني

ابتسام شاكوش

— لماذا لم تطرف عيوننا كلنا؟ بل أنت تبكين، هل سيحرقوننا؟

— من هم يا صغيرتي؟ سأل العجوز

— هؤلاء الذين تتحدثون عنهم

— نحن نحكي حكاية يا حليلة، ألا تريدان سماع حكاية قبل النوم؟

— هذه ليست حكاية يا جدي، أخبرتي الجدة أم علي بأنها كانت في مثل عمري، وأنها عاشت

رحلة المهاجرة

— يجب أن يعرف الصغار ما يدور حولهم يا أخي...تدخل الحج محمد

— سيكبرون ويعرفون، دعهم لطفولتهم يا أخي...حرام ..

ران الصمت، كانت هسهسة النار وحدها تقطع السكون الرهيب، العيون تدور في الفراغ وكل من الساهرين غارق في بحر منفصل من الأفكار مظلم عميق، توهجت الشمعة باعثة مزيدا من النور، معلنة عن نزعتها الأخير، تنبتهت عائشة، فقامت تتلمس طريقها عبر الظلام إلى خزانة المطبخ، حيث تختزن كمية من الشموع خبأتها لمثل هذه الظلمة، فانقطع الكهرباء شيء عادي على امتداد القرى والمدن السورية، اعتاد الناس عليه منذ سنوات، بذريعة التقنين، اذ ينقطع التيار في السادسة صباحا ويستمر إلى الثانية عشرة ظهرا، ثم يعود فينقطع في السادسة مساء حتى منتصف الليل، لكنه يطبق الآن على هذه القرية كنوع من العقاب، كان سكان القرية يطلون من نوافذهم وشرفات بيوتهم، القديمة الضيقة، المحكومة بقوانين البلدية، والتي لا تعطي رخصة للبناء أو الترميم الا مقابل مبالغ باهظة يعجز عنها فقرهم، ويفضل بعضهم العيش في البيوت القديمة المتهاككة، على دفع مبالغ تذهب الى جيب رئيس البلدية، وجيوب أسياده الذي وضعوه في هذا المنصب، ينظرون بغیظ إلى القرى العلوية المحيطة بقريتهم، والتي لا تخضع للتقنين، تتلأأ المصابيح الكهربائية في شوارعها الفسيحة وساحاتها، وفي نوافذ قصورها، بينما يلف الظلام الدامس قريتهم في معظم ساعات الليل، تلك القرى أبناؤها مقربون من السلطة، معظمهم ضباط في الجيش والمخابرات، وهنا وزير أو معاون لوزير، لا ينبغي ان تقطع عنهم الكهرباء، بينما منع أبناء صهيون من دخول الكليات الحربية بمختلف اختصاصاتها، ومن المناصب العليا، فترى الشهادات الجامعية مصلوبة على الجدران الباردة، تصرخ في وجوه أصحابها كل حين: أنتم المنسيون، حظكم من الدولة المراقبة الأمنية فقط، على

وقع الخطى

كل حركة لكم وكل سكون، على كل كلام وكل صمت، على كل ما تفعلون وما لا تفعلون، على ما يدخل جيوبكم وما يخرج منها، على ما تتمازحون به من هرج الكلام في ساحاتكم ومساجدكم وبيوتكم، كانت هذه المراقبة تتم عبر مخبرين زرعوا بين الرجل وأخيه، بين الرجل وظله.

لكن أهل هذه القرية لا يعبؤون بشيء من هذا، استغنوا عن الدولة وعن خدماتها، أنزلوا شهاداتهم عن صلبانها، أودعوها أدرجا مظلمة، واستفادوا من كل ما هو في متناول أيديهم من مصادر الرزق، اشتغلوا في الزراعة فأنتجت أرضهم أجود أصناف الفواكه والخضار والزيتون، وفي تربية الأبقار الحلوب، وصنعوا الفحم من خشب الغابات المحيطة بقريتهم، بل تجاوزوا حدود قراهم ليدخلوا حرم القرى العلوية. يصادقون فقراءها، فالفقر نسب، أو يعادل النسب في بعض الظروف، يشاركونهم قطع الحطب وصنع الفحم، يتعاونون معهم على التعامل مع حراس الغابات، يخبرونهم بمواعيد الدوريات ليلتعدوا عن مواجهتها، أو ليقدموا الرشوة لأفرادها، يراهم أهل تلك القرى فينسحبون بصمت أمام شجاعتهم وجرأتهم، يدخلون بيوتهم ويعلقون أبوابها، ما استطاعت سنوات القمع والقهر والافتقار، ولا استطاعت ضغوط فروع الأمن بكل ثقلها النيل من جبروتهم وشجاعتهم، أو زرع الفتنة فيما بينهم، نعم لقد جندت فروع المخابرات أشخاصا منهم كمخبرين، ينقلون لها ما يدور بين الجدران وخلف الجدران، لكن هؤلاء معروفون، مكشوفون للجميع، يعاملونهم كما يعاملون كلابا جرباء، يقصونهم عن مجالسهم التي يقيمونها في الحقول وحول المشاعر، على كتف الوادي أو في ساحة الواطية، وعلى مرتفع قبر غزير، وحين ينحشر بينهم أحد المخبرين، يتركون كل الأحاديث ويجعلونه مادة لسخريتهم، وما أبرعهم بصياغة الطرائف والسخريات، يضحكون، دوما يضحكون، فيضطرر للانسحاب من بينهم ذليلا مهانا، ليتابعوا ما انقطع من أحاديثهم الجادة.

— أمي أنا جائعة

— ماذا تشتهين يا صغيرتي؟

— لا أريد شيئا الآن... أمي.. هل سنجوع ونأكل الأعشاب والخرنوب وثمار البلوط كما حكمت

لي جلتى؟؟

— لا حول ولا قوة الا بالله

الفصل الثاني

- اسرعي يا حليلة... اجمعى أشياءك واسبقيني إلى السيارة
ركضت حليلة تحمل حقيبة كتبها وتحتضن دميتها، خطوتين ثم عادت إلى أمها تسألها
— إلى أين نذهب يا أمي؟
— ...
— هل سنزور بيت عمي سعيد في اللاذقية؟
— اسرعي وبلا أسئلة
— لماذا نزرهم في الليل؟ سنجد بنات عمي نائمات ولن يلعبن معي
— دعي حقيبة الكتب هنا... خذي هذه الحقيبة واسبقيني إلى ساحة القرية
جرجرت حليلة الحقيبة الثقيلة خطوات، أدركها عمها أبو عبيدة، فحمل عنها الحقيبة بيده، وحملها
هي على ذراعه الآخر ثم ركض باتجاه شاحنة تتوسط الساحة، الساحة تغص بالبشر، رجال ونساء وأطفال،
من هؤلاء؟ من أين جاؤوا؟ إلى أين يذهبون؟ أسئلة لم يجب عليها العم ابو عبيدة، بل وضع ابنة أخيه
في صندوق الشاحنة، ثم عانقها بحرارة لم تعرفها من قبل، بلل وجهها بشيء ما، جعلها تجهش بالبكاء،
أوصاها بطاعة أمها و بالألا تتعد عنها أبدا.
— إلى أين نذهب يا عمي؟
— هل يذهب كل هؤلاء الناس معنا إلى دار عمي سعيد؟ لماذا نركب الشاحنة ولا نركب الحافلة
مثل كل الزيارات؟؟ أين أمي؟؟

ابتسام شاكوش

أسئلة متلاحقة كان ترشقها الطفلة الباكبة ، لم يجب أبو عبيدة على أي منها، فكت حليلة ذراعيه عن وسطها وابتعدت لتمسح دموعها ولتنظر في وجهه، كانت عيناه غارتين بالدموع.

— انت تبكي يا عمي؟ وهل يبكي الرجال؟

— لا يا صغيرتي، هو شعرك الجميل دخل عيني فطرفها

— إلى أين نذهب؟

— إلى أمان الله

— أخبروني إلى أين نذهب؟ هل سنشترك في المظاهرة؟ هل قتل عبد القادر السوسي من

جديد؟

عام بكامله مضى على تلك الحادثة وما زالت راسخة في ذهن حليلة الصغيرة كما في أذهان الآخرين من أبناء المنطقة، عبد القادر السوسي كان مدير المالية في الحفة، رجل بسيط مسالم، يبحث دائما عن سلته ولا يريد العنب، يكتبني من وظيفته بمرتبته، وينفق ما يتبقى له من وقت في مزرعة له، قرية من قرية قبر العبد، ما ورث أرضها عن أبيه، فأبوه كان فلاحا بسيطا مدقع الفقر، بل استأجرها من أرملة ذات عيال صغار، اذ لا طاقة لها على استثمارها، استأجرها و أنشأ فيها مشتلًا للغراس، ينتج كل أنواع الأشجار التي توجد زراعتها في تلك البقعة من الأرض، كان جل حديثه في مجلسه مع أصدقائه يدور حول تلك المزرعة، والأساليب التي يتبعها في العمل، والأدوية الزراعية والهرمونية التي يستخدمها في عمله، ما كان يظن من يستمع لحديثه أنه يشغل هذا المنصب الهام في وزارة المالية.

عبد القادر تخرج من كلية الحقوق مع زميل له من قريته، أصر الزميل على العمل في المحاماة، قدم له عبد القادر النصيحة فما استجاب، المحاماة مهنة تتطلب شخصية قوية صدامية نفتقر أنا وأنت لها، يكفينا من الحياة وظيفة عادية، لا تظن أبدا أنك تستطيع إحقاق الحق بفهمك للقانون، هذا بلد لا يعترف بسيادة القانون، الحق للأقوى، وللمقرب من دوائر المخابرات، الحق لمن كان مدعوما من أحد أفراد الأسرة الحاكمة، أو أقاربهم، الحق لمن يملك المال فيرشو القضاة، لكن الصديق لم يستجب، وذريعته أنه لا يجب الظلم ولن يرضى به لموكليه، وبأنه لن يقبل رشوة من الخصم كائنا من كان، الرشوة تقدم للقاضي يا صديقي، فيفصل بالقضية لصالح من دفع، لم يقبل النصح، فكان أكثر المحامين الذين عرفتهم الحفة فشلا، بينما أخذ عبد القادر شهادته وتقدم بها إلى عدة وظائف، وقذف به حظه إلى دائرة المالية.

وقع الخطي

عبد القادر كان بعثيا، منساقا مع التيار، انتسب إلى حزب البعث مثلما انتسب الملايين غيره من أبناء سوريا مجبرين لا مختارين، قدمت لهم استمارة الانتساب بشكل جماعي ليقعوا عليها، ولم يسمح لهم بقراءة محتواها، وقعوا، ثم بارك لهم معلمهم الانتساب الى حزب البعث، مبشرين إياهم بمستقبل آمن، فألفضية في دخول الجامعات، وكذلك في استلام الوظائف هي دائما للبعثيين، والإدارة في كل الدوائر لا بد أن تكون في يدهم، فمن الطلاب من استسلم للقرار لا مباليا بنتائجه، ومنهم من اعترض، ثم رضخ، تحت التهديد بالطرد من مدارسهم و جامعاتهم، وحرمانهم من وظائف الدولة، رغم هذا كان عبد القادر يجر ذبول صمته ليحضر كل الاجتماعات، رهبة لا رغبة، ويردد ضاحكا بصورة مكتومة - حين يسأله أبناء قريته عن سر هذا الحرص على الحضور- بيت شعر التقطه من مكان ما :

ولكنني أصطاد رزقي بأرضهم ولا بد للصياد من صحبة الكلب

كان يحضر كل الاحتفالات (الوطنية) التي ما ان ينتهي أحدها حتى يبدأ الآخر، يحشد الناس في ساحة السرايا، هذه الساحة التي ما فتئت تحتضن الاحتفالات التي سميت بالوطنية، منذ احتفالهم يوم استلام حزب البعث مقاليد الحكم في سوريا، ورقصوا حينها على وقع أغنية يقول مطلعها) لف المشمش عالتفاح...دين محمد ولي وراح) الى الوقت الذي ارتفعت فيه أغنية) حللك يا الله حللك). يقعد حافظ بمحللك) مرورا بهتاف (بدنا نحكي عالمكشوف اخونجي ما بدنا نشوف) الحشود هنا كلها من الطلاب والمعلمين والموظفين، يحاطون بأطواق صلبة من رجال الأمن والمخبرين، يجبرون على سماع خطابات تتكرر في كل المناسبات، ما كانوا يستمعون، ولا يعلمون ما يقوله الخطباء، ليس مطلوب منهم أن يسمعوا أو يعرفوا، كل ما هو مطلوب التصفيق بشدة حين سماعهم اسم حافظ الأسد.

كان المصطفون في الصف الأول يستمعون، وفي الصفوف الأخرى يتحادثون، يتناقشون في كل ما يخطر لهم من الأحاديث، حتى اذا سمعوا التصفيق ينطلق من الصف الأول، انتقلت العدوى إلى أكفهم المتحفرة بفعل الخوف فصفقوا، هذا كل شيء، ما كان عبد القادر يدنو من الصفوف الأولى، بل كان يفضل الوقوف مع بعض أصدقائه على زاوية الرصيف أمام دكان قيس زريق، يشترون بعض البسكويت والعصائر، يتسلون بها، يتفرجون على مجموعات من الشباب والشابات قدما من قرى الجبل، وقد شبكوا أيديهم بأيدي بعض في رقصة الدبكة، على قرع الطبل والمزمار، في أيدي أفراد من القرباط، لا يعييون أبدا عن هكذا مناسبات، منسجمين في رقصهم غافلين عن الحفل وما يدور فيه.

ابتسام شاكوش

كان الاحتفال بانتصارات حرب السادس من تشرين (التحريرية) تبدأ في بداية تشرين، وتستمر بشكل يومي وبكل هذه الحشود حتى السادس عشر من تشرين الثاني إذ يحين موعد الاحتفال بالحركة (التصحيحية المجيدة) فتبدأ من جديد، والويل كل الويل، للمواطن الذي يحتاج مراجعة إحدى الدوائر في تلك الأيام، لن يجد دائرة واحدة تستقبله، بل سيجبر على الوقوف مع الجماهير المحتفلة، لأن أعين المخابرات والمخبرين لا تغفل، وأيدي كتاب التقارير لا تقتر، سرعان ما يعرفون تقريرهم إلى فروع الأمن لو انسحب مواطن من الاحتفال، سيظنون في وطنيته وولائه للوطن، وربما أضافوا أنه يتعامل مع جهة أجنبية لو كان علمانيا، ومع الإخوان المسلمين لو كان متدينا (العصابة الإرهابية ذيل الرجعية والامبريالية) وفق الشعار الذي فرض على تلاميذ المدارس ترديده في طاوور الصباح.

عبد القادر السوسي مثل غيره من سوريين، كان مدركا الكذبة الكبرى، والهزيمة التي ألبسوها أثواب النصر في حرب تشرين، بل يعلمون بالخديعة والمؤامرة التي تم بموجها تخلي اسرائيل للأسد عن أطلال مدينة القنيطرة المهدامة، مقابل مساحات واسعة من الجون، سهولا وجبالا وأخصب الأراضي، سلمها لاسرائيل، إذ جاء الأمر للجنود بالانسحاب قبل وصول أي جندي اسرائيلي اليها، لكنه، وجميع المشاركين في الاحتفالات، لا يملكون القدرة على الاحتجاج، أو الاعتراض، فالبطش بلا رحمة سمة أساسية من سمات نظام حزب البعث، وتدمير مدينة حماه ما يزال ماثلا للعيان.

كان عبد القادر قبل استلامه لإدارة المالية، ينجز ما لديه من عمل، ويقف في نافذة غرفته، في الطابق الثاني من بناء السرايا، النافذة مغطاة بصورة كبيرة جدا لحافظ الأسد، الذي كرس نفسه القائد الواحد للبلاد، حامل كل صفات الكمال على الأرض، فهو المعلم الأول الشرطي الأول والمحامي الأول والعسكري الأول والفلاح الأول والعامل الأول... وكل ما شاء من الأوصاف والمهن والنشاطات، وفوق هذا كان الأب القائد لكل أبناء سوريا، وهذه الأبوة أيضا فرضت على تلاميذ المدارس، يرددونها شعارا ضمن منظمات الطلاب والشبيبة وسواها، هذه الصورة العملاقة المرسومة على القماش، تتدلى من سطح السرايا حتى تكاد تلامس أرض الشارع، مغلقة نوافذ الغرف الواقعة خلفها في الطابقين، مانعة عنها النور والهواء، القماش مؤلف من جزأين، تم وصلهما بخياطة متينة لاستيعاب اللوحة، لكن الموظفين الذين ضاقوا ذرعا بظلام غرفهم، نقضوا تلك الخياطة، وأحدثوا فرجة فيها، باعدوا بين الجزأين ليتاح لهم رؤية الشارع، كان عبد القادر يقف أمام النافذة، يباعد بين قطعتي القماش، ويقف خلفه زملاؤه، لينظروا جميعا من بين فخذي السيد الرئيس

وقع الخطي

إلى الساحة التي يتوسطها تمثال نصفي لصاحب الصورة، وإلى الجماهير المحتشدة في الاحتفالات، بينما ينظر زملاؤهم في الطابق السفلي إلى المشهد ذاته، من بين فردي حذاء سيادته، قبلما يأمرهم مديرهم بترك أماكنهم والنزول إلى الساحة.

عبد القادر ينتمي إلى أسرة صغيرة فقيرة، ضعيفة، ويحتل منصبا هاماً، لذلك تم اختياره من قبل النظام ليكون الضحية الأولى، عبد القادر المسالم اتخذ الكثير من أفراد الطائفة العلوية أصدقاء له، لم يخترهم، بل اختاروه، كان خجولاً لا يرفض صداقة أحد، ولا يرفض الإنصات إلى حديث أحد، مخلصاً لعمله ولمزرعته، ترك القرية ولحق بزوجته فسكن معها في مدينة اللاذقية، لذلك اشترى شاحنة صغيرة، من أرخص الأنواع، تعينه في التنقل بين بيته ومزرعته ومقر وظيفته.

في ذلك اليوم الأكبر، السادس من شهر حزيران، ركب سيارته من اللاذقية، سار بها على طريق حلب، ليمر بالمزرعة يتفقدوها وينجز بعض الأعمال فيها قبل بدء الدوام في الدوائر الحكومية، لكنه لم يصل المزرعة، قبلها بقليل، على مفرق قرية البهلوية تم قتله داخل سيارته، كان أحد أبناء قريته ماراً من ذلك الطريق، لمح السيارة والناس المتجمهرين حولها، رجال شرطة وعسكريين ومدنيين، تقدم مستكشفاً، فأذله ما رأى، عبد القادر يجلس ميتاً خلف المقود والدم يملأ قاع السيارة، سرعان ما حضرت سيارة الإسعاف، نقلت الجثمان إلى المستشفى، وبقيت سيارة عبد القادر في مكانها مفتوحة الأبواب.

عاد الرجل إلى القرية، يخبر كل من يراه في طريقه بالخبر، سرى النبا سريان النار في عشب يابس، واستنفر كل أهل صهيون للخبر، جمعت كل ما في المنطقة من آليات، سيارات، دراجات نارية، جرارات، شاحنات، استقبل جثمانه كما لم يستقبل جثمان من قبل، طافت جنازته بذلك الموكب المهيب كل شوارع الحفة وكل قرأها، والجميع يهتف بإسقاط النظام، حضر الجنازة كل رجال الشرطة، والمخابرات، كانوا صامتين يراقبون، أمام القبر أقيمت الكثير من الخطب الحماسية، قيل فيها الكثير من التحدي، ثم دفنت الجثة، وحضر وزير الداخلية ليهدي من روع الناس، وليعدهم بالاقتصاص من الجاني كأننا من كان، حماس الشباب لم يطفئه وعد الوزير، بل أقاموا مهرجاناً خطابياً فوق القبر، تحدث فيه مطولاً خليل درويش، وآخرون من رجال القرية الشجعان، كما تحدث صلاح البيطار مطولاً، وقال في ختام خطابه: لم يبق أما شرفائنا سوى طريق واحد لاستعادة كرامتنا، وهو الثورة، واستكمل المشهد بمظاهرات عمّت بلدة الحفة وقرأها، لم تنطفئ لها جذوة، حتى كانت الهجرة.

ابتسام شاكوش

وصلت أم حليمة، تحمل بيدها صرة كبيرة، ويدها الأخرى رضيعها، أعطت الرضيع حليمة وفرشت ملاءة على ارض صندوق الشاحنة، أضجعت عليها صغيرها ثم تسلقت بصعوبة الباب الحديدي المرتفع، لتجلس مع أسيائها وولديها في الزاوية، كان الرجال المسلحون يملؤون الساحة، يتغلغلون بين الزحام، يساعدون بصمت هذا و ذاك وتلك، وصلت عائلات عديدة إلى الشاحنة، مقاسمة حليمة وأمها تلك المساحة الضيقة.

— أمي أنا خائفة

— مم تخافين يا صغيرتي؟

— من هذه البنادق، هل سيطلقون النار علينا فتموت كما مات ابن عمي غزوان وصديقه عبد

العظيم؟

— هؤلاء أهلنا يا حليمة، هذا هو الجيش الحر، ألم تسمعي في التلفاز الحشود المتظاهرة وهي تهتف

(يا جيش الحر . الله يحميك)؟

هزت الصغيرة رأسها موافقة وقامت من مجلسها، تسلقت سور الشاحنة الحليدي، رفعت قبضتها في الهواء وهتفت بأعلى صوتها: (يا جيش الحر، الله يحميك) ، انطفأ الخوف من صدور الأطفال كما ينطفئ برد الشتاء، وأزهر الفرح، كانوا يتخيلون أنهم ذاهبون في رحلة كرحلات المدارس، ردد كل الأطفال هتاف حليمة، رافعين قبضاتهم الغضة في الهواء، ابتسم لهم الرجال المسلحون وحيوهم برفع بنادقهم، وانقلب المشهد إلى احتفالية مهيبة، أحييتها حناجر الأطفال .

تحركت الشاحنة الأولى بما تحمل من العائلات، لحقت بها الثانية والثالثة، تجاوزت القافلة الشوارع المضاعة، لتدخل بين البساتين ثم الحراج المظلمة، هنا صرخ صوت أجش بالأطفال أن اصمتوا، كمت الأفواه ولاذ الصغار بأمهاتهم خائفين، سكتت الأغنيات وارتفع صوت الرضع ببيكاء يشويه الرعب، وظلت الشاحنات ترتج بحمولتها عابرة الطرق الترابية لتقطع قرى بيت الشكوشي ونباتة وبلوطة، بهدير غليظ ، أسندت حليمة رأسها على كتف أمها لتدخل عالم النوم القلق، بينما انخلعت أم حليمة من واقعها، وجلست ساكنة صامتة، مستسلمة لهددات الشاحنة على الطريق الوعر، تحديق في الظلام غارقة في تداعيات أفكارها وخيالاتها .

وقع الخطي

في أول يوم سمح لها في الذهاب الى عملها بعد الغارة، استقبلها زميلها غدير، وهو موظف جديد في هذه الدائرة، استقبلها ضاحكا شامتا، سألتها بلهجة فظة كريهة، عن حجم خسائر القرية في ذلك الاجتياح، أجبته ببرود: لم نخسر شيئا، كل ما في الأمر بعض قطع الأثاث نهبتها أيدي جماعتكم، هذه الأشياء تشرى بالمال، وكل ما يباع ويشترى رخيص، حتى الانسان الذي يثمن نفسه بالمال : رخيص، تجمدت ضحكته على فمه، لكنه عاد ليسألها: كم قتل سقط منكم؟ أجابته: نحن نؤمن أن العمر محدود بعدد الأنفاس، هؤلاء الثلاثة انتهت أعمارهم، لكن الله أكرمهم بالشهادة، لم نخسر شيئا، بل ربحتنا الوعي.

هذا الموظف المسمى بغدير، حين سمع بالهجوم على مخفر (كنسبا) فراكضا الى المرحاض، وما ان يخرج منه حتى يعود اليه من جديد، فلتت منه أعصابه وما عاد لشدة رعبه يتمكن من السيطرة على نفسه، والمسافة الفاصلة بينه وبين موقع الحدث تقارب الثلاثين كيلومترا، بعد جولاته المكوكية الى المرحاض، أفرغ خزانة المصنفات من محتوياتها، واختبأ داخلها مقرصا لصغر حجمها، محتجبا عن مصدر الخوف.

دائرة عملها عبارة عن غرفة واحدة، تصطف الطاولات فيها صفين يلتقيان بزواية، لتشكل حاجزا يحول دون وصول المراجعين إلى السجلات، المراجعون يزدحمون قبل الظهر، يريدون إنهاء معاملتهم والعودة إلى قراهم قبل أن تتوقف سيارات النقل عن جولاتها بين القرى فتنتقطع بهم السبل، أو يضطرون للعودة سيرا على الأقدام، بعد انتصاف النهار تخلو الدائرة من المراجعين ويصبح الجو مهيبا لتبادل الأحاديث مع الزملاء وشرب الشاي، زميلتها سناء تنتهز الفرصة لتسرع بالعودة إلى رضيعها، الذي أودعته حضانة الأطفال، ويخلو الجو للأستاذ سليمان رئيس الدائرة مع زواره، ليتحدث معهم بأصوات منخفضة بما شاء من أحاديث السياسة، التي لا يجروؤون على تداولها جهرا.

الأستاذ سليمان وزواره من البعثيين الأوائل، أنصار صلاح جديد، والذي قضى سنوات عمره التي تلت (الحركة التصحيحية) في سجون الأسد، الأستاذ سليمان لم يدخل المعتقل، بل نفي إلى المحافظات الشرقية، ليمارس عمله الوظيفي بين البدو وأشباه البدو، في أجواء لا تربطها صلة، مع طموحه السياسي وشلة أصدقائه المؤمنين بمثل أفكاره، وقد أعادوه إلى الساحل بعدما بردت كل الحركات المتعلقة بتلك الفترة من السياسة، وعندما ارتقى خاله في المناصب فصار بإمكانه التأثير في موضوع نقله.

ما كان الأستاذ سليمان وزواره يخشون التحدث على مسمعا، فهي امرأة بسيطة لا شان لها بالسياسة، بل إنها تخشى الخوض في أي موضوع يتعلق بالسياسة، خمسة من أفراد عائلتها اعتقلوا بتهمة الانتماء

ابتسام شاكوش

إلى الإخوان المسلمين، وهذا وحده سبب كاف لوضعها تحت المراقبة الدقيقة من قبل رجال المخابرات، ومن قبل الأستاذ سليمان وزواره، كانت في البداية تنشغل بأعمالها، أو بمطالعة بعض الكتب والمجلات في أوقات خلو المكتب من المراجعين، تنأى بنفسها عن أحاديثهم خوفا ورعبا، لكنها عافت كل شيء فيما بعد، وراحت تصغي باهتمام... لكل كلمة تقال هنا وزن مختلف، كل جملة تطرح هنا تكشف شيئا من مستور التاريخ القريب، والبعيد، والسحيق أيضا، كان الأستاذ سليمان يستقبل أقرابه العائدين من الاجتماع الشهري لشعبة حزب البعث، يستقبلهم باحتفالية ساخرة، يرفع قبضته المضمومة في الهواء، يهتف مقلدا هتافهم في اجتماعاتهم: يحيا العامل والفلاح... ثم ما يلبث أن يتبع عبارته تلك بعبارة أخرى تتكرر كلما رجعوا من اجتماعهم: لم يأكل أحد من الهواء مثلما فعتلم انتم، والعامل، والفلاح... يضحك الجميع ويتبادلون التحيات والقبلات.

شخص قديم جديد دخل محادثاتهم ومباحثاتهم، رجل ربعة، دائم المرح دائم التبسم، لا يبالي بالصعاب ولا العقبات، يستهين بها كلها، يسخر من مخاوف الخائفين، انه سعيد، رجل من سكان كفرية، القرية العلوية المترعة بالمناهضين لنظام الأسد وحزب البعث، عرفته أم حلينة يوم خروجه من معتقله، بعد غياب دام ما يقارب عقدا ونصف العقد من السنين، دخل السجن شابا يافعا، مع من دخل في بداية الثمانينات، من رابطة العمل الشيوعي والإخوان المسلمين، وخرج رجلا قوي العزيمة صعب المراس، ما فتت سنوات السجن من عضده ولا ألانت عذابات عزيمة، بل أعطته المزيد من الصلابة والإصرار، استقبله الأستاذ سليمان منذ أيام، وعلامات الخوف على وجهه يحاول إخفاءها تحت قناع من اللامبالاة، أمسك يد سعيد وسحبه للجلوس على كرسي بجانب مكتبه، سأله بإشارة اليد، ما الذي يحدث؟ إلى أين نضفي؟ ابتسم سعيد بثقة وقال: إنها خطوة جيدة في الطريق الصحيح، ثم عاد فقلص بسمته ليكمل: أمل أننا نخطو باتجاه مجتمع مندي نكون في مواطنين بدل أن نكون رعايا، في الطريق كثير من الأشواك والعقبات، تجعلني أتمنى أن يكون شعبنا متجها إلى المستقبل بعيدا تحكم عقليات الثأر والانتقام وألا يحكمنا أبشع ما في ماضينا وحاضرنا، بل أجمل ما في تطلعاتنا وأحلامنا.

كان ذلك الحديث في نهايات شهر نيسان، المظاهرات تعم أرجاء البلاد منذ أكثر من عام، لم يترك النظام وسيلة لإسكات الجماهير الغاضبة إلا وجربها بلا فائدة، جرت تحركات على مستوى كبار الشخصيات في الدولة، وجرى إيهام الناس بافتعال إصلاحات هنا، أو هناك، مقابلات تلفزيونية حشر

وقع الخطى

إليها الناس بالقوة، ليشهدوا زوراً أن الدولة تقدم أفضل الخدمات، وأن من يقومون بالمظاهرات هم شرذمة قليلون، لا يمثلون نسبة من الشعب، وجرت مقابلات مع أشخاص اعترفوا بأنهم جماعات إرهابية، يتقاضون نقوداً لقاء اشتراكهم في المظاهرات التي يشاركون فيها... محاولات إعلامية غبية وكذب مكشوف صار مادة للتندر بين أفراد الشعب، واحتل رجال الدين المؤيدين للسلطة، ومن كل الطوائف، مساحات واسعة من الساحة الإعلامية، يصولون فيها ويجولون، ينثرون الفتاوى يمينا وشمالا بالسهولة ذاتها، التي ينثرون فيها حبوب القمح للدجاج....

قال سعيد في تعليق على الشيخ الذي جاء من قرية تلا العلوية ليترشح في انتخابات مجلس الشعب، متى سيتم فصل الدين عن السياسة؟ متى سيكف رجال هذه الأسرة عن توارث المشيخة التي حولها إلى مزرعة للاستثمار؟ يتصرفون برقاب الناس كأنهم آخذين وكالة عن الرب، أما أن لهم أن يفهموا أن الشعب بات يرفض جنة يدفع ثمنها مقدما لهؤلاء المشايخ؟ كان سليمان يشير اليه بيديه كلتاها أن اصمت.. لا تفضحنا...

كانت تنصت لحديثها ذاهلة، هذا الرجل يتحدث بعقلانية ووطنية، لبت الجميع يسمع لقوله ويمثل له، أهلها مهددون، قريتها مهددة، الطائفة أطلت برأسها البغيض من جحر التاريخ، لتعلن على لسان مندوب أمن الدولة، في الاجتماع الموسع الذي أقيم في الحفة للبحث في طريقة مجدية، تقمع بها المظاهرات، ويعاد الشعب إلى ربة الخنوع والمذلة من جديد، أعلن مندوب أمن الدولة ما سبق إعلانه منذ قرابة تسعين عاماً، (أقامة الدولة العلوية في الساحل) قال في ذلك الاجتماع: اسمعوا أيها الناس وافهموا، مشروع تقسيم سوريا جاهز منذ مدة طويلة، إقامة دولتنا العلوية أمر لا بد منه، من أراد العيش في دولتنا سيعيش (بالصراية) كما تريد له الأكثرية أن يعيش، لن نسمح لصوت الأذان أن يرتفع في بلادنا، لن نسمح لامرأة محجبة بالتواجد في شوارعنا، من أعجبه هذا الكلام فليبق، وعليه الالتزام بكل قوانين دولتنا، ومن اعترض فليجد له وطناً آخر، خارج هذه المنطقة، منطقتنا.

ما أبعد البون بين كلام سعيد وكلام مندوب أمن الدولة، أيهما أقرب للواقع؟ أيهما أقدر على إنزال فكرته لتصير واقعا على الأرض، كثيرة هي الحروب بين الطوائف، والتي عرفتها هذه المنطقة على امتداد التاريخ الذي تذكره الجدة حليمة، والذي سمعت حكاياته من أبيها وجدها، وفي كل مرة تصنع الحرب أوزارها، ويعود الجميع ليعيشوا حياة جيران لا يستغني بعضهم عن بعض، يبيعون ويشتررون، يتبادلون

ابتسام شاكوش

الأحاديث والنوادر، يعبرون قرى بعضهم البعض في تلك الجغرافيا المعقدة الوعرة، ينسون تأرهم لسنوات طويلة، حتى تمتد يد من الخارج، تحرك الجمر الراكد تحت الرماد، تشعل الحرائق وتريق الدماء، ترى أين مكان هذه المرحلة على الخط البياني لأحداث التاريخ؟؟

سعيد يقول: أعتقد أن الحراك والصراع الجارين في الساحل السوري سيفرزان في سياق المحاولة لبناء دولة المواطنة والقانون، سيفرزان بعض الجيوب الطائفية الغبية، وسيفرز صراعا قد يتخذ شكلا عنفيا بشعا، لكني أأمل أن يكون ذلك على نطاق ضيق ومحدود، يترك محدثه ويلتفت إليها ليسألها.... أنت تعايشين الوضع أكثر مني... ما رأيك يا جارة قريتي؟

دفعه واحدة يضعها سعيد في موقع المسؤولية، مسؤولية التحدث باسم طائفتها، ارتبكت، ارتجفت، ولم تجب، هل تعتبر هذه الرحلة، من الجنكيل إلى جبل الأكراد إحدى مفرزات الجيوب الطائفية التي أشار إليها الأستاذ سعيد؟؟ مر في خيالها طيف عهد ابن اسحق، ذلك المجنون، حين مد رأسه من فرجة الباب وهتف بأعلى صوته: الله أكبر، ضحك سعيد وامتعص الأستاذ سليمان... بينما أكمل عهد طريقه ليدخل كل المكاتب ويهتف فيها كما هتف (الله أكبر) مثمرا بذلك موجات عالية من القهقهات تتناثر من الأبواب والنوافذ وتنتشر بالعدوى بين الموظفين من أهل السنة، توازيها موجات متساوية من الرعب عند العلويين.

— سننزل هنا

أعلنها احد الرجال بعدما توقفت الشاحنات في ساحة مظلمة، بصعوبة فتحت حليلة عينيها الناعستين، فركتها بظاهر كفيها، حاولت استكشاف المكان ثم عادت فأغمضت، واستسلمت للنوم من جديد، اصطفت الشاحنات، و نزلت أم حمزة في ساحة دورين مع عشرات الأسر، حمل أحد الرجال الطفلة حليلة، أضجعها على الرصيف مسندا رأسها إلى حقيبتها، ريشما يتم البحث عن بيوت خالية من سكانها، يؤوون فيها هذه العائلات النازحة.

كانت أم حليلة تجلس في صندوق الشاحنة، مستسلمة لأرجحتها، تحرق في الظلام، غافلة عما حولها، تحاول مزج كلام هذا مع ذلك فيتعذر الامتزاج، كالزيت والماء، توقفت السيارة، وتسارعت الدرجات النارية لتحيط بها، انتبهت ام حليلة فوجدت رفيقاتها في الرحلة يتسابقن للنزول وقد هدهن التعب والقلق تباطأت،

وقع الخطي

رحمة بابنتها النائمة، ورضيعها الذي كف عن بكائه منذ لحظات ولاذ بصدرها خائفاً، جمعت حوائجها ودفعتها باتجاه الشاب المنتظر على الأرض والمنشغل بمساعدة العائلات على الوصول لمأمن.

أشرق الفجر بنوره الكثيب، من خلف سلسلة الجبال وقامات الدلب، كشف عن عدد هائل من الصرر والحقائب والأطفال النائمين على التراب، تبعته الشمس، متمهلة قادمة بأشعتها الباهتة، تمشي على ذات المسار، تصارع الخجل والغضب والرأفة، نشرت أشعتها الذهبية على هامات الأشجار، ثم مالت من خلف الجبل، لتترك الأطفال النازحين ينعمون بنوم هادئ في ظلال الأشجار التي سلمت من حريق الأمس، ظلت حليلة مستغرقة في النوم، تنتقل من حضن إلى حضن، حتى استقرت على حصير في منزل هجره سكانه، نازحين إلى بيوت أقارب لهم في مدينة اللاذقية، وجثت أمها إلى جانبها تحاول إسكات رضيعها حمزة، بلا جدوى، الطفل يصرخ باكياً يهده الجوع والبرد، في هذا الصباح الجبلي وقد ابتلت ملابسه خلال الرحلة الطويلة و الانتظار المقيت، وأمّه حائرة قد اسقط في يدها، تفتش حقائبها وصررها مرات ومرات، فتجدها خالية من أية علبه حليب، ربما نسيت علب الحليب في البيت أو السيارة، ربما نسيتها في ساحة القرية او اختلطت مع حقائب أخرى لنازحين آخرين..

قامت فيحاء، وهي امرأة شابة من قرية شيرقاق، جاءت بأسرتها نازحة مع النازحين، لتقاسم أم حمزة مسكنها وزادها، مع ثلاث أسر أخرى، وها هي ذي ترافقها في مرحلة تالية من النزوح، وتنزل معها في هذا البيت الذي لا يعرفون شيئاً عن أهله، قامت فيحاء تفتش في أرجاء المنزل الصغير، تتفقد ما خزن أصحابه قبل نزوحهم من المؤن وما تركوا من الثياب، وعادت بعد قليل تحمل فرحاً في جنبها، وعلبة حليب بين يديها.

— خذي يا ام حمزة، اطعمي ابنك وبدلي ملابسه

أخذت أم حمزة تلك العطايا برضا، ما عاد هنالك فرق بين بيت وبيت، صارت البلدة كلها بيتاً واحداً، وصار السكان كلهم أسرة واحدة، أقارب وأهل بيت، تذكرت حكاية سمعتها من أبيها مراراً، حين دخل أحد البيوت في قرية من قرى الجبل، قدم له الطعام في طبق نحاسي كبير، كتلك التي تستخدم في الولائم، منقوش عليه زخارف بديعة وآيات قرآنية، عاف الطعام وراح يتأمل الزخارف، قل له صاحب البيت ضاحكاً: لا تستغرب يا حج أحمد، هذا الطبق ورثته عن جدي، وهو غنيمة حرب غنمها أيام الغزو على صهيون، ولن تجد في كل بيوت صهيون إناء ورثه حفيد عن جده، صهيون مخلوقة للغزو والنهب،

ابتسام شاكوش

ما تزال تغزى وتتهب بيوتها مرة تلو مرة، وما توقف نهبا، ألم تتهب أغنى بيوتها أثناء جولات المخابرات التفتيشية في الثمانينات؟؟

— أمي أين بيتنا؟

— هذا هو بيتنا الجديد، تكلمي بهدوء يا حليلة، لئلا توقظي أخاك

— هل ستسكن وداو ونور معنا؟

— نعم يا حبيبتي، ردت فيحاء، أما كنا نسكن معكم في بيت عائشة بقرية الجنكيل؟

— لا أريد هذا البيت، ولا أريد بيت عائشة في الجنكيل، أريد العودة لبيتنا في اللاذقية، أريد

ثيابي وألعابي

لم تجد البنية ردا من المرأتين فخرجت من بينهما تستكشف الدار الجديدة، لحقت بها فيحاء تاركة ابنتها مستغرقتين في نوم ثقيل، بعد ليلة طويلة من التعب والإرهاق، رأت حليلة في باحة الدار كرة كبيرة، ركلتها بقدمها وركضت خلفها خطوات ثم توقفت، راحت تبحث عن شيء ما لا يعيه فكرها المشتت، شاهدت قطة تختبئ بين أعشاب الحديقة، تقدمت منها بحذر فهربت القطة، تسلقت جدار السور الخشن، ثم نزلت في جانبه الآخر على الدرب، تلفتت حولها في المكان الغريب، ثم جلست على أولى درجات السلم الحجري وانخرطت في بكاء مرير.

— ما الذي يبكيك يا حبيبتي؟ دنت منها فيحاء واحتضنتها بين ذراعيها وراحت تمسدها

— لا أعرف... أريد بيتنا

— ستعودين يا حبيبتي، سنعود كلنا إلى بيوتنا، انظري إلى هذا الحبل الطويل هنا، هل أصنع لك

أرجوحة؟

— لا أريد أرجوحة، أريد العودة إلى بيتنا

— وأمك هل تتركينها هنا؟ هل تعرفين طريق البيت وحدك؟

— لا

— انتظري إذا، حين يعود أبوك، ويعود زوجي والد نور وإسلام، سنرجع كلنا إلى بيوتنا، تعالي ساعديني

في عمل الأرجوحة

وقع الخطي

— ما اسم هذا المكان يا خالة؟

— دورين، نحن في قرية اسمها دورين

دورين ما تزال قرية صغيرة فقيرة كما وصفتها الجدة أم علي حلوم، تتجمع بيوتها في بطن الوادي، وزاد عليها شيع جديد، اجتاحت الحضارة سفوحها بأبنية حديثة، تناثرت على مدرجاتها الفوضوية، بيوت أعدت من أجل الاصطياف، ذات طابق واحد مسورة بأسوار منخفضة، تزيدها جمالا وتسمح بامتداد البصر بين الجبال والغابات المحيطة لتزيد في متعة المصطافين، تركت حليلة الخالة فيحاء تعالج الحبل وترمي به مرة إثر مرة فوق عتبة الباب العالية، حتى ثبتته وعقدته، وجلبت بساطا صغيرا من البيت، ثبتته على الحبل صانعة أرجوحة قوية متينة، حملت حليلة بين ذراعيها، أجلستها في الأرجوحة وراحت تدفع بها للأمام مرات ومرات.

— أين هي ساحة دورين حيث دارت الحرب بين المهاجرين وجيش علي بدور؟

— تعالي نغني يا حبيبي، ردت فيحاء متجاهلة السؤال، هيا

قال الصرصور للنملة

طعميني اربع حبات

بشكر فضلك للممات

قالت له روح يا كسلان

انا ما يحب الكسلان

— هل تحفظين أغنيات الجدة أم علي يا خالة؟؟ قاطعتها حليلة فشعرت بالخيبة أمام هذه الطفلة

المختلفة، لكنها رفضت الاعتراف بالفشل، تجاهلت السؤال وتحولت إلى اتجاه آخر.

— سنغني أغنيات العيد... هيا ساعديني

عمي حج أحمد... يو يا

عطيني حصانك.. يو يا

لشد واركب.. يو يا

ابتسام شاكوش

الحق اسكندر... يويوا

اسكندر ما مات... يويوا

خلف بنات... يويوا

كانت الصغيرة تنصت لكلام الأغنية ولا ترد، بل تلتهم الكلمات والمعاني التهاما...

— من هو اسكندر يا خالة؟ أهو ابراهيم هنانو؟

— ما رأيك أنت؟

— جدتي كانت تغني لي: طائرة طارت بالليل، فيها عسكر فيها خيل، فيها ابراهيم هنانو، راكب على

ظهر حصانو، وحاطط بنتو قدامو.... ابراهيم هنانو ما كان لديه أولا صبيان، وكذلك اسكندر

— ربما يكون هو

— أين ابراهيم هنانو الآن؟ أهو مع الجيش الحر في الجبل؟ جدتي حكّت لي بأنه رجل قوي حارب

الفرنسيين، أين هم الفرنسيون الذين يحاربهم أبي مع الجيش الحر يا خالة؟

فيحاء امرأة عادية، مثل العشرات غيرها، من بنات قريتها، كانت شابة جميلة، غيرها جمالها فعافت
الدرس والمدرسة، وراحت تستعرض مفاتها في مجالس النساء الكبيريات، تسارع الخطاب إلى بيت أبيها،
وسرعان ما تزوجت وأنجبت، وانشغلت بأموال البيت وتربية الصغار، ما نالت علما في المدارس ولا استمعت
لحديث الجدات كي تكسب خبرتهن في الحياة، أو لتعلم عن تاريخ بلادها شيئا، اكتفت بمرآتها، ومناوشات
البنات حول البئر وفي دروب القرية، كانت أسئلة الطفلة تسقط تباعا على ذاكرتها الخاوية كرجم الحجارة،
تسوطها بسياط الأسف والندم، تجعلها تعترف بجعلها أمام طفلة في عمر بناتها، وجدت علومها القاصرة تقف
عاجزة أمام حيرة هذه الطفلة، لا تعرف بم تجيبها ولا تعرف كيف تتخلص من إلحاح أسئلتها، اعتذرت
منها بوجود ذهابها إلى المطبخ لتحضر الإفطار قبل استيقاظ ابنتها، وانصرفت تقارع خزيها.

فيحاء لا تعلم أن ابراهيم هنانو كان واليا على حلب من قبل السلطنة العثمانية، وأنه حارب الفرنسيين
تحت راية السلطنة، وحين انهارت، وجرى تقسيم المنطقة الى دويلات، ترك سلاحه وتوقف عن الحرب،
لكن عمر البيطار وصديقه الشيخ عز الدين القسام لم يفعلوا مثله، بل استمرا في الجهاد حتى أتاها الأجل،
ليدفن عمر البيطار في مدافن انطاكية، ويدفن عز الدين القسام في تراب فلسطين، بعدما أسس مجموعة

وقع الخطى

جهادية تحارب في سبيل الله لاعلاء كلمته، كان عز الدين القسام يحارب في فلسطين، وعمر البيطار يمدده بالسلاح عن طريق تركيا .

لم تسأل فيحاء، ولا سألت أمها، عن عمر البيطار ورجال الصهاونة كيف قاتلوا الأعداء في هذه البقعة من الأرض، ولا عن عدد القتلى منهم ومن أعدائهم، لم تسرد لها أسماء عز الدين القسام ورجاله، الذي جاء من جبلة إلى الجنكيل خطب في مساجدها وحمس الناس على الجهاد ضد الفرنسيين، وانتقل إلى شيرقاق ليعمل جنبا الى جنب مع عمر البيطار، ومصطفى درويش وزاكي البيطار ومحمد عبدو ديب، لم تحدثها كيف نهبت وأحرقت بيوت صهيون، وهجر أهلها كما هجروا الآن، ثلاث مرات متتاليات خلال قرن واحد، على يد جيرانهم العلويين، مستعنيين مرة بدعم المانيا بعد انتصارها في الحرب العالمية الأولى، ومرة بدعم الفرنسيين، فيحاء لا تعرف شيئا من هذا، أتى لها بالمعرفة وقد نأت بنفسها عن علوم المدارس وعلوم المجالس؟ واكتفت من الحياة باستعراضات الأنتى الجميلة؟

تركت الصغيرة الأروجة وركضت الى أمها مستفسرة: أُمي ، أهنأ قال الزعيم الفرنسي لعلي بدور ، حين كان خائفا من جدي عزيز ورفاقه: لو أن لدي مئة من رجال الصهاونة لاستطعت بهم احتلال العالم؟ أين هم رجال الصهاونة؟ أجابتها الأم بهدوء: الصهاونة هم نحن يا ابنتي، منطقتنا كانت تسمى صهيون منذ مئات السنين، ورد ذكرها وذكر القرى المحيطة بها في حكايات أبي زيد الهلالي، ألم تحك لك جدتك حكاية الهلاليين وتغريبتهم حتى وصلوا تونس وبلاد المغرب؟

الطفلة صغيرة، ربما لا تستوعب الحكاية لو سردتها لها أمها الآن، ولا تدرك كيف نقل الفرنسيون مركز الحكومة من قلب قضاء صهيون الى الحفة، التي كانت بمجملها قرية مسيحية، تسكنها عائلات مسلمة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، أعطت الحكومة الفرنسية للمسيحيين ورجال الكنيسة صلاحيات واسعة تفوق صلاحيات العسكر، وأقطعتهم أراض وعقارات ما كانوا يحملون بامتلاكها، بعد ذلك بدأت بعض الأسر من القرى المحيطة تترك قراها لتلحق بمركز الحكومة، فتوسعت الحفة وكبرت على حساب القرى القريبة.

عادت حليلة الى باحة الدار تواصل اللعب والاستكشاف، بينما أرضعت أم حليلة صغيرها وبدلت ملبسه فاستسلم للنوم، واستسلمت هي لتداعيات أفكارها، كلام الأستاذ سعيد بعدما كان يجري همسا بينه وبين الأستاذ سليمان، تجاوز مكانه وصار يخصها هي، صار سعيد يوجه كلامه كله لها، وصار الأستاذ

ابتسام شاكوش

سليمان مجرد مستمع لحديثهما، سعيد يحاورها باعتبارها ممثلا عن قريتها، وهي، كانت تنصت لحديثه العقلاني وتتساءل: أهو رأيه وحده؟ أم أنه يمثل مجموعة تقف خلفه؟ هل يستطيع التأثير على مواقفهم؟ أم أن صوته صرخة في واد لا يرد الصدى؟؟

قال لها في بداية الثورة: عناصر الأمن هم الأكثر رعبا على ما أعتقد، وهم أكثر البشر براعة في نشر مختلف أنواع الإشاعات، التي تريد النيل من الحراك الثوري، وقد نشروا منذ بداية الثورة ثلاثة أشباح: الأول ممثل بسيارات من الطائفة الفلانية تحمل شعارات تهاجم وتتحدى الطائفة العلانية، فيما يعني حربا طائفية، والثاني: التقسيم وإقامة الدويلة الطائفية، والثالث: التدخل الأجنبي، وهذا سيكون احتلالا غاشما، وهذا الكلام ينطبق أكثر على منطقة الساحل، أو تدمير سوريا بالقصف، بحيث تتعطل (ممانعتها) هم يتاجرون بكل شيء وبأي شيء من أجل تبرير الاعتقال والقتل، لو زرت دمشق لرأيت باصات الشبيحة، وجدران حارات التشبيح، وقد كتبت عليها عبارات: الأسد أو نحرق البلد، سأنته وماذا بعد؟ كيف ستنتهي هذه الثورة؟ هل يقتلون كل الشعب؟ أجابها بأن الثورة ستنتهي كما يعتقد بانتصار الشعب، لكنه لا يرى أن الأمر سيكون سهلا، سيدفع السوريون الكثير من الدماء، وقال بأنه سمع في المسيرات المؤيدة للحكومة، هتافات بلنئة، يشتمون بها الحرية، ويمجدون حذاء الأسد، تصوري، في دول العالم يضحون من أجل تغيير حكومة، وهم هنا، يحرقون شعبا كاملا للاحتفاظ برئيسهم، لافتات وهتافات، كلها شبيحة للأبد لأجل عينوك يا أسد، كما أبلغها أن الضريبة لن تكون سهلة، وأن العسكرة المبكرة للثورة، وبعض أخطاء الثورة، ستزيد في حجم ضريبة الدم، ولكن في المحصلة، هذا مسار لا بد منه، لانجاز ما يعتبره ثورة سياسية توصل إلى دولة المواطنة والقانون.

كلام الأستاذ سعيد، منذ أن توجه بحديثه إليها مكرسا إياها نائبا عن أهل قريتها، أصبح هاجسا يشغل تفكيرها، فندرس على ضوءه ما كان وما هو واقع، آثار سنوات السجن التي تزيد عن العقد بسنوات ثلاث، ما تزال عالقة بكل جملة يقولها، تبادلت معه أرقام الهاتف وعناوين البريد الإلكتروني، وصار الحديث معه وجبة يومية لا تستغني عنها في هذا الزمن العسير، وخاصة بعد اجتياح قريتها من قبل العساكر والمدربات.

كتب لها في العاشر من أيار يحدثها عن الوضع في حي الميدان الدمشقي، حيث فرغت الشوارع من المارة، وصارت طقطقة حذاء في أول الشارع تثير التوتر والخوف، الكل ساكت مترقب، والجو يوحي

وقع الخطى

بأيام عسيرة قادمة، سألته : هل تتحدث عن الميدان؟ أم عن الحفة؟ اعتذر بأنه لم يشاهد نشرة الأخبار لهذا اليوم، ولا يعلم ما في الحفة، أجابته بأن هكذا أخبار لا تذاغ عبر وسائل الإعلام، بل ترى بالعين المجردة، حيث اصطفت ناقلات الجنود في الشوارع وحول مبنى الحكومة، وتوزع العساكر، بكامل لباسهم وسلاحهم الميداني، يطلقون العبارات الطائفية بشكل استفزازي، كأنهم قادمون لإصلاح التاريخ، يريدون استعدادا لمعركة ربما نهلك فيها مجاننا بلا ثمن.

حاول الرجل التخفيف من توترها، حاول طمأنتها، لكنه لا يملك من الأمر شيئا، قال بأنه لا يظن أن يحل المذهب، كائنا ما كان ذلك المذهب، محل الوطن، ولن تولد هذه الحركات الاستفزازية من قبل السلطة الا المزيد من العنف، أرجو الله ألا تقع أية معركة، لأن هذه الجرععات من العنف لن تنبي عنق الثورة، بل ستزيد من التطرف الديني من جهة ثانية، وقال لها : لن نصلح التاريخ، دعوا الأموات في قبورهم وتعالوا لنعيش معا عصرنا تحت سقف هذا الوطن، لسنا بحاجة لإصلاح التاريخ، نحتاج إصلاح أنفسنا، نحن لم ندخل عصر العقل بعد.

تركت فيحاء الطفلة في أرجوحاتها، تتهادى بين الظل والشمس، وحيدة حزينة تائهة، ودخلت المطبخ،
لتهرب من حقيقة جهلها، المطبخ مكان تألفه وتتقن العمل فيه، فجأة هدرت طائرة مروحية في الفضاء،
وعلا أزيز رشاشها، عادت فيحاء إلى الأرجوحة راكضة، حملت حليلة بين ذراعيها وجرت مسرعة تحتمي
بسقف الشرفة

— لمن هذه الطائرة يا خالة؟ ولماذا تطلق النار على القرية؟

— لا أعرف... كفي عن الأسئلة، ألا تعرفين الصمت؟ هيا ادخلي إلى البيت قبل أن تقتلك رصاصة
طائشة

— وهل يقتلون الأطفال؟

— قلت لك اصمتي

صرخت في وجهها تداري عجزها عن الاجابة، فانخرطت البنية مرة أخرى في بكاء مر، جاءت أمها،
ضمتها إلى صدرها بحنان وراحت تمسح شعرها مهدئة من روعها.

— لا تخافي يا حبيبتى، ليس هناك ما يخيف

— لست خائفة، الخالة فيحاء تكرهني، أريد العودة إلى بيتنا، هذا ليس بيتنا

— بل هو بيتنا يا صغيرتي

— لا تكذبوا علي، هذا ليس بيتنا، نحن الآن في قرية دورين، الجدة أم علي أخبرتني أنهم تنقلوا في

رحلة المهاجرة من بيت إلى بيت، كلها بيوت غريبة، لم يمكنوا في بيت واحد، أريد بيتنا

— لا يا ابنتي، تلك حكايات، من المعيب أن تقولي لأمك أنتم تكذبون

وقع الخطي

— لا... ليست حكايات، جدتي حلوم لا تكذب، عاشت رحلة المهاجرة وكان عمرها ثمان سنوات، مثلي الآن، هل نحن في رحلة المهاجرة؟

خمس سنوات من طفولة الجدة أم علي حلوم أمضتها نازحة متنقلة مع أسرتها وأهل قريتها من قرية إلى قرية، ينتظرون بصبر قدوم أحد المقاتلين من الأقارب، ليتفقد أحوالهم ويمدهم بالزاد، وليحدثهم عن تفاصيل معارك خاضوها، عن غنائم غنموها وعن خسائر لا يمكن تعويضها، عن أرواح زهقت ودماء سفحت، ويأتونهم بالتين المجفف والتمر، وربما الحلوة، هدايا تفرح الأطفال وتجعل العودة أحد من الرجال وقع العيد على النفوس.

الطائرات تحوم في سماء القرية، تدور في الفضاء كذبابات ضجرة في حر الظهيرة، تفرع برشاشاتها وترمي صواريخها فيترج الجبل وتتجاوب الوديان الصدى، استيقظت ابنتا فيحاء فزعنتين باكيتين، شاهدتا الدموع في عيني أمهما فالتصقتا بها تشدان الأمان، وبقيت وجبة الفطور التي جهزتها فيحاء في مكانها لم تلمسها يد، وصحا حمزة، أخو حليمة، والذي سمي باسم أول الشهداء من الأطفال في تلك الثورة، استفاق باكيا غاضبا، راحت أمه تهدهه بين ذراعيها، فينظر إلى وجهها الغارق في الرعب فيزيد من حدة بكائه ولا يهدأ.

تنهت أم حمزة، فالتفتت إلى البنات: ما الذي يبكيكن يا بنات؟ ليس هنالك ما يخيف، أنا جائعة أريد أن أكل، هيا إلى الطعام، هذا الرصاص مثل المطر، يبلل ثياب من يمشي تحته، نحن هنا تحت هذا السقف، لن يصيبنا الرصاص ولا المطر، إلا إذا وقفنا في الشارع، سنأكل، وسنضحك من الطائرة الغبية، ومن الأغبياء الذين يرسلونها، هيا يا حليمة، أعيدي علي ما تحفظين من أغنيات عن الجيش الحر.

— لا أريد الغناء، أنا خائفة من هذه الأصوات

— لا تخافي يا حبيبتي، ألا ترين الجيش الحر حولنا يحمينا ويحرسنا؟ وهم.....

انفجرت قذيفة في باحة الدار، أتت على جزء من جدار السور، صمتت أم حليمة كاتمة في صدرها صرخة رعب، وضمت ولبيها إلى صدرها، نظرت إلى السماء خاشعة متضرعة، بينما أطلقت فيحاء وابنتاها صراخا مدعورا ولذن بأم حليمة خائفات.

مرت لحظات صمت، كان الرعب سيد الموقف، يبسط جناحيه على المكان، والعيون تدور في محاجرهما، مطلقة آلاف الأسئلة، بينما تيبست الألسن في الأفواه، محمية بأقوال الشفاه، عاجزة عن نطق

ابتسام شاكوش

كلمة واحدة، ابتعدت الطائرة وسكت هديرها، مرة أخرى دنت أم حليلة من المائدة، مشجعة البنات على تناول الطعام، بحثت في ذاكرتها عن أغنية تتناول الطائرة بالسخرية، عن طرفه، حكاية، لكنها عجزت، صرت قطعة جبن بلقمة خبز، ناولتها لفيحاء غامزة، أن كلي ليأكل الصغار، تناولت فيحاء اللقمة والرعب يرجف يديها، ثم ناولت لقمة للبننت الكبرى

— لتأكل كل واحدة منكن بيدها، لو بقيت أطعمكن بيدي هكذا سينفد الزاد قبل أن أكل حصتي، هيا.. أسمعني بسم الله.

— نسيت إحضار الماء للشرب - قالت فيحاء - سأذهب لإحضاره

دخلت فيحاء المطبخ ومنه خرجت خلصة لترى آثار القنيفة، وجدت رجالا ونساء متجمهرين، يستكشفون مثلها، بصمت، انضمت اليهم ونسيت ماء الشرب كما نسيت الفطور، ذهلت عن نفسها وبناتها، راحت تجول بعينها بين الحضور، باحثة عن زوجها أو أحد إخوتها، ساورتها الظنون، هل أصيبوا؟ كلهم؟

— يا أم أحمد هل أصيب أحد في هذه الغارة؟

— تهدمت بعض الجدران والبيوت، لكن الرجال بخير، الحمد لله

تذكرت أم حليلة أشياء كانت قد نسيتها في حقيبة يدها منذ مدة طويلة، كرة من خيوط الصوف وسنارة، أخرجتها ونادت البنات، تعالي يا حليلة، تعالي يا اسلام، تعالي يا نور، سأعلمكن نسج الصوف بالسنارة، ظلت البنات واجمات يلجمهن الخوف، أكملت: غدا تكبرن وتصرن عرائس، سيقول خطابكن بأن أمهاتكن فاشلات، لم يعلمكن شيئا مفيدا، ألا تريدن أن تصيري عروسا يا اسلام؟ أنت الأكبر هنا، سيكون عرسك هو الأول، سوف تنسج كل منكن جهازها بيدها، ليفرح بها العريس، هيا...

دنت الصغيرات منها، وقد أوردت على وجوههن بسمه صغيرة، راحت كل واحدة منهن تتخيل نفسها عروسا في الزفة، والنساء تزغرد من حولها.

— البداية هكذا، تمسكين السنارة بيدك اليمنى، وتلفين الخيط على سباتك اليسرى، ولفة أخرى على الخنصر، ليسهل انسياب الخيط، في البداية تصنعين سلسلة.. ثم..

— أمي.. وأنا أيضا سأصير عروسا؟

— نعم يا حبيبتي، ستكونين أجمل عروس في الدنيا، قولي إن شاء الله

— يعني انا لن أموت كما ماتت فاطمة أخت أحمد؟

وقع الخطي

— الشر بعيد عنك يا ابنتي، ستكبرين وتزوجين وتصبحين جدة مثل جدتك أم علي حلوم، تحدثين حفيداتك عن هذه الرحلة كما حدثتك، قولي رحمة الله عليها

— رحمة الله عليها

انقضى النهار في محاولات مستميتة من أم حليلة، لإشغال البنات بما يذهب عنهن الرعب، ويزرع الأمل في نفوسهن الهلعة، لكن حليلة سرعان ما شعرت بالملل، غادرت المجلس بحجة دخول الحمام، وانسربت من هناك متخفية تقصد الحديقة، وقفت مصعوقة أمام منظر عتبة الدار، وقد هدمت وسقطت معها الأرجوحة، عادت إلى أمها باكية تشكو فيجبتها

— ما حاجتك للأرجوحة يا ابنتي؟

— أريد أن ألعب

— تعالي لتتعلمي نسج الصوف، انظري، لقد صنعت زهرة، أليست جميلة؟

— لا أحب نسج الصوف، أريد أن أرسم

— حسنا، ابحتي في المنزل، لو وجدت أوراقا وأقلاما ارسمي

جلست فيحاء مع ابنتيها تعلمهن نسج الصوف، وعادت أم حليلة لتداعياتها، ولعبارات تبادلتها مع الأستاذ سعيد نقشت في ذاكرتها حفرا على صخر، الرجل مثقف، وقع عليه من الظلم ما وقع على أبناء قريتها، لم يحمه منهم انماؤه لطائفهم، فالظلم لا دين له ولا طائفة، في آخر محادثة بينها وبين الأستاذ سعيد أخبرته أن حربا حقيقة تدور الآن في الحفة، السلطة تحارب الشعب بطائراتها ورشاشاتها وكل ما لديها من أنواع الأسلحة، الحفة تقصف من مراصد زرعت في كل القرى العلوية، يا للخزي، يا للعار، لقد أشعلوها طائفية، وسألته بقهر: هل سيتم تحرير الجولان اليوم؟ أم سيصلحون التاريخ؟ هل أعتبرك عدوا؟ لم لا ترفعون صوتكم عاليا بالمعارضة؟ لماذا لا تمسكون بأيديهم وتمنعونهم عن الإجماع، سألها وهو عالم بالإجابة، إذا كنت تقصدين العلويين فأنا لا يشرفني ولا يسيء إلى الانتماء إليهم، هذا شيء خارج عن إرادتنا، نعم أقصد المعارضين العلويين، لماذا يسلمون طائفتهم للإبادة على يد هذه السلطة الغاشمة؟ هم أقليمية، والكثرة تغلب الشجاعة، الحرب الطائفية تعني إبادة، ألا تعلمون؟

لم يجيبها في ذلك اليوم، ربما انقطعت عنده الكهرباء، أو انقطع النت، وربما احتار في الرد، لكنها وجدت رسالته في اليوم التالي، يجيبها وكأن الحديث لم ينقطع: أعتقد أن السبب هو ما زرعه النظام في

ابتسام شاكوش

قلوبهم من الخوف والرعب، والأوهام، بالإضافة إلى (الجحشنة) التاريخية التي ارتبطت بمواقفه السياسية، اعتقد ان سوريا بصدد بناء دولة المواطنة والقانون، كم أتمنى أن يفهم المتشددون من أبناء الأقليات أن من سيحميهم هو القانون، وليس النظام الآليل للسقوط، هذا النظام لا يكثرث لشيء، حتى لو يفنى كامل الشعب، هو يسعى دائما إلى شردمنا، ليجعل كل أربعة أشخاص مجموعة، هذا دأبه منذ استلامه السلطة، تاريخه يؤكد ذلك، ونحن نسعى بكل إمكانياتنا، لفعل ما يرضي ضمائرنا وإنسانيتنا، ومحبة بأهلنا وأرضنا وبلادنا، المهم...أرجو أن تنجلي هذه الهجمة على الحفة بأقل مقدار من الخسائر، من أين يأتي الأستاذ سعيد بكل هذا الكلام؟؟

الفصل الثالث

— اركضي يا حليلة، بسرعة، أسرعى أكثر يا ابنتي الطابور سبقنا وصرنا في نهايته، لو تأخرنا عنهم لضاع منا الدرب، وربما صادفتنا وحوش الغاية فمزقت أجسادنا، أسرعى يا ابنتي أرجوك

تحاول الصغيرة الركض فتخذلها ساقاها المنهكتان، تجثو على التراب باكية، أما أن لحكاية الجدة أم علي أن تنتهي؟ تتلفت للخلف، الظلام يلف كل شيء حولها، ويوقف حدود بصرها عند ذيل ثوب أمها، تسأل نفسها ان كانت نائمة؟ تصيح السمع في محاولة لالتقاط جلبة تأتي من الغرفة المجاورة، حيث يسهر والدها مع رجال من أصدقائه، يلعبون الورق، ويتحدثون بأصوات مرتفعة، في مواضيع لا يدركها وعيها الطفولي، لكنها لا تسمع سوى صوت الريح، يئن بين أشجار الغابة، ويترجع صدها في الوادي كعواء وحش جريح.

— أسرعى يا ابنتي... بعد قليل نصل إلى حيث نرتاح... هيا يا حبيبتى

عند هذا الجزء من الحكاية كان الكرى يتسلل إلى عيني حليلة، ويخطفها إلى حدائقه المبهجة، لكنه يعاند جفنيها في هذا المساء، يسحبها من كابوس إلى آخر، تمد يدها، تهersh ساقها المزروعتين بالأشواك، لا وقت الآن لانتزاع الأشواك يا حليلة، الموكب سبقنا، لا تتركينا للضياع في هذا الليل البهيم، هيا يا ابنتى.

الجدة التي توحى تجاعيد وجهها بأنها تجاوزت عامها المائة بقليل، تروي حكاية هجرتها من هذه القرية سيرا على الأقدام مع موكب النازحين إلى جبل الزاوية كل يوم، تكررهما في كل مجالسها ولا تمل من تكرارها، ولا يمل مستمعوها، صارت الصغيرة تتخيل الدرب الذي مشت عليه الجدة في طفولتها كأنها تراه، بل ترى أثر قدميها الحافيتين على الطين اللزج، في ذلك الشتاء الماطر، وتحس بأنفاسها في الهواء القارس، تتابع بشغف ما ترويه الجدة التي منحنتها اسمها، مركزة النظر إلى فمها الأدرد، وشفتيها

ابتسام شاكوش

المزومتين مثل كيس نقودها المخبأ بين ثنايا ثوبها الداخلي، هذا الفم الخالي من الأسنان يمتعها بطيب الحكايات، وكذلك كيس النقود، يمتعها ببعض القطع الرنانة، تركض بها إلى دكان الحاج بديع، تشتري ما تشتهي من الحلوى والمثلجات، وتعود لتتصت إلى بقية الحكاية، مضيضة طعم هذه الطيبات إلى حديث الجدة، فتكتمل متعتها.

الجددة أم علي حلوم ماتت منذ سنة، اجتمع على جنازتها رجال كثير ونساء، كانت النساء تبكيها بصمت، وكان صوت آلة التسجيل يملأ المكان رهبة وهو يرتل آيات من القرآن الكريم، أخبرت أم حمزة ابنتها أن الأموات يدفنون تحت التراب، وأنهم لا يرجعون إلى أهلهم أبدا، بل يرونهم في الأحلام، وفي الجنة إذا كانت أعمالهم صالحة، لا يكذبون ولا يسرقون، صدقت الصغيرة كلام أمها، ولم تشاهد الجدة أم علي بعد ذلك اليوم أبدا، لكنها بدأت ترتاب في الأمر هذه الليلة، لماذا خرجت الجدة أم علي من تحت ترابها وجاءت لتقص حكايتها بأسلوب مرعب، مانعة النوم عن عينيها؟ لكن ما تشاهده بعينيها ليس حلما في منام، أين هي الجدة أم علي؟ أين حضنها الدافئ و فراشها الناعم التنظيف؟

الطريق يمتد نحو الشرق، ثم ينحرف شمالا، ليدخل في الغابة، ويمشي الموكب في درب ضيق وعر شائك، أشجار حراجية تصطف بشكل عشوائي على جانبيه، تمد أعصانها لتصفع بها وجوه العابرين، تتمسك بثيابهم، تمزقها، تغرس أشواكها في جلودهم صارخة: كونوا مثلنا، تشبثوا بأوطانكم، من يغادر موطنه يصيبه اليباس، لكنهم لا يأبهون لتحذيراتها، يسرون حاملين القليل من الأشياء والكثير من الأمل، أجدادنا قبلنا عبروا هذا الدرب وعادوا أكثر قوة وتلاحما ونضجا، أكثر تشبثا بالوطن وإصرارا على إعادة بنائه.

(بعد اجتياز الغابة وصلنا إلى جبل الأكراد، أول القرى دورين، مكثنا فيها مدة ثم انتقلنا إلى سلمى، كان أخي عزيز ورجاله من الشتا) الكلمة تركية تعني العصابة) يحرسون الموكب، راكبين خيولهم، حاملين بنادقهم، متمنطقين بصفوف الرصاص، في مشهد يعز النفوس ويرفع الهمم، كان الفلاحون يقفون بدھشة على حدود قراهم، يأترون بأمر الملاكين فلا يقتربون من موكبنا) كانت الصغيرة تستحضر كلام الجدة في ذاكرتها، بعد مغادرة الموكب قرية دورين، وتتلقت حولها بحثا عن الخيل والشتا، فتشاهد ظلالات لرجال يحملون البنادق، يسرون على جانبي الموكب، ومن أمامه وخلفه، لكنها لا ترى بينهم الجد عزيز، بل ترى علي فخر الدين وأبا عبيدة، وأبا مالك وأبا بديع، رجال تعرفهم وآخرين تنكرهم، وترى الدرجات النارية تمشي بسرعة قصوى، تحوم حول الموكب، تحرسه حتى دخل دروبا غير مطروقة في عمق الغابة

وقع الخطي

فتراجعت لاصطحاب مهاجرين آخرين، لم تحدثها الجدة عنها، بل حدثتها عن حمير وبغال تحمل الأمتعة، وعن أبقار وأغنام وماعز، تلحق قطعانها بالموكب، تتلفت البنية حولها مرة تلو مرة فلا تجد لها أثرا في هذا الموكب المتهالك، تشد الأم بيسراها يد ابنتها، منبهة إياها مرارا على ضرورة الإسراع، بينما تسند بيمنها الصبي الصغير على صدرها، وصرّة ثياب ضمنتها ما استطاعت حملة في درب هجرتها الطويل، كانت الأم تبكي، عجبا لماذا تبكي كالصغار وهي القوية الكبيرة؟ هل تبكيها حكاية الجدة؟ فلتنصرف إلى أعمالها من كنس وطبخ وغسل، ولتترك الحليمتين، الجدة والحفيدة، لاستكمال بقية الحكاية.

تسرع الطفلة في سيرها لتلحق بأبها، باحثة حولها عما يؤكد لها انها في حلم، وأن حكاية الجدة لا بد أن تنتهي بغفوة لذيذة، تحملها بعدها ذراعا أمها لتنقلها إلى فراشها الدافئ، لكن الدرب وعرو وما من شيء تبصره عيناها سوى بعض الأضواء الخافتة، تصدرها ولاعات الغاز، أو شاشات الهواتف المحمولة، في ايدي من سبقوها وسبقوا أمها في موكب النزوح، تكف عن البكاء حين يطلب الكبار من الصغار أن يغنوا أغنيات الثورة، تبدأ الكلمات متلعثمة على شفاة الأطفال المنهكين، يدعمها الشباب المرافقين للموكب فيعلو الصوت، ترفع حليلة صوتها الصافي القوي بالغناء، كل هذه الأغنيات حفظتها من جلوسها المديد أمام التلفزيون، ما كان في حكايات الجدة تلفزيون ولا ولاعات غاز، الأمر ليس حلما في منام، بل هو حقيقة صارخة واضحة، تستوقف أمها لتسألها: إلى أين نمضي؟ ترد الأم ببكاء مكتوم، يتوقف أحد الشباب، يحمل حليلة على كتفه، ويطلب منها مواصلة الغناء.

ترتاح حليلة على كتف الشاب لحظات، تواصل الغناء ويردد خلفها الأطفال: (سوريا بدها حرية)، يخفت صوت الأطفال بالتدرج، يمنعهم التعب والخوف عن مواصلة الغناء، فيستسلمون للصمت، تبكي حليلة متألمة من صفعات أغصان الأشجار المتتالية على وجهها وصدرها، وتلوب على كتف الشاب تريد العودة إلى أمها، لتسألها أين أبي؟ لم لا يرافقتنا؟ ولتسألها أين الجد عزيز ورفاقه الشتا (العصابات المحاربة)؟ تجيبها الأم بأن أبها في الجبل مع رفاقه المقاتلين، يدافعون عنا وعن قريتنا وبيوتنا، تعود فتسألها: أين الجد عزيز شقيق الجدة أم علي؟ وأين حصانه؟ بل أين الشتا؟ هل جاء علي بدور من جديد؟

حليلة تعرف من جدتها هذه الأسماء، لكنها لا تعرف أن علي بدور كان زعيم الجبل في ذلك الحين، وأنه أبرم اتفاقا مع الصهاينة لحرب الفرنسيين، ثم ملأ الفرنسيون صدره بالأحلام المستحيلة، ونبشوا ما تراكم من أحقاد طائفية قديمة، فنكص على عقبه، واصطف مع الفرنسيين يحارب الصهاينة، يحاصرهم بالتجويع،

ابتسام شاكوش

يمنع عنهم الزاد، حتى اضطروا لأكل الحشائش والخرنوب وثمار السنديان والبلوط مما تجود به الغابات من حولهم، ويغير على قراهم بجنوده وجنود الفرنسيين، فينهب ويقتل ويحرق.

**** ** *

اختلطت الأمور في ذهن الطفلة المرافقة دائما لجدها... هي ليست جدتها بل جدة أبيها، تمكث معها في بيتها أثناء غياب أمها في عملها الوظيفي ضمن سرايا الحكومة، تنصت لحكاياتها وتحفظ أغنياتها، الحكاية هذا المساء تشبه حكايات الجدة، حرب قائمة تأكل كل ما في طريقها، وشعب يطالب بإنسانيته، انتفض بعد عقود من الذل والهوان، فوقفت في وجهه قوة غاشمة، تهدم كل شيء، في سبيل استعباد البلاد والعباد.

— أمي ما عدت قادرة على حمل الحقيقة على ظهري

— امسكها بيدك

سارت البنية بضع خطوات تجر الحقيقة على الدرب الترايبي ذي الحجارة الناتئة، فلا تكاد الحقيقة تتزحزح من مكانها قيد أنملة

— أمي... الحقيقة لا تريد السير معي

— اتركها واتبعيني

— وثيابنا؟

— دعها والحقي بي

عشرات الحقائق والأكياس الصغيرة والكبيرة، وصرر الثياب، تركت على جانبي ذلك الدرب بعدما عجز أصحابها عن حملها بقية المسافة الطويلة فعاפוها وما فيها، تلك الحقائق والصرر تنطوي على ملابس وأشياء وذكريات، آثروا النجاة بأطفالهم، متابعين رحلة الشقاء، بل رحلة الأمل، مستحضرين في أذهانهم ما سمعوه من الأجداد، عن حكاية مشابهة بكل تفاصيلها، بأسبابها ونتائجها، باتجاهها ووعورتها، بسحابة الأمل التي تظلل الموكب وترافقه في حله وترحاله، تقاسم جانباً الدرب الآن هذه الأشياء، كما تقاسم من قبل أحداث من هلكوا، ودفنوا في المواقع ذاتها.

وقع الخطي

رائحة الطيون تزكم الأنوف بعبقها وعطرها، تتذكر أم حليلة قول شاعر، كان رفيقا للاستاذ سعيد في معتقله: سنعود لنملأ صدورنا برائحة الطيون والزعر البري، لا بد أن نعود أكثر محبة وتألفا مما كنا، أجايبه بأن الطيون والسنديان كله احترق، لن يشم حين يعود سوى رائحة البارود، قال بأن جذور الطيون لا تموت، ستنبت شجيرات أكثر خضرة ورواء من سابقتها، ويعود الوطن محررا من الطغيان و سيكون أجمل وأدفاً مما تركناه، أتره كان مؤمنا بما قال؟ أم أنها مجرد أمنيات؟

الليل يتطاول ويشتد ظلامه، الموكب يسير ببطء على دروب لا يكاد يتسع أحدها لعابر واحد، تتشابك الأشجار الحرجية خلالها حاجبة الرؤية، ناترة الأشواك، تعب الأطفال كما تعب العجائز، ولكن ما من سبيل لشيء سوى الاستمرار في المسير، حتى الوصول إلى بلدة ييلاداغي التركية، هنالك استأجر خليل درويش قبل استشهاده، منزلا ليؤوي فيه أخواته اللاتي لم تجف دموعهن على فراقه بعد، اشتد الظمأ بالأطفال فراحا ويكون، ما من قطرة ماء في الدرب، ولا في جعبة أي من السائرين، راح الكبار يلاطفونهم بطيب الكلام، يعنونهم بالماء والزاد والراحة، والأطفال يزدادون بكاء، لا يريدون سوى الماء، وقد عز الماء في هذه الغابة المرعبة.

أشار الشبان المتقدمان للموكب بالاستراحة، سارع العجائز بالجلوس على التراب، ولم يكفهم الجلوس فتمددوا ليرحوا ظهورا ناءت بتقل الأجساد الواهية وبوعورة الطريق، وتوقف الشبان، يتبادلان حديثا تافها، ويقهقهان بصوت مرتفع، قهقهات ليس للضحك فيها مكان، ولا في حديثهما ما يضحك، راحت العجائز تزفر غيظا مكتوما، أهذا وقت السخافات؟ ولم الاستراحة الآن؟ والموكب لم يمش سوى مسافة قصيرة بعد الاستراحة الفاتنة؟ طالت الاستراحة، وطالت معها قهقهات الشابين، وفيجأة، بلا مقدمات، أشارا للموكب بالانطلاق، مبشرين بنبع ماء لا يبعد سوى خطوات عن موقعهم، بعض الأمهات غمغمت بصوت مكتوم، عاتبة على الشابين عبثهما وتجاهلهما لبكاء الأطفال المرهقين.

خطوات قليلة مشاها الموكب في الظلام، وتوقف الشبان لينيرا الدرب الوعرة الزلقة، بمصابيح ولاعات الغاز، التمع الماء على الأرض عاكسا الضوء الشحيح، فصرخ الأطفال من الفرح، هاتفين للاكتشاف العظيم، ساقية ضعيفة يجري ماؤها العكر ببطء بين الحجارة والطين، لم ينتظروا أمرا من أحد، بل انبطحوا يغبون الماء عن الأرض غبا، ما كان هنالك إناء يشربون به، وما بقي لديهم صبر للبحث عن شيء، بكت العجائز وراحت تجأر إلى الله طالبة الفرح، داعية على المتسبب بهذا الشقاء بكل ما تعرفه من أدعية، أم محمد

ابتسام شاكوش

غاضبا وجود الماء على بعد هذه الخطوات القليلة من الاستراحة، وجدت في نفسها على الشابين، أما كان الأجدر بهما أن يطلبوا الاستراحة بعد هذه الساقية؟؟ أضمرت في نفسها الكثير من اللوم لهما، وقررت أن تسمعهما ما لا يطيب لهما من الكلام في أول فرصة، تساءلت عن سر هذا الضحك المستهتر، أمام بكاء الأطفال، لكنها تابعت السير صامتة، وعقلها يجمع وي طرح، ينتقي الكلام الذي يستحقه عبثهما في هذه الرحلة الشاقّة، قال أحد الشابين، قاطعا عليها تدايعياتها، بعد خطوات ستجدون ساقية أغزر ماء وأصفى، هيا، اتبعوني، زادها كلامه غيظا مكتوما، فراحت أطرافها ترتعد متوترة من الغضب.

مشى الموكب بصمت تقطعه شهقات البواكي، بعدما ودع أخوات خليل اللاتي انفصلن عن الموكب ليمشين في طريق آخر، متجهات الى منزل استأجره لهن اخوتهن، ليتابعن رحلة الجهاد من هناك، وظل الأطفال يتلفتون إلى الساقية، لم يرتو ظمأهم بعد، ام محمد زلت بها قدمها فسقطت في حفرة جافة شكلتها سيول الشتاء على جانب الطريق، صرخت مستنجدة فركض الشبان، نزل أحدهما وراءها إلى مجرى السيل، ساعدها على النهوض، وأمسك الآخر بيديها، ساحبا إياها إلى الأعلى، اجتمعت النساء حولها يتفقدن ساقياها وذراعيها، يتأكدن من سلامة عظامها، ثم تابع الجميع السير.

بعد خطوات قليلة توقف الشبان في المقدمة، وأخبرا من ورائهما عن ساقية عريضة، محذرين من السقوط في مائها، انبطح الأطفال مرة أخرى يشربون الماء بحرقة الظمأ، وأنار أحد الشابين ضوءه ولاعته الصغيرة، باحثا عن شيء ما، بعد قليل دخل الأجمة الشائكة، وعاد بعبوتين بلاستيكيتين فارغتين، ملأهما بالماء وأمر الموكب بمتابعة السير، سار الموكب وقد اطمأن لوجود الماء، وتحرك الجوع في الأحشاء، فراح الصغار يطلبون الطعام، والكبار يصبرونهم، واعدلين بقرب الوصول إلى حيث الزاد والراحة.

أم محمد العجوز المقهورة، نسيت آلامها وسارعت خطواتها لتلحق بالشابين المتقدمين الموكب، أمسكت بذراع أحدهما وسألته همسا عن سر تلك الوقفة وتلك القهقهات التي لم تكن في توقيت مناسب، أجابها همسا بأنه سيخبرها، ولكن بعد وصول الموكب الى مأمن.

وقع الخطي

وصل الموكب إلى مخفر الشرطة التركية الحدودي مع بزوغ الفجر، أدخلهم رجال الدرك إلى مكان واسع مسور بالأسلاك الشائكة، وتخلفت أم محمد، راحت تبحث بعيني فضولها ولهفتها عن الشاب الذي وعددها بالإفصاح عن السر، وحين لمحته سارعت إليه، تسأله وتلحف بالسؤال، أجابها بكل بساطة، أنه وأصدقاؤه يرافقون مواكب النازحين كل يوم حتى حفظوا ذلك الدرب كما يحفظون أكف أيديهم، وأنهم كانوا يعلمون بمكان ذلك الجدول، لكن قطيعا من الخنازير البرية كان يعبر ذلك المكان، خشى ورفاقه أن تراه النساء فتصرخ خوفا، الصراخ سيستثير تلك الحيوانات ولا ندري بردة فعلها، وربما استجلب ذلك الصراخ انتباه الجيش السوري فتكون الكارثة، أو انتباه الدرك التركي فتكون الكارثة أكبر حين يلتقي الجيشان ويضيق الموكب بين رصاصهما... لذلك اخترنا أهون الشرين، بكاء الأطفال مدة إضافية لن يضر أحدا بشيء، حين ابتعد قطيع الخنازير البرية أمرناكم بمتابعة السير، أما رأيت ماء الجدول عكرا؟؟ كان هذا نتيجة مرور تلك الحيوانات.

لحقت أم محمد بمن سبقوها، حاملة تلك القصة في ذهول ملامحها، وإكبارها لعقل الشابين، سجلت اسمها عند الشرطة كما فعلت النساء قبلها، ولحقت بجمعهن، لتندمج مع عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال ممن سبقوا ذلك الموكب الى هذا المكان، رجال الشرطة الأتراك قدموا لهم بعض الطعام الخفيف من بسكويت وفطائر، قدموا لهم الشاي، وتركوهم هكذا في العراء، لحين اكتمال عدد يكفي ليملاً حافلات يسوقونها إلى المخيمات، لم ينتظر الأطفال وصول الطعام، بل تهاووا متهاككين على الأرض ليستسلموا للنوم، نام الأطفال وبقي الكبار ساهرين يفكرون بصمت، أو ربما لا يفكرون بشيء، تجمدت العقول والقلوب، انتظارا لما هو آت، وتمحيضا بما مضى، انقضت معركة الحفة بعد كرفر دام عشرة أيام، وانجلت لصالح القوة العسكرية الهائلة، التي لا يملك مثلها المقاومون، لم يبق سوى استباحة المكان بكل ما فيه، فكانت هذه الهجرة، لم يكن ذلك المكان هادئا، بل يصح بحركة وأصوات أسر تصل تباعا من محافظات حدودية أخرى، حتى اجتمع العدد الكافي.

الفصل الرابع

كان صباحا مفضليا في حياة أسرة حليلة، حين انشغلت الأم بإعداد مائدة الفطور، وحملت حليلة دميتها، تهددها، وتغني لها:

بابا جاب لي صندوقة

ما بتعرفو شو فيها

فيها أشكال وألوان

من عجائب الزمان

فيها طابة بتعلى هيك.....

صرخ الأب مؤنبا غاضبا: اخرسي، بابا لم يجلب لك شيئا، هو عاطل عن العمل ينتظر طعامه من مال زوجته، صمتت الطفلة لحظات ثم انخرطت في بكاء مر، لحقت بأمها الى المطبخ تسألها: هل فعلت ما يغضب أبي؟ ضمتها الأم الى صدرها، مهدئة من روعها، تخبرها أن أبها يعاني صداعا في رأسه، وربما أزعجه صوتها المرتفع وهي تغني فزاد من ألمه، تركت ابنتها بعدما كفت عن البكاء، وحملت بعض الأطباق لتضعها على المائدة، فلم تجد زوجها حيث تركته، لحقت به الى غرفة نومهما فوجدته عاري الجذع يبحث في خزانة الملابس، وقفت مشدوهة تتأمل آثار السياط على ظهره وكتفیه، وبقعا أخرى زرقاء وبنفسجية لا تعرف سببها، اتبته لدخولها فسارع لستر جسده بملاءة السرير، وصرخ في وجهها طالبا منها مغادرة الغرفة، أطاعت أمره وانسحبت بصمت، جلست على المقعد الذي يلي الباب تترقب، ممسكة دموعا كادت تفر من عينيها، لكنها حبستها خوفا على إحساس ابنتها، بعد قليل خرج من الغرفة مرتديا بنظالا وقيمصا قديمين، كان قد عافهما من قبل، اتجه مسرعا الى باب البيت، غادر بصمت، صافقا خلفه الباب بعنف، تاركا زوجة تحمل على عاتقها صبرا تنوء به الجبال، وطفلة حيرى، لا تعرف لما يجري أمامها تأويلا فتلجأ للبكاء.

أكملت الزوجة عملها، ارتدت ثيابها وصحبت ابنتها الى مدرستها، ثم اتجهت الى عملها، يقصم القهر ظهرها، لقد فهمت مقدار المذلة التي يشعر بها رجل كريم، بعد خروجه من المعتقل، كاتما خبر التعذيب الذي أخضع له جسده هناك عن أقرب الناس، محرماً على زوجته رؤية جسده، وعرفت مقدار قهره اذ يعيش عاطلاً عن العمل بعد تجريدته من نجوم كتفيه، وطرده من عمله ليقطات على مرتب زوجته، كم حاولت مواساته، كم حاولت إقناعه بأن البيت ومن فيه ما زال ينفق من ماله، وكانت تعلم أنه يعرف تمام المعرفة، أنها باعت حليها وأضافت الى ثمنها ما ادخرته من مال، كما باعت معظم أثاث البيت لتوفر المبلغ الذي طلبه فرع المخابرات العسكرية ثمناً للإفراج عنه، لذلك ما كان يهدأ لكلامها، بل يزداد انفعاله حدة حتى يصل الى مشارف البكاء: أنا لا يبكييني فقدان عملي، ولا تجريدي من رتبتي العسكرية، ولكن كيف نعطى الدنيا في ديننا ومعتقداتنا وكرامتنا ونصير؟ هل يعتبر هذا عند الله صبراً؟ لماذا صبر الجيل الذي سبقنا؟ لماذا تركوا لهؤلاء الأوغاد مجالاً للوصول الى حكمنا؟ لن يسامحنا الله، ولن يغفر لنا إسراننا في أمرنا وهواننا على أنفسنا، لن يغفر لنا خنوعنا.

في ساعة متأخرة من ليل ذلك اليوم عاد يحيى، وقد أوقف سيارة شحن أمام باب الدار، أيقظها من نومها وأمرها بجمع حاجاتها من ذلك المنزل، لقد قرر الانتقال بسكنه الى دار جده في القرية، كان قراره حازماً لا يقبل نقاشاً، جمعت ما في البيت من ملابس وأواني، عبأتها في صناديق كرتونية، وبدأ يحيى بفك الخزائن والأشربة، ثم استدعى العمال لمساعدته في نقلها، بعد ذلك ركب الى جانب سائق الشاحنة، وجلست زوجته بجانبه تحتضن ابنتها النائمة، في رحلة تشبه هذه الرحلة، وتختلف عنها بوجود يحيى الى جانبها هناك، وغيابه عنها هنا.

لم تسأل، بل خمنت وصدق تخمينها، يحيى اتخذ قراره بالعودة الى القرية، والاشتغال بتفحيم الخشب، يقطعه من الغابات المحيطة بالقرية، والقرى المجاورة، نائياً بنفسه عن الهوان، فأتاح باباً للرزق، يخوله شراء الصندوق الصغير، المليء بالألعاب، الذي تحلم به ابنته وتتغنى به.

وقع الخطى

بعد العصر بساعات، حشر الناس في باصات كبيرة وانطلقت بهم، لا أحد يدري إلى أين، لكن صوت القذائف تباعد وانخفض تدريجا حتى تلاشى، هدير الباصات يصم الآذان، والصمت العميق يلجم الأفواه ويكاد يكتم الأنفاس، التصق الأطفال بأمهاتهم خائفين، وانقطع سيل أسئلتهم، بعضهم استسلم لنوم عميق قلق، وبعضهم بقي جاحظ العينين يحدق في اللاشيء، إلى أين يذهبون؟ لا أحد يدري، ولا أحد يسأل، هدير الباصات والصمت المطبق أجج المخاوف في نفوس الأطفال فراح بعضهم يبكي وبعضهم يشكو آلام بطنه ورأسه، والأكثرية أصابهم الدوار ونوبات حادة من التقيؤ، كانت الأمهات تشعر بالضعف أكثر مما شعرت به في حياتها كلها، وظلت الباصات تهدر وسط الظلام، في دروب لم ير منها سالكوها سوى أوجاعهم.

— أمي... هل سنجوع كما جاعت الجدة أم علي؟

لم تجب أم حليلة بشيء، بل أغمضت عينيها متظاهرة بالنوم هربا من أسئلة الصغيرة التي لا تجد لها جوابا، حليلة تمشي الآن على وقع الخطى من هجرة عاشتها الجدة، عقلها ما زال يحاول الفصل بين حكاية حفظتها من الجدة أم علي وما يجري أمامها الآن من الأحداث، فيعجز، ويدفعها لطرح المزيد من الأسئلة.

— أمي... هل نمت؟ أمي... هل ستبيعون كرم جدتي وبيتنا مقابل صفيحة من الطحين مثلما بيع الكرم الكبير؟ وهل يصلح الطحين للأكل؟

الطفلة تستحضر ما سمعته، عن حقبة جرى فيها حصار تلك القرى وإحراق زرعها، أكل الناس الأعشاب وثمار السنديان والخروب من الغابات، مات أشخاص من الجوع وبيعت بساتين وبيوت مقابل مقدار زهيد من الزاد، واشترى حميد طه رغيفا من الخبز بليرتين ذهبيتين، لكنه عاد إلى بيته ليجد ابنته التي اشترى لها الرغيف قد فارقت الحياة.

ابتسام شاكوش

ترى أين الأستاذ سعيد الآن؟ هل نزع من بيته في دمشق؟ أم أن انتماءه الطائفي جعله في مأمن؟ قال لأم حليلة قبل النزوح، في محادثة على النت، هذا الجنون الذي يمارسه رجال الدولة هو نتيجة انفلات الأمور من أيديهم، وخشيتهم من انتقال الثورة إلى معقلهم في دمشق، لذلك يركزون على حصص، هنالك تسريبات تقول بأن الجيش الحر سينتقل إلى العاصمة، لذلك نشهد الآن ذروة العنف، لا بد من توازن للقوى، بحيث تتحول الصورة من ثورة شعب إلى صراع طائفي، فخار يكسر بعضه بعضا، ليقفوا هم موقف المتفرج، وهنا تسترجع الدولة دورها الوظيفي، للفصل بين المتقاتلين، وستعلن كذبا في وسائل إعلامها بأنها تحمي الشعب من العصابات الإرهابية المسلحة، وسيصدق قطعان الشبيحة والمرعوبون فقط هذا الكلام، ولن يكون اصطفافها إلا إلى جانب أنصارها، لقد زج هؤلاء الكلاب الناس في صراعات عرقية ومذهبية، لا لشيء، الا من أجل استمرار ركوبهم على الشعب فترات إضافية، هؤلاء الوحوش لا يقتلون البشر والحيوانات فقط، انهم يقتلون منابع الخير في نفوس الناس، لا يهمهم من المجتمع سوى استمرار خضوعه لهم، لقد خلقوا أحقادا وهيئوا لثارات وانتقامات تدمر البلد في حال غادره، يريدون جرننا إلى حرب ليست بحال من الأحوال حربنا، أرايت؟ هذا النظام لا يتحمل فكرة السقوط أو التنحي، والشعب ما عاد يتحمل بقاء النظام، ولكن خسئوا، لن نعطيهم هذه الفرصة، نحتاج أطنانا من العقل، وعملا بدأب النمل، لنخلص الشعب من الآثار النفسية للعنف والعسكرة، التي فرضها هذا النظام القذر .

اطمأنت أم حليلة لكلامه، لكنها متأكدة كما هو متأكد، بأن هذه التلة القليلة من المعارضين المنتمين لطائفة النظام لن يتمكنوا من إيصال أصواتهم إلى أصحاب القرار، سبقي، ان بقيت، في باب أضعف الايمان، مع ذلك سارعت بفتح محادثة جديدة معه، تخبره أن قرية بيت الشكوشي قد اعتقلت ابن عمها (ميسرة) وهو شاب مسالم، كان راكبا دراجته النارية، يستكشف الطريق أمام سيارة تنقل جرحى أصيبوا في معركة الحفة، تنقلهم إلى المستشفى الميداني في جبل الأكراد، استوقفه حاجز مسلح من الشبيحة، صادر دراجته واعتقله، قال لها الأستاذ سعيد يجب أن تحل الأمور بسلمية، لا نريد اشتعال الفتنة في قرانا، اتصلي بابن الشيخ فضل غزال، اسمه الحر، وهذا رقم هاتفه، سيحل المشكلة بدقائق .

أخذت الرقم واتصلت، رد الحر بايجابية مشجعة، ووعده خيرا، انتظرت، وانتظرت معها كل القرية المتوترة، الواقفة على أعصابها، لكن الشيخ لم يتصل، اتصلت به تستعجله فما رد، ظلت تحاول الاتصال يومين متتالين ولا يرد، في النهاية اتصلت به من هاتف غير هاتفها، عرفته بنفسها وسألته عن مصير ميسرة،

وقع الخطي

اعتذر بأنه لا تأثير له على بيت الشكوشي، ولا يملك أمامهم جاها يجعلهم يستجيون لطلبه، وقال بأنهم سلموه إلى فرع الأمن حسب القانون.

سارعت بإخبار سعيد، فقال لها ان الشيخ يكذب، ويعلم أنها لن تصدقه، ويعلم كل سكان الساحل بأن الشيخ فضل أو أي واحد من أولاده، لو وقف على مفرق أية قرية من قراهم لتسابق العجائز قبل الشباب والصغار إلى تقبيل يده، حسب القانون؟ أي قانون هذا الذي سمح لهم بقطع الطريق بحواجزهم المسلحة؟ أي قانون هذا الذي حولهم بغمضة عين إلى قطاع طرق؟ وغاب ميسرة، لم يعلم أحد بمصيره. وصلت الحافلات إلى المخيم، استقبلها الحراس ورجال الشرطة الأتراك بحفاوة، قادوا الناس إلى خيمتين كبيرتين أعدتا لاستقبال الوافدين، إحداهما للنساء والأطفال، والثانية للرجال، خلعت بعض النساء عباءاتها، وفرشها على الأرض المغطاة بالحصى، أضجع الصغار فوقها ورددن إلى جانبهم، أسعدهن حفا من لم يكن لديها أطفال، رمت بجسدها المنهك على الحصى بصمت واستسلمت للنوم، حين جاء الحراس بوجبة العشاء في أطباق من الكرتون، كانت معظم النساء والأطفال نياما.

حليمة، التي كانت ساهرة طوال الطريق، وقد كفت عن طرح الأسئلة، وانشغلت بالتحديق من خلال الزجاج، تحصى عدد القرى وعدد أعمدة النور، تناولت نصف عشائها وغرقت في النوم، جلست الأم قريبا منها، تراقب أنفاسها، وحركة مقلتيها تحت الجفنين، التي تشبه بأحلام مضطربة، ظلت في جلستها تلك إلى أن نام جميع من حولها ولم يطرقت النوم عينها المتعبتين، سافرت بأفكارها إلى سنوات مرت من عمر زواجها، كانت هي الأسعد بين لداتها، مضت كأنها الحلم، كان يحيى يغادر البيت متثاقلا، ويعود إليه، بل إليها مأخوذاً بالشوق، ما نسي يوماً أي واجب من واجباته تجاهها أو تجاه بيتها وأهلها، وأهله وجيرانه، كانت تتساءل في سرها، هل يحيى رجل عادي كالرجال؟ أم أنه قديس رماها حسن طالعتها في دربه لتكون أعظم النساء حظاً؟ كانت كثيراً ما تخاف من هواجسها، وتتذكر قول أمها (لا يحسد النعمة الا صاحبها) ما كانت تحسد نفسها، بل كانت تشكر ربها على هذه الهبة، إلى أن جاء يوم....

يحيى ضابط في سلاح البحرية، ويحق لمن كان في مثل رتبته الاستئثار بغرفة خاصة في السفينة التي يقودها، كان يحيى في ذلك اليوم يصلي الظهر في غرفته، وقد نسي إقفال الباب بالمفتاح، فتح أحد العساكر باب الغرفة، ثم أغلقه بسرعة، أكمل يحيى صلاته وقد آمن أن هذا اليوم هو آخر أيامه في الجيش، استدعاه قائد الموقع للتحقيق، ثم أودعوه المعتقل تسعة أشهر متواصلة، بحثت عنه زوجته وأهله حتى

ابتسام شاكوش

أعيامهم البحث، دفعوا من المال ما يملكون وما لا يملكون، رشاوى لأصحاب النفوذ والواسطة، حتى خرج من سجنه، لكنه خرج مجردا من رتبته، مطرودا من وظيفته، خرج بإشارة حمراء على قيده تفيد بتجريمه من الحقوق المدنية كالمجرمين، كان مقهورا محطما، كئيبا، عاد إلى أهله كأنه شخص آخر غير يحيى الذي يعرفون، ما عاد يتحمل أسئلة أمه ولا مناغاة ابنته، ما عاد يدير حديثا مع زوجته، وإن بدأت بحديث أشار لها بيده أن اصمتي... وصمتت منذ ذلك اليوم، لم تزعه بسؤال ولا جواب، لم تطلب منه شيئا يخصها أو يخص بيتها، رغم ذلك كان يمضي معظم وقته خارج البيت، يعود إليه لينام، لينام فقط، ويوصيها في كل مرة بالألا توقظه مهما كان السبب.

سنوات مرت على هذا الحال، والمرأة صامته صابرة، تعيش حياة الأرامل مع هذا الزوج الغائب الحاضر، ولكن... منذ سنة وثلاثة أشهر فقط، ومع بداية الثورة تغيرت أحواله، بات أكثر حيوية ونشاطا، يظهر الكثير من التوق الصامت لزوجته، يحبها بعنف كأنما يريد تعويضها شوق وحرمان السنوات الماضية، ثم يهرب من عينها، ومن حديثها بالعنف ذاته، يغادرها بأسرع مما جاء، وفي نهاية الأشهر التسعة الأولى من عمر الثورة، ولدت ابنها حمزة، كانت الحفة حينها تكفي من الثورة بالمظاهرات، كان يحيى يترك منجل الحطب، ويترك مشحرتة بحراسة بعض رفاق الفحم، ليقود تلك المظاهرات كأنما يقود فرقة عسكرية، ينظم الخطى، يشرف على تخطيط اللاتفات واختيار عباراتها، كان سعيدا بكل شيء، وصامتا معظم الوقت، كان يعود من المظاهرات بهجة واضحة على ملامحه، ما تلبث أن تنطفئ أمام المائدة، يعاف الزاد متعللا بأنه تناول طعاما مع رفاقه، لكن بشرته الجافة، وجسده الذي ركض بخطوات عجل في دروب التحول يكذبان قوله، لم يعد لوده القديم مع زوجته بعد خروجه من سجنه، بل صار يشعر بالمذلة إذ يعتمد في نفقة البيت على مرتبها، يهرب منها بعينيه، يهرب منها بصمته المديد، كانت تدس نقودها في جيبه سارا، فصبح وقد نفص جيبوه منها ونثرها على الأرض أو السرير حيث وضعتها، وخرج متخفيا حاملا مذلته بين جنبيه، ما لبثت أن كفت عن محاولاتها، وراحت تشتري بنفسها كل ما يحتاجه البيت، حتى عادت للسكن في القرية، وعادت النقود لتجري بشح شديد في يد يحيى، فالفحم قرشه أسود مثله، لكنها كانت مبالغ تكفيه لاسترداد الشعور بكرامته ورجولته.

عند هذا الخاطر ما عادت تطيق صبرا، خافت على سرها من الافتضاح بين النساء، انسلت إلى خارج الخيمة بهدوء، وجلدت في الباحة كرسيا مقلوبا، جاءت به إلى مكان قريب من باب الخيمة، جلست تراقب

وقع الخطي

السماء في هذه الليلة المقمرة الباردة، والهواء الذي يهب جافا مغبرا، جلست بصمت، وأطلقت دموعها العنان، ترى أين أنت يا يحيى؟ حي بين الأحياء أم شهيد مع الشهداء؟ أم جريح غريب في إحدى مشافي تركيا، وليس حولك من يناولك كأسا من الماء؟ أما زلت تبحث عن فرصة تختلي فيها مع دموع القهر؟ أما زلت تبكي؟ هل تترك وقع دموع الرجال على نفوس النساء يا يحيى؟ هل تترك ما كانت تغعله دموعك في روح زوجتك التي تعشق كل شيء فيك؟ أما نفضت هذه الثورة عن قلبك غبار القهر يا يحيى؟.

قبل اجتياح قرية الجنكيل بأيام، أرسل الجيش مجموعات استطلاع، لرصد مداخل ومخارج القرية، توقع العقلاء من الرجال اجتياحا كاسحا، فطلبوا من الشباب الانسحاب الى الغابات والحراج المحيطة بالقرية، والاختباء في الكهوف والمغاور والأنهار، وهم جميعا لا يملكون سوى بضع عشرات من بنادق الصيد، لذلك انجلت الغارة بلا مواجهة، وساعدتهم السماء فأرسلت مطرا مدارا، شديد الغزارة، لم ينقطع الدقيقة واحدة، وانحصرت الخسائر ببعض قطع الأثاث التي نهبها الشبيحة من البيوت، وبالكثير من الأبقار والخيول والحمير، تم قتلها انتقاما وكيدا، وكذلك ارتقى ثلاثة من الشهداء، كانوا باكورة ضريبة الدم، لتلك الثورة.

شرح كبير القرية للشباب أن الحروب تحتاج توازنا في القوى، أرجعهم الى التاريخ، أفهمهم أن الفتوحات الإسلامية لم تنتصر بالحماس وحده، بل بإعداد القوة النوعية، كان لديهم الخيل العربية الرشيقة، مقابل خيل الرومان الثقيلة والبطيئة، وكانت لديهم السيوف الخفيفة، مقابل الرماح الكبيرة الضخمة، تراقفهم الإبل في غزواتهم، يحملون عليها أمتعتهم وزادهم، وتمدهم باللبن غذاء، وهي ذاتها غذاء، وبذبحون بعضها فيأكلون اللحم، في حين يبتعد الأعداء عن مواطنهم، وعن زادهم، هذا الكلام لم يقنع يحيى، المتعطش للانتقام، فأخذ يعد العدة لمعركة كبيرة، متجاهلا توصيات الحكيم وتوجيهاته، ليفتتح بعد ذلك بشهرين معركة الحفة.

الحراس الأتراك على علم بما يدور داخل سوريا، وما حولها، فتراهم يتعاملون مع كل تحرك داخل المخيم بحذر شديد، لذلك فتشوا جميع الحقائق، أو ما تبقى في

أيدي اللاجئين من حقائق، صادروا منها سكاكين الطعام والمقصات وكل أداة حادة، وراحوا يراقبون بعين لا تغفل، وبكاميرات المراقبة تحركات الناس داخل الخيام، تقدم أحدهم من أم حليلة في مجلسها، سألها بلغة عربية مكسرة ان كانت تريد شيئا، من بين دموعها، وبغصة حارقة، أشارت له بالرفض.

ابتسام شاكوش

وقف عاجزا أمام دموعها، وما لبث أن انصرف ليرسل زميلا له يجيد التحدث باللغة العربية، ألقى تحية لطيفة وسألها عن حالها، أن كانت تشكو شيئا أو تطلب شيئا، أشار لها إلى موقع الحمامات والمغاسل، لكنها ما استطاعت الرد بكلمة واحدة، بل خالطت دموعها الصامته بعض الشهقات التي حاولت كتمانها فما استطاعت إلى ذلك سبيلا، انصرف الرجل من أمامها، غاب قليلا ثم عاد بكوب من الشاي التركي الأتيق، قدمه لها بهتذيب شديد، وأظهر الكثير من التعاطف معها ومع قضيتها، أخذت الشاي شاكرة، وكفت عن البكاء، راحت ترتشف على مهل، محدقة في السماء، التفتت إلى الرجل الواقف قريبا منها، سألته عن طبيعة الحياة في المخيمات، وعن عدد اللاجئين السوريين الذين دخلوا تركيا، شكرت الحكومة التركية ممثلة بشخصه على لطف الاستقبال وسعة الصدر، وساد الصمت، انتهت من شرب الشاي، تلفتت حولها بحثا عن مكان تضع فيه الكوب، سارع الرجل، فأخذه منها وعاد به إلى محرسه.

السماء واسعة واسعة، ضياء المصابيح الكثيرة المتناثرة بكثافة في المخيم يحجب بريق النجوم، القمر يبدو مصباحا باهتا يقف في البعيد، يحاول التسلل بنوره إلى العمق مستكشفا لكنه يتراجع خجلا عاجزا أمام المنظر الكئيب، أمام قهر الناس اللاجئين المقتلعين من بيوتهم وأوطانهم، النائمين على الأرض المحصبة هنا، ويكتفي بفرد ضيائه على السهول الممتدة خارج حدود المخيم، والمزروعة بقمح في موسم الحصاد، تبعته أم حليمه بنظرها، وقد سرت بهجة خفيفة في نفسها، ابتسمت للقمر وهمست: أحبك يا يحيى، ما تزال أم حليلة عاشقة للقمر في كل أطواره منذ طفولتها، لذلك سرحت ببصرها وشردت بأفكارها، في الحفة لا يوجد مثل هذه السهول، منطقة جبلية مدرجاتها مزروعة بأشجار الفواكه والزيتون، وجبالها مكسوة بالغابات، ينسجم ضوء القمر مع خضرتها فيزيدها غموضا وروعة، وتنادى بنات أوى في وديانها فيتكسر صدى عوائها على الجروف، مما يبهج القلب فتحلق الروح في فضاءات من الفرح اللذيذ، منتشية بهاء المشهد وهدهو الليل، ترى أين أنت يا يحيى؟.

رجع الحارس التركي إليها، ألقى تحية وتوقف، سألها ان كانت تحتاج شيئا، طلب منها أن تراتح لأن سفرها كان طويلا مرهقا، أجابته بأن من سرق منه وطنه لا يمكن أن يراتح.

— يبدو أنك امرأة مثقفة، وهذا يفتح المجال واسعا للحديث عن أزمتمكم

— تفضل، قل ما عندك

— إن المخيمات وأرض اللجوء ليست وطننا لكم، يجب أن تتحملوا قسوة العيش هنا، اياكم والمطالبة بالرعاية،...ولكن هذه الحياة القاسية هنا حافظا لكم للعودة إلى الوطن

وقع الخطى

— كلامك صحيح، نحن لا نريد أن نعيش كالفلسطينيين لاجئين

— حسنا، أنت تعلمين هذا، لقد خرج الفلسطينيون من بيوتهم يحملون مفاتيحها، على أمل العودة إليها بعد ساعات

وامتدت الساعات أياما.. وتطاوت الأيام لتصبح سنوات.. وتوالت السنوات لتصبح عقودا..
أجيال وأجيال من الفلسطينيين ولدت وكبرت وشاخت في ارض اللجوء

ما زالوا يعاملون في كل البلاد العربية التي احتضنتهم في البداية على أنهم لاجئون، كمواطنين من الدرجة الثالثة، وربما أقل من هذا، وانظروا ما حل بهم.....محاولات التخلص منهم وإبادتهم لم تتوقف على مدى هذه العقود، محاولات شق صفوفهم وشرذمتهم كذلك لم تتوقف

القذافي بعد توقيع معاهدة اوسلو جمع ما لديه من الفلسطينيين في سفينة واحدة وألقى بها في عرض البحر، قائلا لهم صار لديكم وطن وحكومة، ما الذي يربطكم ببلادنا؟

في مصر ما ان تفتح الأنفاق بين سيناء وغزة حتى تغلق من جديد...كل مرة بذريعة جديدة...
والفلسطينيون يقفون على معابر الدل ينتظرون الاعتراف بإلسانيتهم المفقودة...وما حدث ويحدث في لبنان من تصفيات وإبادة لا يخفى على أحد

أرجوكم يا اخوتي السوريين في أراضي اللجوء
لا تريد تكراراً لمأساة الفلسطينيين بسوريا..لا تريد تحسين ظروف المعيشة في ارض اللجوء حتى لا يفكر البعض بالاستقرار فيها
لا بنديل لكم عن سوريا....لا بنديل افهموا هذا جيدا.

توقف الرجل عن الكلام، لم تجد أم حليلة ما ترد به عليه، ما نطق به عين الحقيقة، ولكن من يسمع هذه الجماهير صوته، كيف توصل لهم ما قال؟ لابد أن يعي الجميع هذه الفكرة، لابد أن تكون كلماته مصباحا يستضاء به خلال رحلة النزوح والتشرد، الحكومة التركية لم ترض بتسميهم لاجئين، بل ضيوف، يجب على الضيف الالتزام بأدب الضيافة، و بالأ يستكين للإقامة في منزل مضيفه مهما كانت الظروف، لابد من اتخاذ هذه الخيام حافزا للعودة، لابد.

بقيت على صمتها محاصرة بالخجل والمذلة، هي امرأة ضعيفة جاءت بولديها ايثارا للسلامة، ولكن هل كانت حقا تبغي السلامة؟ لا، كانت تفضل البقاء تحت النيران بالقرب من زوجها، لكن الأمر لم يكن

ابتسام شاكوش

بيدها، ما زال الرجل التركي واقفا أمامها، تململت روحها بين جنبئيهما، ما عادت تطيق من هذا الرجل المزيد من الكشف عن مذلة قومها على مدى العقود الماضية، ولكن كيف تصرفه؟

بكاء ابنها من داخل الخيمة أنقذ الموقف، تركت كرسيها وهرعت اليه، حملته وراحت تهدده بين ذراعيها، اكتشفت بللا في ثيابه، وليس لديها ما ينفعها في مثل هذا الحال، جاست بعينها أجساد النيام حولها من نساء وأطفال، وعقلها ما زال يدحرج كلمات الحارس يمينا وشمالا، كل ما قاله صحيح، ولكن ما الوسيلة لتنفيذ نصائحه؟ يجب إيقاظ كل هؤلاء الناس من غفلتهم، وإفهامهم حقيقة ما يجري، وما يراد بهم، الطفل بين ذراعيها لم يصمت، بل زاد بكاءه حدة، ربما يتألم من التهاب جلده المحبوس في ثيابه المبللة طوال الرحلة التي استمرت ساعات طويلة، من بداية الحدود السورية التركية في الغرب إلى نهايتها في الشرق، قامت تتمشى به داخل الخيمة فما أفلحت في إسكاته، ما ذنب هؤلاء المتعبين لتوقظهم بكاء ابنها؟ خرجت به من الخيمة تحمله، الفصل صيف، وقد سافرت القافلة على جناح السرعة، في النهار القاطن، ما زال ولدها يرتدي ثيابا تكشف ذراعيه وساقيه لسعة البرد في ليل الصحراء وثيابه المبتلة جعلته يرتجف، حاولت مناجاته مشيرة للقمر، لكنه لا يريد قمرا ولا نجوما، يريد إيقاف ألم جلده الملتهب.

مرة أخرى عاد إليها الحارس، سألها إن كانت تحتاج شيئا، فأشارت للصبي، ما به؟ سأله، أجابت بأن ثيابه يجب أن تستبدل بأخرى جافة، وهي لا تحمل معها ما تحتاجه، غادرها مسرعا وغاب وراء المحارس، عاد بعد قليل يحمل كيسا كبيرا، قدمه لها، قائلا، خذي حاجتك، وانظري ان كان هنالك من رفقاتك من يحتاج، ذهبت بولدها إلى الحمام، خلعت عنه ملبسه، كانت تخشى عليه من برودة الماء تضاف إلى برودة الليل، لكنها وجدت الماء ساخنا، والحمامات نظيفة مجهزة بالمرايا والصابون، حمدت الله وشكرت للمضيفين جهدهم، غسلت الطفل وألبسته نظيف الثياب، ثم عادت به إلى الخيمة وقد كف عن البكاء.

كانت تأمل أن ينام طفلها لتعود لتداعياتها، لكنه راح يناغي سعيدا ضاحكا، بابا... بابا... الذي يفرحك أيها الطفل الشقي؟؟ ما الذي يدعوك للمناغاة وسط هذا الكم من القهر والألم؟؟ لا تستمع إلى حزني يا ولدي.. دعك في مناغاتك وافرح... عسى أن يكون فرج الله قريبا، عسى أن يجمعنا بمن تناديه قريبا لنعود إلى حياتنا الهانئة الآمنة، نسيت همومها واندغمت مع فرحه، راحت تهمس له بعذب الكلام، تحكي له عن أبيه المقاتل في الجبال، تحكي له عن أمل بعودة مظفرة إلى بلد يمحي عنه الظلم ويخسأ الظالمون.

هدأ الطفل واستسلم للنوم، أراحته على الأرض وجلست قبالة تتأمله بشغف، ما أشبهه بأبيه، في سنوات زواجها الأولى كانت تجلس مثل هذه الجلسة، تتأمل زوجها النائم، تتأمل وجهه المماثل لوجه

وقع الخطي

الأطفال براءة ووداعة، وتشكر الله آلاف المرات أن رزقها هذا الزوج، وآلان أين أنت يا يحيى؟ مئات من الكيلومترات تفصلها عنه، وهي لا تعلم أجريح هو أم شهيد؟ أم سليم معافى ما زال يقاتل؟ لم يودعها وأطفالها حين سافرت نازحة مع هذه الجموع النازحة، ولم تره بين رجال الجيش الحر في ساحة القرية ولا في أية قرية من قرى جبل الأكراد، التي تقاذفتها مع بقية الأسر هرباً من رشاشات الطائرات، ولا حدثها أحد عنه بعد معركة الحفة، ترى أين أنت يا يحيى؟؟؟

من المسجد المقام في خيمة، ارتفع صوت المؤذن يدعو لصلاة الفجر، وقفت تنصت بخشوع، تردد مع المؤذن ما يقول، وراح فكرها يسبح في ماضي أيامها، حين كانت تترك ابنتها حليلة نائمة في سريرها، وتلحق بزوجها إلى فراشه في الشرفة في الليالي الصيفية المقمرة، يتحدثان في كل شؤون الحياة، الخاص منها والعام، يتناحيان، يتبادلان كلمات الحب والغرام، يتأملان القمر والنجوم، حتى يصدق المؤذن من مسجد الحي ينادي للصلاة، يصمتان، ثم يصليان الصبح ويستسلمان للنوم، ما كان أروعها تلك الليالي؟ أتراها تعود؟؟

توجهت إلى الحمامات، توضأت هناك، ودعت ربه بكل ما تحفظ من أدعية، أن يفرج هم هذه الأمة، وأن يعيد إليها زوجها سليماً معافى، صلت الفجر واضطجعت بجانب ولديها، وما لبثت أن غرقت في النوم.

طلوع الشمس أيقظ النيام، الجو صحراوي قاري، الفرق شاسع بين حرارة النهار وبرودة الليل، فما ان عم النور الأرض حتى بدأت درجات الحرارة بالارتفاع، وتحولت الخيمة الكبيرة إلى ما يشبه الحمام البخاري، العرق يسيل أنهاراً على أجساد اعتادت لطف الجو في الحفة وسائر جبل صهيون المطل على البحر، وبدأت معزوفة البكاء، الأطفال لا يطيقون الحر، ولا يتحملونه، لم تجد الأمهات من سبيل لتخفيف الحر سوى الحمامات، ازدحمت الحمامات بالنساء والأطفال منذ الصباح الباكر، يغتسل الجميع ويخرجون، ثم يعودون ليغتسلوا مرات ومرات مدفوعين بشدة الحر الذي ما اعتادته أجسادهم الغضنة، ولا تمكنت من التآلف مع في هذا الوقت القصير، الشمس تبدأ منذ شروقها برمي هذه السهوب المقفرة بشواظ من نار، والخيام تنقلب أفراناً عالية مغلقة، تحتفظ بالحرارة ولا تسمح بمرور تيارات الهواء، بحث النساء عن ظل يجتمعن به خارج الخيام، وهن المعتادات على الركون لحياة بيوت مغلقة، لا يراهن فيها الا من طرق الباب وأذن له بالدخول، الضرورة ألجأتهن للعود في العراء، ينشدن نسيمات الصباح، هاربات بأطفالهن من جحيم الخيام.

ابتسام شاكوش

أعلنت الساعة السابعة صباحا، الشمس وصلت في مسارها إلى رآد الضحى، حضرت عربات خشبية يدوية الدفع، توزع الطعام على اللاجئين، يمشي بها رجال أترك، يرتدون ثيابا شبيهة بثياب الأطباء في غرف العمليات، قفازات وأقنعة للوجه ولبس موحد، وزعوا الخبز والجبن والمربى والزيتون واللبن، إفطار ممتاز، ولكن... أئى للحزينة المهجرة من بيتها أن تستطيب طعاما؟ تتراحم الأطفال الجائعين على الطعام، تتساجروا، بكوا، ثم أكلوا وانصرفوا لألعابهم، ودنت الأمهات على استحياء، يغالبن دموعهن، تناولن ما تيسر من طعام، ثم نظفن المكان ورجعن لمجلسهن في الظل خارج الخيام.

انتظم الأطفال في حلقات، يرددون ما حفظوا من أغنيات وهتافات أثناء المظاهرات، يقطعها أحدهم بين حين وآخر بصرخة: تكبير... فيهتف الجميع الله أكبر، وتبتسم الأمهات، حضرت مجموعة من الموظفين الأتراك، يحملون دفاتر وسجلات، اقتربوا من مساحة الظل فانطفأت ضجة الأطفال ولاد الجميع بالصمت، ما زالوا منذ اليوم الأول للنزوح يتنقلون من مجهول إلى مجهول، الأفاق مسدودة أمام أي حلس أو توقع، أشرأبت أنظار الجالسات على الأرض إلى وجوه القادمين، وحين توقفوا، راحت الأفكار تتصارع في رؤوسهن وتسقط صرعى، ألقى كبير الموظفين تحيته، ولكنه غريبة، السلام عليكم، ردت النساء التحية كما رد الأطفال بأصوات هامسة، أصوات أخدم جذوتها الترقب، قال الرجل كلاما باللغة التركية، أعاده بعده الترجمان باللغة العربية الفصيحة المكسرة، فهمت منه النساء أن مقامهن في جناح الاستقبال قد انتهى، وعليهن استلام خيامهن الخاصة، وفق الجدول الذي أنجز خلال الليل، مستندا إلى الإحصاءات المسجلة في السجلات الأساسية.

راح الرجل يقرأ الأسماء، ويشير بيده، فيتبعه المترجم، يشرح لهن ما قال، ويشير إلى أماكن الخيام، حملت النساء صغارهن، وما تبقى لديهن من ملابس في حقائب صغيرة، وتبعن ثلة الموظفين سيرا على الدروب المفروشة بالحصى، والمتجهة غربا، توزع في خيام مجهزة بفرش من الإسفنج، وملاءات رقيقة، وبضعة أطباق وقدر وملاعق، ثم... لا شيء... كانت أم حليلة تسير في الموكب، لكنها تخلت عن ذهلها وراحت تتفحص المكان بدقة، لا أحد يعرف كم من الزمن سيمكثون هنا، تلتفت حولها، كانت أم حسن تسير خلفها، تحمل أحد أحفادها وتمسك يد الآخر، وتسير قربها ابنتها محاسن، حاملة بعض الحقائب، تتبعهما كل من زوجتي ابنيها، لم تتمكن المرأة الستينية من كتم حزنها وألمها فأطلقت لدموعها العنان، ازداد شعورها بالعجز حدة فتحولت دموعها الصامتة إلى شهقات وما لبثت ابنتها وزوجتي ابنيها أن شاركنها

وقع الخطي

البكاء، توقف الموظفون الأتراك، وراحوا يواسونهن بكلمات لم يفقهن منها شيئاً، لكن التأثير كان واضحاً في نبرة أصواتهم، وأكمل الموكب سيره إلى الخيام.

ما تزال أم حليلة هي المرأة الأكثر قوة، والأقوى صبراً بينهن، وضعت أشياءها في خيمتها ولحقت بأمر حسن، راحت تواسيها وتصبّر لها، وتعدّها بالعودة إلى بيتها سالمة غانمة...كلها أيام قلائل ويعود الجميع، كانت أم حليلة تتخاطب العجوز همساً، تلمس على رأسها وتكفيها مواسية، وصوت يصرخ، يضح في أعماقها : أنت كاذبة، هجرة من سبقوكم استمرت خمس سنوات، منهم من رجع إلى قريته ومنهم من استقر في مهجره، فتجيب نفسها : حينذاك لم تكن تقيعة الجنسية قد درجت بعد، من استقروا في مهجرهم سجلوا تلقائياً كمواطنين في تلك البلاد، الآن أنتم لاجئون، شحاذون، تنتظرون الصدقات والمعونات، ويجب صوت آخر من داخلها : لا، نحن مجاهدون، ولا بد لنا من العودة لديارنا بعد النصر، أعلنها منذ البداية هي لله، لا للمال ولا للجاه، وأعلنها : مالنا غيرك يا الله...لا يمكن أن يخذلنا الله وقد توكلنا عليه بصدق وإخلاص نية.

قالت أم حسن : قبر ابني حسن لم تجف ماءه بعد، وإخوته الخارجين للتو من معتقلهم انضموا للثورة، أي بؤس هذا؟؟ تواسيها أم حليلة : أبناؤك أبطال يرفعون الرأس، حق لك أن تفخري بهم، لا أن تيأسي من رحمة الله، كل رجالنا هناك، تلفتي حولك، هل ترين سوى النساء والشيوخ والأطفال؟.

حسن ابن أم حسن أصيب بحادث سيارة قبل اندلاع الثورة بزمن ليس بالبعيد، وكان شرطياً معروفاً بنزاهته، وسط جهاز للأمن لا يعرف معنى الشرف أو النزاهة، نقل بعد الحادث إلى المستشفى، عادته أمه وإخوته، كان صاحبياً، وبحالة صحية جيدة، لكن إهمال الأطباء كان واضحاً، ودعوه على أمل شفائه، ورجعوا في اليوم التالي، لم يجده في سريره، سألو الممرضة فأخبرتهم أنه قد مات، هكذا بقلب بارد خال من الإحساس، و كأنها تخبرهم عن حدث لا يعينها ولا يعينهم، صرخ أخوه كيف مات؟ لقد قتلتموه، ردت على صراخه بصراخ أقوى : حافظ الأسد بنفسه مات، أفلا يموت أخوك؟ طبعاً حافظ الأسد الذي كان مكرساً للأبد، ما كان أحد منهم يعتقد أنه سيموت، لكنه مات، أفلا يموت حسن؟ لم يتحمل محسن كلامها فصفعها على وجهها صفعاً رمتها على الأرض، تدخل الطبيب المناوب مؤازراً الممرضة، فصر به أيضاً وشتت حافظ ويشار الأسد، حضرت فوراً دورية أمن المستشفى وقادت إخوة حسن الأربعة مع خاله إلى المعتقل، ورجعت أم حسن وحدها إلى القرية مع جثة حسن، كأن وفاته وحدها لا تكفي لكسر ظهر الأم المسكينه.

ابتسام شاكوش

ليضاف اليها اعتقال أربعة من أبنائها ، واثنين من إخوتها، غابوا عنها شهورا عدة، لا يعلم الا الله كم مر عليهم من أصناف التعذيب والأذى الجسدي والنفسي، الذي لا يسلم منه أي شخص دخل المعتقل، ولا يعلم الا الله، مقدار صبرها واحتسابها، كل أهل البلد يعرفون تفاصيل التفاصيل عن محتتها.

كفت أم حسن عن البكاء، بعدما طرحت سؤالاً ظل يلوب في وجدانها ولا تقوى على البوح به، من سيأتيني يخبر عن ابني أسامة؟ أعلم أنه قد نقل بسيارة الإسعاف إلى تركيا، وهل تركيا قرية صغيرة لأبحث عنه بين مدنها ومستشفياتها؟ صمتت، وصمتت النساء من حولها، ما عاد هنالك الا صوت الخيام تخفق مهتزة مع الرياح، وضجة الأطفال اللاعبين أمام الخيام، يتصايحون ويتخاصمون ويرددون أغنيات الثورة، تسربت النساء واحدة تلو أخرى، عائدات إلى خيامهن، ليستكشفن نوع الحياة الجديدة، التي فرضت عليهن، ولا عهد لهن بها، راحت كل واحدة توصي أبناءها بعدم الابتعاد عن الخيمة خشية الضياع، وأي ضياع؟ الكل هنا ضائع شارد غريب، الكل هنا مؤمن بأن هذه الإقامة لا بد أن تكون قصيرة، يعودون بعدها لبيوتهم وديارهم، بعدما يسقط النظام أسوة بالأنظمة التي سبقته للسقوط، في تونس ومصر وليبيا واليمن.

أسامة ابن أم حسن منعه أخواه من مغادرة البيت يوم المعركة الكبرى في الحفرة، أمره بالبقاء إلى جانب أمه التكلى، التي لم يمض الا القليل على فجيعتها بولدها البكر، والذي كان عمود بيتها، والأحب إلى قلبها، لم يستطع الجلوس، تبع أخويه إلى الشارع، التقى هنالك بأحمد، سأله ان كان يملك سلاحا، فhez رأسه بالنفي، وسالت دموع القهر على وجنتيه، قال له : تعال الى المسجد، لترفع تكبيرات التشجيع للمقاتلين، نفعل كما تفعل النساء على سطوح المنازل، دخل الاثنان المسجد، فتحا مكبرات الصوت وراحا يطلقان التكبير، لكنها سرعان ما تركا موقعهما، وذهبا الى الجرف الفاصل بين القرية وساحة المعركة، هنالك وجدا رجالا يجأرون بالدعاء، ويبكون، وقفا يبكيان مع البواكي عجزا وقهرا، جاء ابن عم لأحمد، أعطاه بندقية صيد، فخطفها بلهفة وانطلق يجري الى حيث المعركة، وظل أسامة واقفا حيث كان، وقد تحول بكأؤه الصامت نحيبا، مر به أبو فادي، أخبره أنه يملك بندقية صيد لا يملك سواها، أعطاها له مع بضعة طلقات، أخذها وقد تحول بكأؤه فرحا وطربا، ذهب الى بيته يودع أمه، مؤكدا لها أنه ليس بأفضل ممن ذهبوا يقاتلون، ولا هو بالجبان ليرضى بالجلوس مع النساء، أوصته بأخويه خيرا، أخذ سلاحه ومضى راكضا في أقصر الدروب وأشدّها وعورة.

سلك أسامة طريق (الزردة)، متجها الى نهر الحبيس وواديه العميق، قافزا بين الصخور الجلاميد. والشجيرات الحراجية الشائكة، باتجاه الحفرة، وهو الدرب ذاته، الذي سلكه جده ورفاقه منذ ما يزيد عن

وقع الخطي

الثمانين سنة، ماضيا نحو ذات الهدف، ليقاتل نفس الأعداء، ركض الشاب حاملا بنديقه الصيد، فرحا بالطلقات الخمس التي حصل عليها، بعد اجتياز النهر وصل الى الاسفلت، حيث استوقفه شاب من أبناء القرية اسمه عبد القادر، كان يقف في مدخل القرية حارسا، سأله عن وجهته، فأجاب بأنه ذاهب للمعركة، فسارع عبد القادر الى مبادلته بنديقه الصيد ببندقية آلية، تصلح للمعركة، بينما تكفي بنديقه الصيد من أجل الحراسة، تابع أسامة الركض الى أن التقى بمصطفى، أردفه على دراجته النارية الى مشارف أرض المعركة.

الرجال هناك كانوا يخططون لاقتحام الطريق الاسفلتي تحت وإبل الرصاص ليدخلوا المشفى، لم ينتظر أسامة إشارة القائد، بل انطلق مدفوعا بحماسة فأصيب بطلق ناري في ساقه رماه أرضا وأعجزه عن المتابعة، صاح به رفاقه أن ازحف رجوعا، زحف حتى تجاوز الاسفلت، كان الرصاص المنهمر يتساقط حوله فيحدث حفرا عميقة في الأرض، خلع حذاءه لينظر الى رجله، خالها قد قطعت وانتهى أمرها، ما تزال عالقة بعض الشيء، أراد الاجهاز عليها بسكين في جيبه، لكن رفاقه منعه، حملوه وركضوا به، وهناك رن هاتفه، كان المتصل أحاه يتكلم من مدينة اللاذقية، سأله عن حاله، فأجاب أنه بخير، لكن المطر غزير، في اشارة الى الرصاص.

عند أول منزل توقفوا، قرعوا الباب بعنف فانفتح، دخلوا فناء الدار، أطل صاحب البيت وزوجته من الباب يستطلعان الخبر، حين شاهدت الزوجة شابا محمولا على أذرع رفاقه وثيابهم الناضحة بالدم أغمى عليها، حملها زوجها الى الداخل وعاد الى الشباب، تفحص الساق المصابة بصمت، أحضر بعض المناشفه وصندوقا خشبيا من النوع المعد لتعبئة الخضار، حطمه واستخرج منه بعض الخشبات الصالحة، صنع منها جبيرة بدائية، عالج بها ساق الشاب وأمرهم بالاسراع به الى أقرب مستشفى ميداني.

أسامة يشعر بالظما، طلب منهم الماء، قال الرجل صاحب البيت الماء يضرك الآن لأنك نازف، لكنه أصر، وراح يرحوهم واحدا إثر واحد، أحضر له صاحب البيت كوبا ونصحه بالأكثر من الشرب، شرب نصفه، ثم غامت الرؤيا أمام عينيه وغاب عن الوعي.

صحا في منزل من منازل الجنكيل، اتخذته الشباب مستشفى ميدانيا، جهزوه ببعض الأدوات والأدوات الاسعافية، فتح عينيه، رأى نزارا يمسح له وجهه بقطعة مليلة، ابتسم له رامي مهنتا بالسلامة، وأعطاه حقنة في العضل، غاب بعدها عن الوعي مرة أخرى، وما شعر بأنهم حملوه الى سيارة مع عدد من الجرحى وسافروا به الى تركيا، صنع هاتفه الجوال بين نوبات صحوه وإغمائه، وانقطعت صلاته بأمه.

ابتسام شاكوش

دخلت النساء الى خيامهن، وظلت أم حسن في ذهولها، تبكي تارة وتجار بالدعاء تارات، طالبة من الله نصرا قريبا، وسلامة لأبنائها وكل رفاقهم من المجاهدين، الخارجين بأرواحهم، وبقليل من العتاد، يواجهون قدرهم طالبين عيشة انسانية تحفظ فيها كرامتهم وحريتهم، أو ميتة يرتقون بها الى ربهم شهداء بعدما قدموا ما في وسعهم.

فتحت أم حليلة حقيبتها، فردت محتوياتها لتتفقد ما جلبته وما يمكن أن تحتاجه في هذا المنفى، وجدت أنها تحتاج الكثير، تحتاج لولديها ثيابا تناسب هذا الجو الصحراوي، برد في الليل وقيظ في النهار، تحتاج أحذية لها ولهما، تستطيع مقاومة هذا الحصى المسنن الحواف، الذي فرشت به أرض المخيم، تحتاج التواصل مع العالم الخارجي، لن تستسلم للسجن هنا، لابد من وسيلة.

في الاصيل، حين خفت قليلا حدة الحر، أخذت ولديها وذهبت الى الادارة، اكتشفت أنهم جهزوا مسبقا صالة للإنترنت، كما جهزوا روضة للأطفال، هذا اكتشاف عظيم، ستتواصل مع كثير من الناس، وربما تستطيع الوصول الى زوجها، وأهل قريتها، ولكن لا بد من إكمال الحديث مع الاستاذ سعيد لتعلم منه الى أين تسير الأمور، بدأت بكتابة منشور صغير تعلن فيه أنها صارت لاجئة تعيش في خيمة، ثم دخلت نافذة البحث عن أصدقاء فأرسلت عشرات طلبات الصداقة الى كل من ينتمي للحفة وقراها.

— كم من السنوات تحتاج هذه العداوة التي أشعلوها بين الطوائف لتتطفئ جذوتها من قلوب الناس؟

— العداوة؟ الثأر؟ الانتقام؟ يجب أن نكون نحن صمام الأمان بعد سقوط النظام، أرى أن الحكاية لن تطول، المهم أن نعود الى قرانا ومساكننا، نبني بلدا لكل الناس، ونفهمهم أن بشار الأسد وأباه وحاشيتهم، كانوا يتخذون البلاد مزرعة لهم، ولآل مخلوف وشاليش ويعتبرون الناس عبدا.

— نحن كنا نفهم ونرى هذا الأمر بوضوح، ونرى حولنا عددا هائلا من العلويين المدقعي الفقر، الذين لم ينالوا من حكم الأسد طينا ولا طحيننا، وأنهم كانوا فلاحين في قرى يملكها علويون مثلهم، ما كان المالك العلوي أرحم بفلاحيه من المالك السني، لكن النظام حول الأمور الى حقد طائفي منذ بداية حكم الأب.

— يا سيدتي يجب أن يعلم الجميع أن أركان دولة الظلم ينتمون الى كل مكونات الشعب، وليسوا من الطائفة العلوية، خذي مثلا: عبد الحلیم خدام و رستم غزالي و خالد العبود وأغلبية أعضاء مجلس

وقع الخطى

الشعب والوزراء هم من السنة، وكلهم يصفقون الآن لقتلنا وبياركونه، يشر بون دمنار، وأن فقراء العلويين لم يحصلوا من هذا النظام سوى تشغيلهم كعبيد لدى أفراد الأسرة الحاكمة.

— لا يا أستاذ سعيد، أنت تعلم أن من تتحدث عنهم من السنة، هم أبعد ما يكون عن الفرائض والسنن، لبسوا قمصان العلمانية فما كانوا علمانيين الا في عداوتهم لأهلهم، أنت واثق كما أنا واثقة، أنهم ليسوا بأصحاب قرار في دولتهم، كلهم لا يملكون قرار تعيين موظف، بل مستخدم، ولا فتح شارع في مدنهم، هم ديكورات تكمل المسرح فقط، انظر اليهم واحدا إثر واحد، كلهم أضروا بأهلهم وقراهم أكثر مما نفعوا، كل مكاسبهم تصب في خاتمة مصالح آل الأسد، وما كانوا سوى كلاب صيد لا أكثر، وكلنا يعلم أن كنا ساء علوي في أية وزارة، يملك من المبادرة أكثر من الوزير، وأن أي عنصر في فرع من فروع المخابرات يستطيع إهانة عضو مجلس الشعب، بل الوزير وسحله أمام الناس، في تمهيد لاقتياده الى زنزانة في فرع الأمن، وليست حكاية محمود الزعبي عنا بعيدة.

انتهت المحادثة الأولى عند هذا الكلام، شعرت أم حليلة بالغثيان، تركته وانتقلت للحديث مع أحلام، هذه الشابة التي اشتركت في أولى المظاهرات مؤازرة خطيبها، كانت خطبتهما مثار إعجاب وحديث كل الجوار، كانا جيولان في الشوارع أثناء المظاهرات كطيور الحب، عقد قرانها وتأجل موعد العرس حتى نهاية الثورة، كانت أحلام تحلق بحلم فراشة، ممسكة يد أحمد، تستمد منه الفرح والحب والأمان، تدفعه للمزيد من الإقدام والتفاني في الثورة، وحين يتصفى النهار تعود لبيت أهلها، تحضر عشرات اللغائف من الطعام، وتخرج لتقف بها على ناصية الشارع، تناولها للمتظاهرين واحدا إثر واحد، وتخص أحمد بأكثر اللغائف أناقعة وعناية، لم يطل بها الحال أكثر من اسبوع، اذ كانت في مطبخها تحضر الزاد للمتظاهرين حين دخلت مجموعة من الشباب المتظاهرين باب منزلها المفتوح، حاملين جثة أحمد بعد إصابته برصاص قوات (الأمن).

— مساء الخير يا أحلام

— وهل بقي خير في مساء اتنا؟

— نعم... سيبقى الخير في الدنيا ما دامت الشمس تطلع من الشرق

— لا أرى خيرا من حولنا، بعد بيتنا الواسع في الحفة وغرفتي الخاصة، انظري حالنا، ثلاث أسر محشورة في غرفتين، الأطفال لا يكاد يسكت بكأؤهم حتى تنطلق ضحكاتهم، أو شجارهم، طوال الوقت

ابتسام شاكوش

نحن نشغل بالطبخ والغسيل وترتيب ما عبثوا به، لا ينفج معهم عقاب ولا مكافأة، غسيلنا يدوي، طعامنا تجهزه ليوم واحد، الكهرباء مقطوعة معظم ساعات اليوم، والماء كذلك، نشغل طوال الوقت ولا يثمر عملنا عن نتيجة.

— هل تعرفين مصير أهلي؟

— نحن لا نخرج من البيوت الا في حالات نادرة، نشترى حاجات البيت من أقرب دكان ونعود خشية الاصابة برصاص طائش أو الاعتقال.

— وأنت؟ ما هي أحوالك؟

— بعد وفاة أحمد ما عدت أشعر بطعم الحياة، بل أحس أحياناً بالحاجة للجنون، أخرج من البيت وحدي، أمشي في الشوارع بلا هدف، أمشي حتى يهدني التعب فأختار زاوية أو مكان عند موقف باص لأبكي حتى تهدأ روحي، ثم أعود للبيت.

— كيف تبتكين في الشوارع؟ ألا تخشين تأويلات الناس؟

— ما عاد هذا الأمر يهم أحداً، تعالي الى شوارعنا لترى ما أكثر البواكي

— هل تعرفين مصير نجاح وخالته عفاف؟

— هؤلاء يسكنون في حارة متاخمة لبيوت العلويين، زرتها مرة فوجدت تحت شرفة بيتها بازار السنة

— ما هو بازار السنة؟؟

— هو سوق شعبي يقام في أحياء العلويين تباع فيه المنهوبات من بيوت أهل السنة، هل تعلمين ما الذي وجدته في ذاك البازار؟ وجدت الصندوق الخشبي المطعم بالصدف، والذي أهدها لي أحمد ليلة خطوبتي، لأحتفظ فيه بمصاغي، وقد نقش على غطاءه اسمينا وتاريخ خطوبتنا، اشتريته ورجعت به الى البيت، كان ذلك المشهد عندي يعادل في قسوته دخول جثة أحمد الى بيت أبي، تصوري، بعد كل هذا مازال بعض البلهاء من أهل بلدنا يخافون من الحديث في الطائفية، يمرون بسوق السنة يشاهدون أئات بيوتنا وثيابنا وأدواتنا تباع بأرخص الأثمان، بطريقة مهينة، ويقولون إياكم والطائفية، هل بعد هذا طائفية؟

تركت غرفة الحاسوب تغالب الصداع، وتغالّب هبوطاً في ضغط الدم يكاد يجرفها الى شواطئ الإغماء، وقامت تتفقد ولديها، كانت حليلة نائمة في الأرجوحة المتوقفة، مائلة العنق، بينما حمزة يناغي وحده في

وقع الخطي

سرير الحضانة، أيقظت حليلة، دفعتها لتمشي أمامها، وحملت الصبي بين ذراعيها، أخذتها وخرجت الى الدرب المحجر، استقبلتها نسمة هواء حارة وكأنها تقف على باب الفرن، بعد خروجها من الغرفة المكيفة، وعادت لخيمتها تنتظر عربة الطعام لتأتيها بوجبة العشاء.

الخيمة ما تزال تصطلي بحرارة الشمس، وكأنها حمام بخاري مغلق، شرعت أبوابها، أوصت حليلة بالاعتناء بأخيها، وبألا تخرج من الخيمة مهما كانت الأسباب، ثم حملت القدور الفارغة واصطفت مع بقية النساء في طاوور المذلة بانتظار ما يتصدق به عليهن من طعام، على حاشية الشارع الفاصل بين الخيام، كانت معظم النساء غارقات في بحر الدموع والصمت، تخفي وجهها أو نصف وجهها، تداري هوانها، لكن الجوع لا يعترف بهذه العبرات، وكذلك بكاء الأطفال، لذلك وقفن على هوامش الدرب منتظرات يغالبن شعورا فظيعا بالخزي والهوان.

أخذت أم حليلة حصتها من الطعام وعادت لخيمتها، وجدت ابنتها في غاية الهلع، تحاول السيطرة على بكاء أخيها بلا جدوى، تشاركه بكاءه، حين وقفت في باب الخيمة ركضت اليها حليلة، عانقتها بقوة، راجية إياها من بين الدموع ألا تتركها وأخاها أبدا، وألا تموت في الغربة مثلما ماتت أم نوري في المهاجرة القديمة، بسملت المرأة وحوقلت، متسائلة في نفسها عن وسيلة تستطيع بها إخراج ابنتها من قميص الجدة أم علي، ولكن كيف تقنعها والأحداث تتكرر أمام ناظرها بالتفاصيل ذاتها، بأسماء الأحفاد الذين ورثوا من الأجداد شقاءهم وقهرهم، وأسماءهم أيضا؟

أم نوري كانت حاملا في شهرها الأولى، رافقت موكب الهجرة مع ابنتين لها، كانت تمشي في نهاية القافلة، متعبة مرهقة، جلست لتراح في ظل شجرة، وجلست ابتناها بجانبها، أظلم عليهن الليل، نامت ابتناها في حضنها تطلبان الأمان، خائفات من الظلام، خائفات من حكايات سمعتها عن ضباب تأكل أجساد الناس وهم أحياء، عن جنيات تخرج في الظلمة لتخطف الأطفال من أحضان أمهاتهم، لكنهما استيقظتا في الفجر، ولم تستيقظ أمهما، حاولتا إيقاظها فلم تستجب لهما، ظلتا في محاولتهما تكيان وترجوانها الى ما بعد شروق الشمس، تركتاها ومشتا على الدرب حتى وصلتا الى أقرب قرية، أخبرتا أهلها فسارع من تبقى من الرجال الى المكان الذي حددته الطفلتان، جاؤوا بجثة المرأة الميتة، وتطوع أحد الفرسان فأردف الطفلتين على حصانه، وجرى ليلحهما بالقافلة التي ضلنا عنها، بنات هاتين الطفلتين كانت تزور الجدة أم علي، فجلس معهن، تتذاكر وإياهن حكايات الأمهات والجيدات، وتخزن ذاكرة الطفلة حليلة كل الحكايات.

ابتسام شاكوش

ضمت أم حليلة ولديها الى حضنها، وحين توقف البكاء، أنزلت ستائر خيمتها وأغلقت أبوابها اتقاء برد الليل، بدأت بإعداد الطعام، وراحت ترد خلال عملها على أسئلة طفلتها وتناغي طفلها، ثم أسلمتها للنوم بعد نهار حار مرهق، مضى كأطول وأضيق نهار عرفته تلك المرأة في حياتها، لم تعرف خلاله بأي شيء يجب عليها أن تفكر؟ بزوجها الذي لا تعرف عن مكانه وأخباره شيئاً؟ ببلدها المسروق منذ خمسة عقود من السنين؟ بالثورة التي تحاول استعادة ما سرق ونهب؟ بغربتها وضياعها مع ولديها؟

ارتفع أذان المغرب من مسجد المخيم، فقامت تتوضأ من جردل ملأته ماء ووضعته داخل الخيمة، ما عادت تجرؤ على مغادرة ائبتها وتركها لتلاطم الأفكار والديه بين واقعه وحكايات جدتها، أدت صلاتها واستلقت على فراشها تقاوم شعورها بالاختناق ضمن مساحة الخيمة وراحت تراجع أحداث ذلك النهار الصاحب.

قبل أن تقدم لائبتها طعام العشاء أخذتها الى الحمام، لتغسلها من غبار النهار، خلعت عنها ثيابها فلاحظت ازدحام البثور على كامل ساقها، لا شك أنها آثار الأشنوك التي شاكته في رحلتها بين الشجيرات الحراجية، توقعت ليلة موشاة بالأرق، سترتفع حرارة الطفلة جراء الالتهاب المزمن لمواقع الأشنوك، والمحيط بكل بشرة من البثور إحاطة كاملة، دلكتها بالصابون، ثم نشفتها بشكل جيد، وفي الخيمة فرطت واحدة من كبسولات المضادة للالتهاب أداؤها في نصف كوب من الماء ورطبت به ساقى ائبتها، ثم قدمت لها عشاءها وأضجعتها على الفراش الاسفنجي تمهيدا للنوم.

نمط جديد من الحياة يجب على الجميع تقبله، بل الاعتياد عليه هنا، لا ثياب مخصصة للنوم، الكل ينام بتياب النهار التي لا بديل لها، والكل يأكل من طعام واحد، تأتي به مطبوخا العربات المخصصة له، مجلوا من مطابخ كبيرة خصصت لهذا الشأن، والكل ينام باكر، اذ لا تلفزيون ولا سهرات ولا أحاديث تملأ الوقت، الجميع ذاهل يفكر بما كان وما صار وما سيؤول اليه الأمر، أغلقت الخيام على سكانها وأطفئت أنوارها، فخلت الشوارع من الحركة، الكل مشغول بأمر أهله، عائلات تشتت وتوزع أفرادها بين مخيمات الداخل السوري ومخيمات دول الجوار، الكل يفكر بأحبة استشهدوا أو اعتقلوا أو مازالوا صامدين في ساحات القتال، الحفة وكل القرى السنية المحيطة بها تحولت الى ثكنة عسكرية كبيرة، قرية دقيل سويت بالأرض، لم يبق فيها بيت قائم، بكاس هدم معظمها، وبقية القرى هدم منها ما هدم ونهبت البيوت القائمة بذريعة أنها مال الارهابيين، لا وقت لشيء سوى الذهول.

وقع الخطي

بعد صلاة العشاء عادت أم حليلة الى مضجعها بجانب ولديها، وقبل أن يلامس الكرى جفنيها المتقلين بمتاعب النهار بدأت حليلة بالأنين، متألمة من أوجاع ساقها الملتهيتين، جست الأم جينيها فوجدت حرارتها مرتفعة، الى أين تذهب بها في هذا الليل الموحش؟ فتحت باب خيمتها وألقت نظرة على الفراغ، سكون مخيف لا يقطعته سوى خفقات الخيام تهتز بفعل الرياح، كل أنوار النيام من حولها مظفأة، من توقظ ليرافقها الى المستوصف؟ عند من ستترك ابنها حمزة؟ ليت خيمة أم حسن قريبة منها، لكنهم وضعوها في حي آخر يفصلها عنه سور من الشبك المعدني والأسلاك الشائكة، جيرانها من محافظات أخرى، بعضهم جاء من ادلب وريف حلب، بعضهم من حمص وريف حماه، ومن جبل الأكراد، لم تسألهم بعد عن أحوالهم، فلكل مهاجر شأن يغنيه، حوقلت وسبحت وعاتدت لخيمتها، تعالج ابنتها بكلمات الماء البارد، وترش البودرة فوق بثور ساقها الى أن نامت الطفلة على قلق.

وقع خطوات ثقيلة كان يطوف بخيمتها، زرع في قلبها رعبا، من هؤلاء الساهرين في هذا الليل البهيم؟ لماذا يطوفون بخيمتها؟ ما الذي يريدونه منها؟ أهم من اللاجئيين وقد منعت ذكريات الأمس النوم عن عيونهم؟ أم هم لصوص يتربصون بها وبخيمتها؟ ليس لديها ما يثير المطامع فأى شيء يسرقون؟ كل ما لديها فراش من الإسفنج وبعض الأواني، ربما يكونون من الشبيحة، قصدهم الانتقام من زوجها بإيذائها وقتل ولديها، دب الرعب في قلبها فانطلق خيالها ليرسم لها جرائم وأحقادا تعلمها جيدا مثلما يعلمها كل سكان بلدها، بعضها جرى في حياة الجدة أم علي وبعضها شاهدهت بأم عينها، أو سمعته يروى على ألسنة من شهدوها، قبل نزوحهم، أطفأت نور خيمتها، وجلست قرب ابنتها تراقب أنفاسها، وتستعد لأي شكل من أشكال المفاجأة.

تجاوز الليل منتصفه بقليل، عاودت الطفلة الأنين، راحت الأم تلاطفها بناغم الكلام وسخي الوعود، تمسح رأسها وجينيها، تدلك ساقها، تبدل لها كماداتها، واشتد وقع الخطي أمام خيمتها ذهابا وإيابا، زاد معه رعبها، زاد خوفها على طفلها، اندست بينهما، احتضنت كل منهما بإحدى ذراعيها واستسلمت للصمت. كان النوم ثعلبا مروعا في تلك الليلة، تطرده بعضا الخوف، تخرجه من أبواب الحذر، يتسلل إليها من نوافذ التعب والإرهاق، يغزو عينها بلحظة، يأخذها الى أحلام ترى فيها نفسها محاصرة بالانفجارات، أو راكضة بين أطلال قرى مهدامة، فتصحو محوقلة، تردد بعض الأدعية وتعود للنوم من جديد، يوقظها أنين ابنتها، فتهدئها وتمسح على جينيها، تبدل لها كمادات الماء البارد وتعود للسباحة في بحر أفكارها المتلاطم

ابتسام شاكوش

الأمواج بلدها الآن بركان نشط، تغلي فيه الحمم وتحجبه عن الحقيقة سحب بركانية ثقيلة تتمثل في المصالح الدولية والإقليمية في المنطقة، ويتناثر الشعب كالرماد، بين نازح ولاجئ وقتيل ومعتقل، وهي هنا، تحيط بخيمتها خيام لا تعرف أحدا من سكانها ولا يعرفها أحد، يفضلها عن أم حسن وأسرته رتلان من الخيام، في كل خيمة منها عشرات الحكايات، وأصناف ملونه من الفقد والتكل والشقاء، وارتفع صوت أذان الفجر معلنا نهاية ليلا الموشى بالوجع والأرق.

في منتصف الأذان استسلمت للنوم، كان نوما ثقيلا طويلا، صحت منه على بكاء ابنها، وقد اكتفى من النوم وحن الوقت لتبديل ملابسه وإطعامه، كانت أشعة الشمس تسطع بقوة مخترقه نسيج الخيمة الرقيق، لتجعل فضاءها شبيها بجوف تور، تعودت بالله من الشيطان الرجيم، تركت ابنتها تواصل النوم وأخذت الصبي الى الحمام، غسلته وبدلت ملابسه، ثم توضأت وعادت لتجد حليلة تام منبطحه على بطنها، غامرة وجهها بيديها، تبكي بكاء مرار، بكاء مشبعا بالخوف والقهر، حين وطئت الأم عتبة الخيمة ارتفع نسيج البنية حتى كادت تختنق، وضعت الصبي بجانب أخته بصمت، وراحت تحضر له زجاجة الحليب، وتحضر في ذهنها أعدارا، وكلاهما تقنع به ابنتها، وتساعدها على تخطي الأزمة والاعتیاد على نمط الحياة الجديدة في الخيام، سلمت الطفل رضاعته وراحت تقضي صلاة الفجر الفاتئة.

نادى المنادي على سكان الحي للخروج من الخيام واستلام وجبة الفطور، تصنعت أم حليلة الغفلة عن بكاء ابنتها، وطلبت منها مساعدتها في جلب الوجبة الى داخل الخيمة، حملت قدرا وحملت ابنتها قدرا أخرى، تركتا الصبي يلهو برضاعته وخرجتا للوقوف في الطابور مع الواقفين والواقفات، استلمتا حصتهما وعادتا الى الخيمة، كانت الأم تحدث ابنتها، وتشرح لها حسنات هذه الأنواع من الطعام، لتنسيها قهرها وخوفها، طلبت منها مساعدتها في تجهيز المائدة، وزعتا الجبن واللبن والمربى في أطباق معدنية، وجلستا تتناولان الطعام، وهما تتبادلان حديثا يمور بين المرح والأمل والذكريات، استطاعت به المرأة انتزاع ضحكة صافية من قلب ابنتها فحمدت ربها وقامت تغسل الأطباق في المغاسل العامة تساعدها ابنتها، التي زرعت في روعها بأنها صارت كبيرة، ويجب عليها المشاركة في كل العمل، لتشغلها عن أحزانها.

غربان الحزن التي باتت ليلتها في هذه الخيمة، فرت هاربة من فراشات ملونة انطلقت مع ضحكات حليلة، وتناثرت داخل الخيمة وخارجها، مما جعل بنات الجيران تتزاحم على باب الخيمة بوجوه أرهقتها القهر ووردتها ضحكات حليلة، فجئن ليشاركنها الفرح، رحبت بهن أم حليلة، وراحت تدير بينهن مسابقات

وقع الخطي

وألغاز، تنتهي كلها بصحكات تزهز في بلقع المخيم، فيخشع القبطر، ويعترف أن حياة من نوع جديد قد بدأت هنا، يشهد أوار الشمس فيسيل العرق على جباه البنات، تقترح أم حليلة مغادرة الخيمة واللجوء إلى خيمة أكبر، افتتحتها إدارة المخيم هنا لتكون استراحة، يمضي فيها اللاجئون فترة اشتداد الحر، مجهزة بمكيف صحراوي وجهاز تلفزيون.

الخيمة العامة واسعة، أرضها مفروشة بالحصى، فوق الحصى بساط رقيق من اللباد المصنوع من أقمشة قطنية مندوفة، جهاز التحكم بالتلفاز ثابت في يد امرأة مسنة، تركض بين محطات الأخبار بحثاً عن أي جديد، عن أي خبر يثلج القلوب ويذكي الأمل في النفوس، ليس الا الموت والزوج، القوى العالمية واقفة تراقب المشهد عن بعد، ولا تحرك ساكناً، تترك الفخار السوري يكسر بعضه بعضاً، تتوقف حيناً عند محطة تعرض صور الشهداء فتجهش النساء بالبكاء، تقلب المحطة إلى أخرى تعرض صور المظاهرات فتلهج القلوب بالدعاء، ويترك الأطفال ألعابهم ليشاركوا في المظاهرات عن بعد، يرددون الأغاني والأناشيد ويهتفون للجيش الحر.

أم حليلة تعرف أن هذا كله إعلام، وهو ينطق بصوت مموليه وراسمي خططه، يتظاهر بالحياد، أو بتأييد فئة بينما يوجه دعمه للفئة الأخرى، الحقيقة هناك، في الداخل، على أرض المعارك والمظاهرات، لا بد من اتصال إلى هناك، ولكن كيف؟ الأمر بسيط، ما عليها سوى الذهاب إلى الإدارة، حيث تعرض ابنتها على طبيب المستوصف، وتدخل بعد ذلك قاعة الانترنت.

— أستاذ سعيد كيف ترى حكاية مناف طلاس؟ هل تراها لعبة تبادل الكراسي؟

— إذا كان مناف طلاس أو أي شخص آخر سيشكل عنواناً لمرحلة انتقالية يسقط فيها بشار، ويقام مجلس تأسيسى ودستور جديد قريب من دستور الخمسينات، تعقبه انتخابات شريفة ونزيهة لبرلمان ورئيس دولة بمراقبة دولية فأهلاً به، وعلى غير هذا؟؟ ليلبطوا البحر، أي حل للقضية السورية يمثل مزيجاً من الحالتين اليمنية والمصرية سيوفر على الأقل مئة ألف قتيل إضافي، طبعاً بشرط عدم استخدام العنف والسماح بالتظاهر وإطلاق سراح المعتقلين، وتكوين حالة انتقالية لحين إعداد دستور بإشراف جمعية تأسيسية تشرف عليها المعارضة.

— الخشية أن يتمسك بالكرسي مثل من سبقوه، فيتغير شخص الرئيس ويبقى النظام

ابتسام شاكوش

— صديقتي، اذا استطعنا اقتناص اية فرصة لترحيل النظام وتكوين انتصارات ولو صغيرة، يجب ألا نتردد، أما الثورة، فيجب ألا تنتهي الا بتكوين دولة المواطنة القادرة على الوقوف على قدميها، ويجب تحديد صلاحيات السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ويجاد سلطات قادرة على مراقبة السلطات، أحزاب حقيقية ليست تابعة لأية سلطة، بغير هذا؟؟ نكون قد استبدلنا خازوقنا بخازوق آخر، أكبر منه وأدهى. ما زالت بعض الأمور في معركة الحفة غائبة عن علمها، كتبت على محرك البحث (الحفة) فظهرت أمامها عشرات الصفحات، قرأت منها نثرات، وتوقفت عند صفحة تتحدث عن المعركة الأولى في مخفر الشرطة بقرية كنسبنا، علق عليها أحد الشبان، مستخدما اسما مستعارا، ينوح في بداية التعليق ويكي ساخرا(اهى)..إهى،(إهى)..مات عناصر الشرطة؟؟ لمن سندفع الرشوة بعد اليوم؟ لمن سندفع ضريبة وجودنا في هذه الأرض؟ واذا تم توقيفنا في نفاذة المخفر عقابا على عملنا بقطع الحطب، من حينها سيبعنا السيكارة الواحدة من أردأ أنواع التبغ المحلي بقيمة خمسمائة ليرة؟ اذا ماتت الشرطة من سيسرقنا؟ من سينهنا؟ من سيدلنا؟ أهى...أهى...أهى.....ضحكت بمرارة، نعم هذه مهمة رجال الشرطة أينما وجدت الشرطة، عادت تبحث بقلق عما يروي ظمأها لخبر عن أهلها وبلدها.

تنظر الى يسار الشاشنة، الى لائحة أصدقاء الدردشة، فتجد اسم بهاء، هذا الفتى ما كانت تعيره بالا في أيام السلم، هو ابن لاحدى صديقاتها، لكنه الآن شخصية مهمة، مازال ينتقل سرا بين بيوت الحفة التي غادرها أهلها، يرقب بعين الاعلامي الماهر حركة الجيش ورجال المخابرات، ينقل الأخبار عبر جهاز حاسوب محمول، يحذر من تبقى من أفراد الجيش الحر من تحركات الجيش، وينذر الأهالي من خطر محقق بهم، ينقل الطعام والذخيرة من هنا لهنالك.

— ما أخبار الحفة يا بهاء؟

— الحفة خلت من سكانها، ما بقي فيها سوى بعض العجائز، يطهين الطعام ويوزعنه سرا على الشباب، الحفة صارت معقلا للجنود بكل أشكالهم وجنسياتهم

— هل ترى حولك أحدا من أهلي؟

— نعم، خالتك أم وليد وابنتها، خالك مصطفى وزوجته

— أين ذهب الناس؟

وقع الخطي

— معظمهم أخذوا عائلاتهم واستأجروا لهم بيوتا في مدينة اللاذقية، ومنهم من اتجه الى جبل الأكراد واستوطن البيوت المهجورة هناك، أو أكمل طريق هجرته الى تركيا

— لا حول ولا قوة الا بالله، خوفي على العجائز من غدر الغادرين، في الهجرة الأخيرة قبل هذه جمع المحتلون العجائز في غرفة واحدة وأضرموا فيهم النار، حين عاد جدي الى قريته وجد في تلك الغرفة بقايا عظام متفحمة، ودهنا سال من أجسادهم في ساقية تمتد أمثارا على التراب

خرج بهاء من المحادثة، بلا انذار خرج له عنده، بل أعذاره، ربما انقطع التيار الكهربائي، أو انقطع الاتصال، وربما...؟ ربما هوجم في مأمته فصادر عناصر المخابرات جهازه المحمول وأدواته واقتادوه الى أقبية التعذيب، توقفت وراحت تدعو الله بحرارة الرجاء أن يحمي بهاء من أعينهم ومن إجرامهم، التفتت مرة أخرى الى لائحة الدردشة، ما زالت النقطة الخضراء تضيء بجانب اسم الاستاذ سعيد، عادت اليه مهاجمة:

— أين المعارضة العلوية؟ أين الشباب العلوي المثقف؟ نحن لا نجدنا بين أوساط الجيش الحر، يجب أن تظهروا حقيقة مواقفكم قبل انتهاء الثورة وقبل سقوط النظام، لئلا نخرج من الثورة الى انتقام هو أسوأ أشكال الحرب الأهلية.

— المعارضة العلوية لا توجد ضمن تشكيل ديني أو مذهبي، هم موزعون ضمن قوى عديدة لكنهم لا يتكلمون باسم الطائفة، بل يتكلمون باسم الوطن أو بأسماء أحزابهم، منهم مع رياض الترك ومنهم مع رابطة العمل الشيوعي، وآخرون في المجلس الوطني.

— على كل حال هم قلة، يعدون على الأصابع، ليتهم يظهرون باسم الطائفة من أجل سحب خيط العداوة الطائفية قبل وقوع المحذور، لماذا يكره المعارضون العلويون - عدا وحيد صقر- التصريح بانتماهم الطائفي؟

— لأن العقاب يكون عليهم وعلى أسرهم من قبل النظام أكبر، والمطلوب من الثورة ببساطة دولة مواطنة لا دولة محاصصة طائفية مثل لبنان أو العراق، في سوريا الآن طائفتان، طائفة الحرية، وطائفة الاستبداد، في كل منهما أناس ينتمون لمختلف المنابت الدينية والعرقية ولا نحب أن نخدم بشار الأسد بالاعلان أننا ذاهبون الى حرب طائفية.

ابتسام شاكوش

— لكننا ذاهبون اليها فعلا، أنت تعلم أنني حاولت تأجيل اشتعالها قبل خروجي من بيتي، لكن ابن الشيخ فضل غزال لم يستجب، أنت تعلم وكل من في سوريا يعلم ما تعنيه أسرة الشيخ فضل غزال بالنسبة للنظام، قال لي بأن لا نفوذ له على قرية بيت الشكوشي، وهو يعلم باني أعلم أنه يكذب، لكنه أشعل شرارة الطائفية عامدا.

— منذ أيام اعتقلت فتاة علوية اسمها كفاح علي ديب، هي شابة موهوبة، نالت جائزة الشارقة في قصص الأطفال، هم دائما يعتقلون الأفكار والمواهب، يريدون أغناما تمشي في القطيع، لا يريدون رؤوسا مرفوعة، لأنها تؤذي طغيانهم، لسوء الحظ وقع طلاب الحرية والكرامة بين أيدي (الشيبيحة واللبّيحة) انظري حالتي، كنت شابا صغيرا حين زجوا بي السجن، هل كنت أشكل خطرا على سيادته؟ أم أنني لست علويا مثله؟ الظلم والطغيان لا دين ولا طائفة لهما، وحين يبدأ الظالم بطغيانه يبدأ بأهل بيته، البعثيون تحولوا الى أدوات، والنظام ضم تحت إبطه كل الانتهازين من الشيخ البوطي الى الشيخ فضل غزال، وخالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي، أحزاب الجبهة المفترض أنها معارضة، وكل من لم يسبح بحمده كان مصيره السجن أو المضايقة والمحاربة في لقمة العيش، وتسابق الكثيرون لإعلان الولاء عن غير قناعة، بل بالغوا بولائهم وراحوا يهتفون له، تصوري!! حتى السجناء في معتقلاتهم يجبرون على الهتاف بحياته، إنها إحدى المفارقات الفظيعة.

عادت للدق على وتر الطائفية، الأمر واضح لا يحتاج دليلا، كل شبان القرى العلوية المحيطة بالحفة انتظموا في قطعان الشبيحة وراحوا يعيشون نهبا وتقتيلا بأهل القرى السنية، وذلك الشيخ الذي رفض التدخل لإفراج عن ابن عمها زاد الطين بللا، في ظروف تتطلب منه العقلانية والوعي، كان رده رد يائس.

— نعم، إن لسلوك ابن الشيخ فضل غزال وأمثاله دور كبير في إشعال الفتنة الطائفية، ولا أخفيك أن كآبة حادة أصابنتي بعدما فعلوا فعلهم بقريتكم وغيرها من القرى، وعندما رأيت بعيني جثة تنهشها الكلاب في أحد شوارع دمشق، بعد قصف بالصواريخ على ذلك الشارع، وعندما حدثني أحد أبناء عين تروما من ريف دمشق، بأن الكلاب الشاردة صارت كالضباع لكثرة ما أكلت من اللحوم البشرية.

— لكن مصير ابن عمي ميسرة ما زال مجهولا، بل أضفوا إليه أباه وأخاه وابن عم آخر لنا، هل يريدون تحويل سوريا كلها الى معتقل واحد؟ أما كانت منذ بداية حكمهم سجننا كبيرا؟

— آمل أن تتمكن من طي صفحة من أبتشع الصفحات التي شهدتها بلادنا في تاريخها

وقع الخطى

— إنهم يقطعون أيدي وأرجل سوريا ويكفون فمها، بل يقتلوننا بقدر ما يستطيعون، سيدفع الجيل القادم من أبنائنا ثمن حماقات ارتكبتها المتوحشون، هؤلاء الأطفال الذين شاهدوا بأعينهم العنف في أفسى مظاهره، لن ينسوه، لا يمكنه نسيانه.

الأطفال...لن ينسوا، تذكرت أطفالها، غادرت كرسيتها وراحت تتفقدهما، كانت حليلة كمثلها يوم أمس، نائمة في أرجوحتها، وحمزة يرفس بيديه ورجليه الهواء مناغيا في القاعة المكيفة، النهار يدنو من نهايته، والشمس ترتفع في جهة الغرب مودعة المخيم، معتذرة عما سببته أشعتها الحارة أثناء النهار لسكانه من الضيق، حملت الصبي على حضنها، وكيس الدواء بيدها، أيقظت ابنتها وسارعت في الطريق الى خيمتها، العمال الأتراك بلباسهم الموحد، المشابه لملابس الأطباء في غرف العمليات يدفعون عربات الطعام أمامهم منتشرين بين الأحياء يوزعون وجبة العشاء، أخذت حصتها، أودعتها خيمتها، واتجهت الى الحمامات العامة مع طفليها، وقفت تنظر دورها، واشتركت في حديث مع النساء هناك.

كل يوم يرفد المخيم بعائلات جديدة، نازحة من مدنها وقراها، كل العائلات قد تركت وراءها في ارض الوطن شهيدا أو أسيرا أو بيتا مقصوفا، أو أموال سُرقت، الكل في المصيبة سواء، كانت واقفة تحمل ابنها، وتقف ابنتها قربها، ضاقت البنية من الزحام والانتظار، ضاقت من الشكوى، راحت تتقافز في مكانها، وتعبث بقدم أخيها مرردة أغنية الجدة أم علي:

لا تشكي لي أبكي لك

وعيونى مليانة دموع

أنت ولادك جوعانين؟

ولادى أنا ماتوا من الجوع

احتضنتها إحدى العجائز وقبلت رأسها، هذه الأغنية تعرفها كل عجائز جبل صهيون وجبل الأكراد، بكت العجوز لذكري الأغنية التي كانت أمها تترنم بها في خلواتها، وبكت معها بعض النساء، أفسحن المجال لأم حليلة فغسلت ولديها وعادت لخيمتها.

قبل وصولها الى الباب بخطوات لاحظت أن بابها مفتوحا، تساءلت في نفسها ان كانت قد نسيت إغلاقه، لكنها متأكدة أنها أغلقتهم، تقدمت بخطوات وجلت، أدخلت ابنتها قبلها بخطوة ولحقت بها، فوجدت

ابتسام شاكوش

جارها وابن قريتها، الأستاذ طارق، واقفا يمشط شعره ولحيته بمشطها، أمام مرآتها التي ثبتتها على عمود الخيمة، طارق رجل خمسيني، يعمل معلما في المدرسة، أصيب بكتفه في معركة الحفة فجاء يمضي فترة نقاهته في المخيم مع أسرته، هو شخص محترم، لا يرتاب بسلوكه أحد، لا شك أنه أخطأ فدخل خيمتها يحسبها خيمته، فالخيام والأدوات والأثاث، نسخ متطابقة في كل الخيام، التفت إليها الرجل بدهشة فلم ترد لإحراجهم، بل بادرت به بالترحيب

— أهلا وسهلا بك يا أستاذ

— بل أهلا بك أنت، ماذا تريدين؟ أجابها غاضبا مستنكرا

— أنت في خيمتي

— بل أنت في خيمتي، قالها بحدة وغضب

— ما رقم خيمتك؟

— واحد وتسعون

— خيمتي اثنان وتسعون، لا شك أنك أخطأت، انظر... رقم الخيمة مكتوب بالخط الأحمر العريض على واجهتها.

سقط المشط من يده على الأرض لشدة ذهوله، سارع بالاعتذار، وخرج يصارع خجله، هدأت خاطره، وودعته بدعوات صالحات، راجية الله أن يخلص الجميع من هذه الخيام المقيتة، ويعيدهم الى بيوتهم بسلام وأمان.

كيف لامرأة مثلها أن تنام؟ بعد نوم ولديها أطفأت نور خيمتها واستلقت على فراشها، لتعيد التفكير في مجريات ذلك اليوم، في المستوصف التقت الشرطي الذي تحدثت اليها في ليلتها الأولى بالمخيم، سألتها عن حالها فشكت له مخاوفها من صوت خطوات ثقيلة تطوف بخيمتها ليلا، طمأنها بقوله : نحن استقبلناكم في بلادنا لأنكم مسلمون، اذا لم يكن أخي الشقيق مسلما فأنا أبرأ منه، ما تسمعينه في الليل هو صوت حراسنا، يطوفون بين الخيام لحفظ الأمان، نحن نسهر لتناموا، نتعب لتراحووا، كوني في أمان وثقي بنا، واستعيني بالله ليفرح عنكم هذا البلاء العظيم.

كانت ترى في عينيه الصدق، وفي قسماته لهفة حقيقية وتعاطفا لا ريب فيه، بعد ذلك ما عاد يخيفها وقع الخطى الثقيلة حول خيمتها، لكنها عاتبت نفسها اذ أخذها الحديث مع الأستاذ سعيد على النت

وقع الخطي

فشغلها عن البحث في مواقع الأخبار، ما أصدق أقواله، لكن مكوته أمانة في دمشق وهي مشردة في بلاد غربية اللسان، في بيئة صحراوية بعيدة عن جو الساحل الدائم الاخضرار والاعتدال، يثير حفيظتها، لا شك أنه محمي بانتمائته الطائفي، برغم ما قاله لها منذ مدة ليست بالقصيرة.

— ما الذي يريد هؤلاء؟

— هم لا يريدون لشعبنا أن يفهم معنى الكرامة، لأنهم يقدسون الحذاء العسكري، أما رأيت كيف يقيمون له التماثيل؟ هم يريدون قطيعا يطيع ولا يناقش، ونحن نريد بلادا تكون لنا وطنا، لا نريد مزرعة نعيش فيها عبدا.

في أي ميزان يوزن هذا الكلام؟ من يبيعه ومن يشتريه؟ سعيد هذا فرد، يصرخ بصوت مكتوم، خشية أن يسمعه أحد فتكون عقوبة أكبر من عقوبة أي شخص من خارج الطائفة، هو صوت العقل، الذي كتمته أصوات الرصاص والصورايخ، تركت محادثة سعيد وراحت تبحث في قائمة الأصدقاء على صفحة فيسبوك، لقد أضافت لقائمتها العشرات، بل المئات، ممن تعرف ومن لا تعرف من أهل الحفة، لعلها تجد عند أحدهم خبرا يتلج فؤادها.

المخيم يضم خمسة آلاف خيمة، خمسة آلاف أسرة، لكل أسرة منها ألف حكاية، تلفتت أم حليلة حولها فوجدت نفسها منفصلة عن واقعهم، غارقة في بحار الفيسبوك، بينما استطاعت ابنتها الصغيرة إيجاد فريق من الصديقات، تلعب معهن، تقص عليهن الحكايات، وتستمع لحكاياتهن، الخيام في الأرض القاحلة تغير شكلها، بعدما عمد السكان الى زرع محيطها بالخضار والزهور، بعض الخيام اكتست بخضرة البقطين بشكل كامل، وتنورت حولها زهيرات الباذنجان والكوسا والبنودرة، وانشغلت النساء بما هو أهم من الثرثرة واجترار الماضي والتأسف على بيوت هدمت أو نهبت، الحياة مستمرة بشكل قوي، شعب لا يمكن قهره، فهنا عرس وهناك حالة ولادة، عافت قاعة الانترنت، ما عادت ترتادها الا لماما، انشغلت بما انشغل الناس به من حولها، عزت الأرض حول خيمتها واستعارت بعض البذور والفسائل من جيرانها، وساعدتها ابنتها في تحويل محيط الخيمة الى بستان.

رسالة عالقة في يريدها بالفيسبوك انتبهت اليها بعد أيام من الغياب، أرسلها هشام، وهو أحد رجال الحفة، الساكنين في السعودية، يريدها مساعدة أخيه الذي أصيب أثناء المعارك فتحطم فكه السفلي بالكامل، هو راقد في إحدى مستشفيات أنطاكيا، وحيدا بلا مرافق ولا معين، يحتاج نقودا لشراء الأدوية،

ابتسام شاكوش

يحتاج ملابس، وهو لا يستطيع إرسال المال لأخيه لأن الجريح خرج من ساحة المعركة لا يحمل جواز سفر، ولا يستطيع الكلام، لكنه يستطيع التواصل عبر الانترنت، كتب لها عنوان أخيه.

بسرعة البرق ردت على رسالة هشام ودخلت على صفحة الجريح، أرسلت له طلب صداقة ورسالة تخبره فيها أنها من طرف أخيه هشام، سألته عن يعرفهم من جرحى الحقة، سألته عن زوجها، فأجابها بأنه التقى مع أسامة، ومصطفى وعبد الستار، وأن يحيى مكث بينهم أياما قليلة ثم عاد الى الجبهة بعدما انتزعت الشظايا من جسده، وأنه ما زال يتواصل معه عبر الهاتف، الأمر ما عاد يحتمل التأجيل، أخذت ولديها وطارت لتزف البشرى الى أم حسن.

في الصباح، سلمت خيمتها لإدارة المخيم، كما فعلت أم حسن، وزعت ثيابها وثياب أولادها وما اقتنته من أشياء على جيرانها، ودعت الجميع وركبت الحافلة مع أم حسن وأسررتها متجهة الى انطاكيا، وقبل ركوبها، اشترت بطاقة هاتف

— ألو . يحيى

— أما زلتم أحياء؟ الحمد لله... أين أنتم؟

— نحن في الطريق الى انطاكيا، أين أنت؟

— انا بانتظاركم، لا تيأسي يا أم حليلة، سننتصر ما دامت قلوبنا مع الله

غلبتها عبراتها فلم تستطع اكمال محادثتها، أعطت الهاتف لابنتها

— بابا... اشتقت لك... لقد كبرت يا بابا... وصرت أساعد أمي في أعمال البيت، وألاعب أخي،

زرعنا وردا حول خيمتنا يا بابا، الله محيي الجيش الحر، أبي هل سنعود الى قريتنا؟ هل قتل علي بدور؟

هل جلست فرنسا عن بلادنا؟ هل ستبني لنا بيتا جديدا كما فعل والد جدتي أم علي؟؟

وكمثل زوجته، خنقته العبرة فأغلق الهاتف، وظلت الحافلة تسيير بالأسرتين من أمل الى أمل....

والأطفال يهتفون فرحين: يا جيش الحر الله يحميك

rıldı mı. Nesibe ninemin babasının yaptığı gibi biz de yeni bir ev yapacak mıyız?

Hanımı gibi Yahya da gözyaşlarına boğuldu ve telefonu kapattı. Otobüs içindeki iki aile ile birlikte umutlan umuda yoluna devam etti. Çocuklar neşeyle haykırdılar. Ey özgür ordu! Allah seni korusun...

aralarında yaralı halde kaldığını, bedenindeki şarapnel-ler çıkarıldıktan sonra cepheye döndüğünü, ancak kendisiyle halen daha telefonla konuştuğunu söyledi. Konuyu daha fazla ertelemeye gelmezdi. Çocuklarını aldı ve hemen Hacer hanıma müjdeyi vermeye gitti.

Sabah olduğunda Hacer hanım gibi o da çadırını yönetime teslim etti. Kendisinin ve çocuklarının elbiseleri ile komşularının verdiği eşyaları toplayarak herkesle vedalaştı ve Hacer hanım ile birlikte otobüse bindi. Antakya'ya gidiyordu. Tabi otobüse binmeden önce bir de telefon kartı satın aldı.

– Alo Yahya!..

– Allah'ım sana binlerce şükür! Halen sağ mısınız? Neredesiniz?

– Antakya'ya doğru gidiyoruz. Sen neredesin?

– Tamam ben sizi bekliyorum. Hatice'm, sakın ümitsizliğe düşme. Kalbimiz Allah ile olduğu sürece zafere eren bir olacağız.

Hatice gözyaşlarına boğuldu ve daha fazla konuşmadı. Telefonu kızına verdi.

– Baba... Seni çok özledim.. Ben büyüdüm biliyor musun? Artık ev işlerinde anneme yardım ediyorum. Kardeşimle oynuyorum. Çadırın etrafına güller diktik baba. Allah özgür orduyu korusun. Evimize dönecek miyiz baba? Ali Bedur öldürüldü mü?.. Fransızlar ülkemizden çıka-

ediyordu ve halkın kendine küsme hakkı yoktu. Artık düğünler de doğumlar da burada olacaktı. Artık internet salonuna da daha idareli gidip gelmeye başlamıştı. O da etrafındaki kadınların meşguliyetleri ile meşgul oluyordu. Çadırın etrafındaki toprağı belledi. Komşularından tohum ve fide ödünç aldı. Çadırın etrafını bir bahçeye çevirirken kızı da ona yardım etti.

Facebook adresine gelen bir mesajı ancak birkaç gün sonra internete girdiğinde fark edebilmişti. Mesajı ona El Haffe ahalisinden olan ve şu an Suudi Arabistan'da yaşayan Hişam adlı birisi göndermişti. Çatışmalar esnasında yaralanan ve alt çenesi tamamen kopan kardeşi için ondan yardım istiyordu. Kardeşi Antakya'daki hastanelerden birinde yatıyormuş. Tek başınaymış ve yanında refakatçi veya bir yardımcı bulunmuyormuş. İlaç alabilmek için paraya ve elbiseye ihtiyacı varmış. Çatışma alanından yaralı olarak çıkmış, pasaportu yanında olmadığından kendisi para gönderemiyormuş. Yine konuşamadığından kendisiyle sadece internet üzerinden iletişim kurabiliyormuş. Hişam kardeşinin adresini de Hatice'ye yazmış.

Şimşek hızıyla Hişam'ın mesajına yanıt verdi ve yaralı kardeşinin sayfasına girdi. Arkadaşlık isteği gönderdi ve abisi Hişam tarafından yönlendirildiğini söyleyen bir mesaj attı. El Haffe ahalisinden yaralananları ve kocasını sordu. Yaralı genç El Haffe'den Usame, Mustafa ve Abdüssettar ile karşılaştığını, Yahya'nın da birkaç gün

Biz ise bizim için vatan olacak bir ülke istiyoruz. Köle olarak yaşayacağımız tarlalar değil...

Bu sözler hangi kantarda tartılabilirdi ki? Bu sözleri kim alabilir, kim satabilirdi? Sait bey tek bir kişiydi. Bir kişi bile duysa cezası diğer mezhepten olanların cezalarında daha fazla olacağı korkusundan sessiz bir çığlıkla haykırıyordu. Zaten o da kurşun ve bomba seslerinin susturduğu aklın haykırışı idi. Sait beyle konuşmayı bırakıp facebook sayfasından arkadaş listesinde El Hafde'den tanıdığı tanımadığı herkesi aramaya başladı. Arkadaş listesine onlarca hatta yüzlerce kişiyi eklemişti. Belki içlerinden birinden gönlünü serinletecek bir haber alır diye...

Çadır kentte beş bin çadır vardı, yani beş bin aile.. Her bir ailede binlerce hikaye. Hatice etrafına bakındığında kendisini gerçek hayattan kopmuş, facebook denizine dalmış halde buldu. Bu sırada küçük Halime de kendisine birkaç arkadaş bulmuş onlarla oynuyor, masallar anlatıyor ve anlattıkları masalları dinliyordu. Ahali çadırların etrafına sebze ve çiçek ekmeye başladıktan sonra çorak arazideki çadır kentin şekli değişmişti. Bazı çadırlar tamamen balkabağı tevekleriyle örtülü hale gelmişti. Çadırların etrafı patlıcan, dolma biber ve domates gibi sebzelerin çiçekleri ile adeta aydınlanmıştı. Kadınlar gevezelik etme, geçmişi çekiştirme, yıkılan evlere ve yağmalanan mallara üzülmekten daha önemli şeylerle meşgul olmaya başladılar. Hayat tüm zorluğuyla devam

“Biz sizi müslüman olduğunuz için ÷lkemize kabul ettik. Öz kardeşimiz bile müslüman olmasa onlarla böyle ilgilenmeyiz. Geceleri duyduğunuz sesler bekçilerimizin sesleridir. Güvenliğı sağlamak için çadırların arasında dolaşıyorlar. Siz uyuyasınız diye biz nöbet bekliyoruz. Siz rahat edin diye bir yoruluyoruz. İçiniz rahat olsun, bize güvenin. Bu büyük beladan sizi kurtarması için Allah’a dua edin.” diyerek içini rahatlatmıştı.

Hatice polisin gözlerinde sadakati görüyor, mimiklerinden doğru söylediğini ve şüpheye taşımayan bir şefkati hissediyordu. Artık çadırın etrafında yavaş yavaş dolaşan ayak seslerinden korkmadı. Ama Sait beyle konuşmaya dalıp haber sitelerini dolaşmaya vakit bulamadığından kendi kendine kızdı. Sait beyin sözleri ne kadar da doğruydı. Ama Sait bey Şam’da güvende yaşıırken kendisi dilini bilmediğı bir ÷lkede sürgündeydi. Daima yeşil ve ılıman sahil havasından uzaklarda, çöl ikliminin ortasında... Hatırlamak bile onu heyecanlandırıyor. Pek de kısa sayılmayan bir süre önce aksini söylemesine rağmen, hiç şüphe yok ki Sait bey mezhebi nedeniyle güvendeydi.

— Bunlar ne istiyorlar?

— Bunlar halkımızın onur kelimesinin manasını anlamamasını istiyorlar. Halk asker çizmesine adeta tapıyor. Nasıl her yere heykellerini yapıyorlar görmüyor musun? Onlar diklenmeyen ve hep itaat eden bir sürü istiyorlar.

lar, eşyalar, malzemeler bütün çadırlarda hepsi aynıydı. Adam şaşkınlıkla ona baktı. Hatice zorluk çıkartmak istemedi ve hemen selamladı.

– Merhaba hocam..

– Asıl sana merhaba! Ne oldu, ne istiyorsun? -Kızgın ve tersleyerek cevap vermişti.-

– Benim çadırımdasınız.

– Asıl sen benim çadırımdasın. -Sinirlenmiş ve hidetliydi.-

– Çadır numaranız ne?

– Doksan bir.

– Benimki doksan iki bakın.. Galiba çadırları karıştırdınız. -Çadır numarası hemen önünde kırmızı ve büyükçe bir yazıyla yazılıydı.-

Adamın tarağı şaşkınlıktan elinden düştü. Hemen özür diledi ve utanca boğularak çadırdan çıktı. Hatice adamın içini rahatlattı ve hayır dualarla uğurladı. Allah'tan herkesi bu menfur çadır kentten kurtarması, emniyet ve selamete evlerine döndürmesi için dua etti.

– Böyle bir kadın nasıl uyuyabilirdi ki? Çocukları uyuduktan sonra çadırın ışığını söndürdü ve yatağına uzandı. Gün içinde olanları düşünmeye başladı. Çadır kentteki ilk gününde konuştuğu polisle revirin orada karşılaşmıştı. Polis ona durumunu sormuş, oda geceleri çadırın etrafında dolaşan ayak seslerinden şikayet etmişti. Polis

nin ayakları ile oynuyor bir yandan Nesibe nineden öğrendiği türküleri mırıldanıyordu.

Şikayetlenme bana ağlarım,
Gözlerim yaşlarla doldu,
Sen ve çocukların açmış, o ne ki?
Benim çocuklarım açlıktan öldü!..

Yaşlı kadınlardan biri Halime'yi kucakladı ve başından öptü. Siyon dağı ve Ektrat dağındaki yaşlı kadınların hepsi bu türküyü bilirlerdi. Yaşlı kadın boş kaldığı zamanlarda annesinin mırıldandığı türküleri hatırlayıp ağlamaya başladı. Etraftaki bazı kadınlar da ona eşlik ettiler. Hatice'ye yolu açtılar, çocuklarını yıkadı ve çadırına döndü.

Hatice kapıya varmadan birkaç adım önce kapının açık olduğunu fark etti. Acaba kapıyı açık mı unuttum diye kendi kendine sordu, ama kapattığından emindi. Endişe ile birkaç adım attıktan sonra, önce kızı ardından kendi çadıra girdiler. Birde baktı ki aynı köyden komşuları Tarık hoca çadırında ayakta durmuş, çadırın direğine yerleştirdiği aynanın önünde tarağıyla, saçını ve sakalını tarıyor. Tarık hoca okulda öğretmenlik yapan ellili yaşlarda bir adamdı. El Haffe çatışmalarında omzundan yaralanmış, iyileşme sürecini çadır kentte ailesiyle birlikte geçiriyordu. Muhterem bir insandı ve kimseye bir kötülüğü dokunmazdı. Kendi çadırı zannederek yanlışlıkla Hatice'nin çadırına girdiğinde şüphe yoktu. Çadır-

Çocuklar... Asla unutmazlardı. Hatice çocuklarını hatırladı. Sandalyeden kalkıp onları aramaya başladı. Halime aynı dünkü gibi salıncağında uyuyordu. Hamza ise klimalı salonda cıvıdayarak elleri ve ayakları ile havayı tekmeliyordu. Gün batmaya yaklaşmış, güneş battığı yöne doğru rükua eğilmiş, çadır kente veda ediyor, sanki gün boyunca tutuşturduğu ateş ve ahaliye verdiği sıkıntı dolayı özür diliyordu. Eline ilaç torbasını, kucağına da bebeğini aldı. Kızını uyandırıp çadırına doğru yola koyuldu. Ameliyat odalarındaki doktor kıyafetlerine benzeyen tek tip kıyafet giymiş Türk işçiler çadır kentin bölümleri arasında yemek arabalarını ittiriyorlar ve akşam yemeğini dağıtıyorlardı. Payına düşen yemeği alıp çadırına bıraktıktan sonra çocukları ile birlikte genel lavabolara yöneldi. Bir yandan diğer kadınlarla konuşmaya katılırken sırasını beklemeye başladı.

Çadır kente her gün köylerinden ya şehirlerinden göç etmek zorunda kalan birçok yeni aile akın ediyordu. Bu ailelerin her biri vatan topraklarında ya bir şehit veya yaralı, ya da yıkık bir ev veya çalınan malları bırakmışlardı. Herkesin başına gelen musibet aynıydı. Hatice kucağında oğlu, yanında kızı bekliyordu. Lavabolarda çok fazla bekleyen mülteci vardı ve izdiham olduğundan ortam çok dardı. Halime kalabalıktan şikayetlenmeye ve durduğu yerde zıplamaya başladı. Bir yandan kardeşi-

da bulandırmış, akilane ve bilinçli davranması gereken yerde son derece bahtsız bir şekilde cevap vermişti.

— Evet, şeyh Fadıl Gazal'ın oğlu ve onun gibilerinin mezhepçilik fitnesinin tutuşturulmasında büyük bir rolü var. Sen de biliyorsun ki sizin köye ve diğer köylere yaptıklarını öğrendiğimde yüreğim parçalandı. Tabi bir de Şam sokaklarından birinde köpeklerin parçaladığı cansız bir bedeni gördükten sonra. Hemen öncesinde cadde füzelerle bombardıman edilmişti. Şam kırsalındaki Ayn Torma'dan bir genç bana insan eti yiyen köpeklerin sırtlan gibi vahşileştiklerini söyledi.

— Amcaoğlum Meysere'nin akıbeti halen daha meçhul. Üstüne üstlük bir de ona babası, kardeşi ve amcaoğlu katıldı. Tüm Suriye'yi bir hapishaneye çevirmeye mi çalışıyorlar? Zaten onlar yönetime geçtiğinden biri Suriye büyük bir hapisane değil mi?

— Umarım bu sayfa ülke tarihimizin gördüğü en kara sayfalardan biri olarak dürülüp gider...

— Onlar Suriye'nin ellerini ve ayaklarını kesiyor, ağzını bağlıyorlar. Güçlerinin yettiği herkesi öldürüyorlar. Korkarım ki evlatlarımızdan gelecek nesiller bu vahşilerin işlediği ahmaklıkların bedelini ödeyecekler. Bu çocuklar her türlü işkencenin en kötüsünü gördüler. Elbette bunları unutmayacaklar. Zaten unutmaları da mümkün değil.

nekli insanları ve düşünce sahibi kimseleri tutukluyorlar. Sadece sürüde yürüyen koyunlar istiyorlar. Kalkan başları istemiyorlar. Çünkü bu onların azgınlığını zedeleyiyor. Ne kötü şanstır ki özgürlük ve onur isteyenler şebbiha ve katillerin elleri arasında kaldılar. Bak benim halime, beni hapse attıklarında daha küçük bir gençtim. Onların efendiliğine karşı bir tehdit miydim sanki? Yoksa ben de onlar gibi alevi değil miydim? Zulmün ve azgınlığın ne dini ne de mezhebi var. Zalim zulmetmeye başladığında önce kendi ailesinden başlar. Baasçılar farklı araçlara sarıldılar. Rejim şeyh El Buti, şeyh Fadıl Gazal, komünist partisinin lideri Halid Bektaş ve normalde muhalif olması beklenen diğer cephe partileri gibi bazı fırsatçıları elinin altına aldı. Rejimi takdis etmeyenlerin tamamının akıbeti hapis, işkence veya bir lokma ekmek için savaşmak oldu. Çoğu istemeyerek de olsa bağlılıklarını ilan ettiler, hatta daha da aşırıya gidip rejim lehine ses çıkarmaya başladılar. Baksana hapishanedeki tutuklulara bile Esed'in ömrü uzun olsun diye zorla tezahürat yaptırıyorlar. Tabi bu da korkunç ironilerden biri...

Mezhepçilik tokmağına tekrar vurmaya başlamışlardı. Durum ortada ve delile gerek yok. El Haffe çevresindeki alevi köylerdeki gençler düzenli bir şekilde şebbiha sürülerine katılmış ve sünni köylerini yağmalamaya, katliam yapmaya başlamışlardı. Amcasının oğlunun kurtarılmasına müdahil olmayı reddeden şeyh ise bu çamuru daha

— Her halükarda bunlar çok az ve parmakla sayılacak kadar. Korkulanlar ortaya çıkmadan önce mezhepsel düşmanlık ipini gemlemek için mezhepleri adına konuşmalar ya! Vahit Sakar dışındaki alevi muhalifler niçin mensup oldukları mezhebi açıklamaktan çekiniyorlar.

— Çünkü rejim tarafından onlara ve ailelerine yapılacak eziyetler daha büyük olur da ondan. Devrimden beklenen bir vatandaşlık devleti oluşturması. Yoksa Lübnan veya Irak'ta olduğu gibi mezhepsel paylaşım devleti değil. Suriye'de şu anda iki mezhep var. Biri özgürlük mezhebi diğeri baskı. Bu iki mezhepten her birinde farklı etnik ve dini kökenlere bağlı insanlar bulunmakta. Biz bir mezhep savaşına doğru gittiğimizi ilan ederek Beşar Esed'e hizmet etmek istemiyoruz.

— Ancak fiilen mezhep savaşına doğru gidiyoruz. Bildiğiniz gibi ben evden ayrılmadan önce bu alevin tutuşmasını ertelemeye uğraştım. Ancak şeyh Fadıl Gazal'ın oğlu talebimize cevap vermedi. Suriye'deki herkes gibi siz de şeyh Fadıl Gazal'ın ailesinin rejim katında nasıl bir yere sahip olduğunu siz de biliyorsunuz. Bana Beytüş Şahuki köyünde nüfuzunun olmadığını söyledi. O da ben de yalan söylediğini biliyoruz. Ama o bile bile mezhepçilik kıvılcımını tutuşturdu.

— Birkaç gün önce Kefah Ali Dib isminde bir alevi genç kız tutuklandı. Yetenekli bir genç kızdı. Çocuk hikayeleri hususunda ödül almıştı. Ama onlar daima yete-

atmışlardı. Ninem köye döndüğünde bir odada kömürleşmiş kemik kalıntıları bulmuş. Cesetlerinden dereye akan karartı toprağın üzerinde metrelerce uzamış.

Baha hiç bir şey demeden konuşmadan çıktı. Elbette bir nedeni ya da birçok nedeni vardı. Belki elektrik kesilmiş ya da internet kopmuştu. Ya da belki de?... Belki de muhaberatçılar saklandığı yere saldırmışlar, tabletine ve cihazlarına el koyup onu işkenceye almışlardı. Hatice bir an duraksadı ve Baha'yı muhaberatçıların gözlerinden ve işkencelerinden koruması için Allah'a içtenlikle dua etmeye başladı. Sohbet penceresine bir kez daha baktı. Sait beyin yanında halen daha yeşil nokta yanıyor. Hücum edercesine Sait bey'e döndü.

— Peki alevi muhalifler nerede? Nerede o kültürlü alevi gençler? Özgür ordunun arasında onları neden göremiyoruz? Devrim bitmeden ve rejim düşmeden önce gerçek konumunuzu göstermeniz gerekir ki, devrimden en kötü iç savaş şekillerinden biri olan intikam duygusuna uyanmayalım.

— Alevi muhalifler dini veya mezhepsel bir oluşum şeklinde bulunmuyorlar. Birkaç farklı kuvvet içerisinde dağılmış durumdadır. Ancak onlar da mezhep adına konuşmuyorlar. Aksine vatan adına ya da kendi partileri adına konuşuyorlar. Kimisi Riyad Et Türk, kimisi ise komünist çalışma derneği ile birlikte. Bazıları ise millet meclisinde..

Ekranın sol kısmında sohbet arkadaşları listesine baktığında Baha ismini gördü. Bu genç barış günlerinde pek de itibara almadığı biriydi. Arkadaşlarından birinin oğlu oluyordu. Ancak şu an Hatice için değerli bir kimseydi. El Haffe'de insanların terk ettiği evlere halen daha gizli-den gidiyor, usta gözlerle muhaberat elemanlarının ve rejim ordusunun hareketlerini gözetliyor ve olanları tablet bilgisayardan aktarıyordu. Böylece özgür ordu askerlerini rejim ordusunun hareketlerine karşı uyarıyor, ahaliyi kendilerini tehdit eden tehlikelere karşı uyandırıyor, oradan oraya yiyecek ve zahire taşıyordu.

— El Haffe'den haberler nasıl Baha?

— El Haffe'de kimse kalmadı, sadece bazı yaşlılar var. Yemek yapıp gizlice gençlere dağıtıyorlar. El Haffe farklı şekil ve uyruklardan askerler için bir açık hava hapis-hanesine döndü.

— Etrafında ailemden kimse var mı?

— Evet, teyzen Velide, kızı, amcan Mustafa ve eşi.

— Diğerleri nereye gitti?

— Çoğu ailelerini alıp Lazkiye kentinde ev kiraladılar. Kimisi Cebeli Ektrat'a gitti ve oradaki terkedilmiş evlere yerleşti. Bazısı da Türkiye'ye göç etti.

— La havle vela kuvvete illa billah. Gidenler gitti de ben yaşlılar için korkuyorum. Daha önceki göçlerde iş-galciler yaşlıları bir odada toplamışlar ve üzerlerine ateş

ruluncaya kadar son bulmamalı. Aynı şekilde yürütme yasama ve yargı makamlarının yetkileri belirlenmeli ve bu makamları denetleyebilen bir yetkili mercii oluşturulmalı. Partiler rejime bağlı göstermelik değil de, gerçek partiler olmalı. Eğer böyle olmazsa elimizdeki düzeni ondan daha kötü ve daha feci bir başka düzenle değiştirmiş oluruz.

Hatice El Haffe savaşı ile ilgili bazı şeyleri halen daha bilmiyordu. Arama motoruna El Haffe yazdığında karşısına onlarca sayfa çıktı. İvır zıvır bir şeyler okuduktan sonra Kensibba köyündeki polis merkezinde gerçekleşen ilk çatışmadan bahseden bir sayfada durdu. Gençlerden biri müstear isim kullanarak paylaşım yapmış, paylaşımının başında alay ederek ağlıyor ve şöyle ağıt yakıyordu; “Vah vah vah!... Polisler mi ölmüş? Bundan sonra kime rüşvet vereceğiz? Bu topraklarda yaşamımızın vergisini kime ödeyeceğiz? Odun topladığımızdan dolayı cezalandırılmak için polis nezaretine atıldığımızda en kötü yerli markadan bir dal sigarayı beş yüz liraya bize kim satacak? Polisler öldüyse artık bizden kim çalacak? Kim yağmalayacak? Kim alçak düşürecek? Vah vah vah...” Hatice bu paylaşım içli içli güldü. Gerçekten de nerede olursa olsun polislerin yaptığı buydu. En ufak bir haberine bile susadığı ailesi ve kasabasının haberlerini telaşla aramaya devam etti.

revirdeki doktora gösterecek, sonra internet salonunda girecekti.

— Sait bey! Menaf Tlas olayını nasıl görüyorsunuz? Sizce de bir sandalye değişim oyunundan ibaret değil mi?

— Eğer Menaf Tlas veya bir başka şahıs geçiş aşamasını temsil eden bir oluşum gösterse, Beşşar düşer, kuruluş meclisi ve ellili yılların anayasasına yakın yeni bir anayasa oluşturulur. Peşinden onurlu ve nezih bir parlamento seçimi yapılır da, uluslararası gözetim altında bir başkan seçilirse hoş geldi sefa geldi. Ama bunun dışında bir şey olursa?... Deniz çoktan karıştı demektir. Suriye sorununun Yemen ve Mısır karışımı bir şekilde çözülmesi ise en azından yüz bin kişinin daha ölümü anlamına geliyor. Tabi şiddet uygulanmaması, gösterilere izin verilmesi, tutukluların serbest bırakılması ve muhaliflerin gözetimi altındaki kuruluş oluşumunun eliyle yeni bir anayasa oluşturulana kadar geçiş döneminin sağlanması koşuluyla.

— Korkum onun da sandalyeye öncekiler gibi yapışıp kalması ve başkanın değişmesine rağmen rejimin aynı kalması.

— Bacım, rejimi göndermek ve zaferler elde etmek için küçük de olsa herhangi bir fırsat yakalama imkanı bulduğumuzda bunu reddetmememiz gerekiyor. Devrim ise kendi ayaklarının üzerinde durabilen bir sivil devlet ku-

ğın şiddetli olduğu saatlerde mülteciler meydan kliması ve televizyon bulunan büyük çadıra gelirlerdi.

Genel çadır gayet genişti. Zeminine takıl taşları serilmişti. Taşların üzerine didilmiş pamuk kumaştan yapıma ince bir yaygı serilmişti. Televizyonun kumandası hep yaşlı bir kadının elinde durur, o da haber kanalları arasında gönüllerini soğutacak ve umutlarını filizlendirecek yeni bir haber arar dururdu. Ancak sadece ölüm ve göç haberleri vardı. Uluslararası güçler durmuş, manzarayı uzaktan seyrediyorlar ve hiç bir müdahalede bulunmuyorlardı. Suriye çömleğini birbirini kırması için kendi haline bırakmışlardı. Yaşlı kadın şehitlerin fotoğraflarını gösteren bir haber kanalında durdu. Kadınlar hüngür hüngür ağlamaya başladılar. Gösterilerin fotoğraflarını gösteren bir kanal açıldı. Kalpler dualarla inledi. Çocuklar oynamayı bırakıp uzaktan gösterilere eşlik ettiler, şarkıları ve sloganları tekrarladılar, özgür ordu için sloganlar attılar.

Hatice bunların hepsinin haberlerden ibaret olduğunu, finansörlerinin ve planları çizenlerin ağzından konuştuklarını biliyordu. Tarafsız veya bir tarafı destekliyor görünüyorlardı, ancak asıl destekleri diğer taraf idi. Hakikat böyleydi. İçerde savaşlar ve gösteriler devam ediyordu. Mutlaka bir iletişim kurmak lazımdı, fakat nasıl? İş basitti, sadece yönetime gitmesi gerekiyordu. Önce kızını

yiyeceklerin ne olduğunu ve güzelliklerini anlatarak acılarını ve korkusunu dindirmeye çalışıyordu. Sofrayı hazırlamak için kendisine yardım etmesini istedi. Demir tabaklara peynir, yoğurt ve reçel koydular. Ardından oturup yemek yemeye başladılar. Karşılıklı neşe, umut ve hatıralarla dolu sözlerle söyleştiler. Hatice kızının kalbinden saf bir gülücük koparabilirdi ve bundan dolayı rabbine şükretti. Kalkıp herkesin kullandığı lavabolarda tabakları yıkamaya başladı. Kızı da ona yardım ediyordu. Korkusunu hafifletmek için ona artık büyüdüğünü ve her şeyde annesine yardım etmesi gerektiğini söyledi. Belki böyle üzüntülerini dindirebilirdi.

Gece çadırda yaşanan hüznün geride kalmış ve Halime'den saçılan ve hem çadırın içine hem de dışına yayılan renkli gülümsemelerden korkarak kaçıp gitmişti. Komşu çadırların kız çocukları da çadırın kapısına üşüştüler. Kahırdan kararan yüzlerinde Halime'nin gülücükleri nedeniyle güller açmıştı. Onlar da Halime'nin neşesine katıldılar. Hatice çocukları selamladı. Onları yarıştırmaya ve bilmece sormaya başladı. Her bir soru çadır kentin çorak topraklarında çiçekler açan ve nefreti bile korkutan gülümsemelerle bitiyordu. Güneşin parlıtları kızların alınlarından ter damlalarını sel gibi akıtıyordu. Hatice çadırdan ayrılmayı ve büyük çadıra gitmeyi önerdi. Çadır kent yönetimi burayı istirahat etmeleri için açmıştı. Sıca-

Ezan daha yarıdayken uykuya daldı. Uzun ve derin bir uyku çektikten sonra Hamza'nın ağlamasıyla uyandı. Bu kadar uykuyla yetinmeliydi. Çünkü Hamza'nın altını deęiştirme ve yemek yedirme vakti gelmişti. Güneşin ışıkları çadırın ince kumaşını delecek güçte vuruyordu ve çadırın içini bir tandır fırınına çeviriyordu. Euzü besmele çekti. Uyuyan kızını bırakıp oęlunu banyoya götürdü, yıkadı ve üzerini deęiştirdi. Ardından abdest alıp Halime'nin yanına döndü. Halime yüzüstü yatıyor, ellerini yüzüne kapatmış acı acı ağlıyordu. Ağlaması kahır ve korku yük-lüydü. Annesi çadırın eşiğine adımını attığında öyle bir iç çekti ki neredeyse boęulacaktı. Hatice Hamza'yı abla-sının yanına sessizce bıraktı ve biberonuna süt hazırla-maya koyuldu. Aynı zamanda kafasında da kızını ikna edebileceęi ve çadır kentteki bu yeni hayat tarzına alı-şarak krizi aşmasına yardımcı olacak özür cümleleri ha-zırlıyordu. Hamza'yı uykuya yatırdıktan sonra kaçan sa-bah namazını kaza etti.

Çadır kent ahalisine kahvaltılarını teslim almaları için dışarı çıkmaları duyurusu yapıldı. Hatice kızının ağlama-sını duymazdan geliyordu. Ondan kahvaltıyı çadıra getir-mek için kendisine yardım etmesini istedi. Birer tencere alıp çıktılar ve emzięi ile oynayan bebeęi çadırda bıraktı-lar. Dışarı çıkıp bekleyen dięer erkek kadın herkesle bir-likte sırada beklemeye başladılar. Kendilerine düşen payı aldıktan sonra çadıra döndüler. Hatice kızına aldıkları

rını ovuyor ve sargılarını deęiřtiriyordu. Bu sırada çadırın önünde gidip gelen ayak sesleri daha da arttı. Hatice'nin de kalbindeki telaşı büyüdü. Çocuklarının başına bir şey gelmesinden korkuyordu. Aralarına uzandı ve kollarıyla ikisine de sarılarak sessizce beklemeye başladı.

Bu gece uyku kurnaz bir tilki gibiydi. Korku deęneęi onu kovalıyor, çocuklarını koruma duygusu kapılarından çıkarıyor, ancak o yorgunluk ve bitkinlik pencerelerinden içeri sarkıyordu. Gözlerini bir an kapatsa, onu patlamaların arasında kaldığı veya yıkılmış köyler arasında koşup durduğu rüyalara götürüyor, ardından la havle çekerek uyanıyordu. Birkaç dua edip uykuya dönüyor, ancak bu sefer de kızının inlemeleriyle uyanıyordu. Kızını sakinleştiriyor, sargısını tutuyor ve soğuk suyla ıslattığı bezleri deęiřtiriyordu. Ardından dalgaların çarpıřtığı düşünce denizlerinde yeniden yüzmeye tekrar başlıyordu. řu anda ülkesi aktif bir yanar daę gibiydi. İçinde lavlar kaynıyor, ancak bölgedeki yerel ve uluslararası çıkarların oluşturduğu ağır volkanik bulutlar gerçeęi gizliyordu. Bu sırada halk ise sürgün, mülteci, ölü veya tutuklu, bir toz bulutu gibi etrafa dağılıyordu. Kendisi de işte buradaydı. Etrafi sakinlerini tanımadığı hatta hiç kimseyi tanımadığı çadırlarla sarılıydı. Hacer hanım ve ailesi ile aralarında iki sıra çadır vardı. Her bir çadırda onlarca hikaye... Farklı renklerde kayıplar, yitikler ve kahırlar... Bu sırada uykusuz geçen sancılı gecenin sona erdiğini ilan eden sabah ezanının sesi yükselmeye başladı.

mamıştı. Her mültecinin kendine göre meşgul olduğu işleri vardı. La havle çekti ve çadırına döndü. Kızını suyla pansuman yapıp ayaklarındaki kabarcıklara pudra dökerek tedavi etmeye çalıştı. Sonunda küçük kız zor da olsa uyudu.

Çadırın etrafında ağır ağır dönüp duran ayak sesleri duymaya başladı. Hatice'nin kalbi korkuyla dolmuştu. Böyle gece yarısında ayakta olanlar da kimdi? Niye çadırın etrafında dolaşıyorlardı? Ne istiyorlardı? Dün yaşadıklarından dolayı gözlerine uyku girmeyen mültecilerden miydiler? Yoksa onu ve çadırını gözetleyen hırsızlar mı? İştahlarını kabartacak hiçbir şey yoktu ki neyi çalışsınlar? Bir sünger yatak, birkaç da kap kaçak... Belki de şebbiha idiler. Ona kötülük edip çocuklarını öldürerek kocasından intikam almak istiyorlardı. Kalbine korku saplandı. Suriye'deki herkes gibi kendisinin de iyi bildiği her türlü işkence ve eziyet şekillerini gözlerinde canlandırmaya başladı. Bunlardan bazısı Nesibe ninenin gençliğinde yaşanmış, bazısını ise evlerini terk etmek zorunda kalmadan önce bizzat kendi gözleriyle görmüş veya görenlerin dillerinden işitmişti. Çadırının ışığını söndürdü ve kızının yanına oturarak soluk alıp verişini dinlemeye başladı. Karşılaşabileceği her türlü eziyet şekline içten içe kendisini hazırlıyordu.

Gece yarısını biraz geçmişti. Halime yeniden inlemeye başladı. Annesi hoş sözlerle ve cömert vaatlerle onu sakinleştirmeye çalışıyor, başını ve alnını okşuyordu. Ayakla-

lerinden şehit olanları, tutuklananları veya halen daha savaş alanlarında olup haber alamadıkları kimseleri düşünüyorlardı. El Haffe ve etrafındaki Sünni köyler büyük bir askeri kışlaya dönüşmüştü. Dofil köyü büyük yıkım sonucu yerle bir olmuş, ayakta hiçbir ev kalmamıştı. Diğer köylerin bir kısmı yerle bir edilmiş ayakta kalan evler teröristlerin malları bahanesiyle yağma edilmişti. Şaşkın ve çaresizce düşünmekten başka yapacak bir şey yoktu.

Yatsı namazından sonra Hatice yatağına çocuklarının yanına girdi. Gündüzün yorgunluğuyla ağırlaşan göz kapakları henüz daha uykuyla yüz göz olmadan Halime'nin inlemeleri başlamıştı. Bacaklarındaki iltihapların ağrısını çekiyordu. Annesi sargısına dokunduğunda ateşinin yükseldiğini gördü. Bu zifiri gece vakti onu nereye götürecekti? Çadırın kapısını açtı ve boşluğa doğru bir süre baktı. Rüzgarın etkisiyle sallanan çadır hışırtılarının bozduğu korkunç bir sessizlik hakimdi. Etrafındaki tüm çadırların ışıkları sönmüştü. Revire kadar yanında gelmesi için kimi uyandırabilirdi ki? Hamza'yı kime bırakabilirdi? Keşke Hacer hanımın çadırı yakın olsaydı. Ama onları aralarında demir parmaklıklar ve dikenli teller olan bir başka bölüme yerleştirmişlerdi. Komşularının hepsi diğer vilayetlerdendi. Kimisi İdlip, kimisi Halep, kimisi ise Humus, Hama kırsalı ve Cebeli Ekra'tan gelmişlerdi. Henüz daha hallerini hatırlarını bile sora-

lerini çıkarttığında bacalarının tamamen kabarcıklarla dolu olduğunu gördü. Bunların ormanda çalılıklarının arasında yaptıkları göç yolculuğunda dikenlerden kalan izler olduğunda şüphe yoktu. Uykusuz bir gece geçireceğe benziyordu. Dikenlerin battığı yerlerde çıkan ve her bir kabarcığın etrafını tamamen saran iltihaplar nedeniyle kızının ateşi muhtemelen yükselecekti. Bacaklarını sabunla yıkadı ve güzelce kuruladı. Çadırda iltihaplar için bir kutu antibiyotik buldu. Yarısını bir bardak suya döktü ve kızının ayaklarını bu suyla pansuman etti. Ardından akşam yemeğini yedirerek uyuması için sünger yatağına yatırdı.

Herkesin bu yeni yaşam tarzını kabul etmesi ya da alışması gerekiyordu. Uyumak için özel bir elbise yoktu. Herkes yedeği olmayan gündüz giydiği elbiseyle uyuyordu. Yine herkes bu iş için tahsis edilmiş büyük mutfaqlarda pişirilerek özel arabalarla getirilen aynı yemekten yiyorlardı. Herkes erkenden uyuyordu. Ne televizyon veya akşam merasimleri vardı, ne de zamanı dolduracak sohbet ortamları. Herkes dalgın, yaşadıklarını ve ileride neler olabileceğini düşünmekle meşguldü. Çadırların kapıları sakinleri tarafından kapatılmış, ışıklar söndürülmüştü. Sokaklarda hiçbir hareket kalmamış, herkes kendi ailesi ile meşgul oluyordu. Aileler ki, bireylerinin kimisi Suriye'deki çadır kentlerde kimisi ise komşu ülkelerdeki çadır kentlerde dağılıp gitmişlerdi. Herkes sevdik-

ninelerinin hikayelerinden bahsederlerdi. Minik Halime ise bu hikayelerin hepsini ezberlerdi.

Hatice çocuklarını kucağına aldı ve ağlamayı bıraktı. Gecenin soğuşundan korunmak için çadırının perdelerini indirdi, kapılarını kapattı ve yemek hazırlamaya başladı. Bir yandan da kızının sorduğu sorulara cevap veriyor ve oğlunun cıvıdamalarına katılıyordu. Bitkin düşüren gündüz sıcağının ardından ikisi de derin bir uykuya daldılar. Sanki Hatice'nin hayatı boyunca gördüğü en uzun ve en bitmek tükenmek bilmeyen gündü. Gün içerisinde neyi düşünmesi gerektiğini bir türlü bilememişti. Nerede olduğunu bilmediği ve hiçbir haber alamadığı kocasını mı? Elli yıldır ellerinden çalınmış olan ülkesini mi? Çalınan veya yağmalananları geri almaya çalışan devrimi mi? İki çocuğuyla birlikte garipliğini ve yitip gitmesini mi?

Çadır kentin mescidinden akşam ezanı yükseldi. Su doldurup çadırın içine koyduğu kovadan abdest aldı. Kızının yanından ayrılıp onu gerçeğe ninesinin hikayeleri arasında düşünce çarpışmalarıyla baş başa bırakmaya cüret edemedi. Namazını kılıp yatağına oturdu. Çadırın içerisinde yaşadığı boğulma hissine dayanmaya çalışıyordu. Bu karmaşalı günde yaşananları düşünmeye başladı.

Kızına akşam yemeği hazırlamadan önce gündüzden kalan tozları yıkamak için onu banyoya götürdü. Elbise-

ve la havle çekti. Bu çocuęu Nesibe ninenin gömleęinden nasıl çıkartabilirim diye kendi kendine sordu. Ama yaşıananların tamamı aynı detaylarla gözünün önünde tekrarlanırken onu nasıl ikna edebilirdi ki? Ecdatlarının bahtsızlık ve sıkıntıları kendilerine isimleriyle beraber miras kalmışken...

Nuriye hamilelięin ilk aylarındaymış. İki kızıyla birlikte göç yolculuęuna katılmış. Kafilenin sonunda yorğun ve bitkin halde yürüyormuş. Bir ağacın gölgesinde dinlenmek için oturmuş, kızları da yanına çökmüş. Bu sırada hava kararmış. Kızları hem karanlıktan, hem de canlı canlı insanları parçalayıp yiyen yırtıcı hayvanlarla ve insanları kapıp itmek için karanlıkta ortaya çıkan cinlere dair daha önce dinlememiş oldukları hikâyelerden korkuyorlarmış. Annelerinin kucaęında kendilerini güvende hisseden kızları uykuya dalmış. Fecir vakti uyanıklarında anneleri uyanmamış. Uyandırmaya çalışmışlar ama cevap vermemiş. Güneş doğuncaya kadar ağlaya ağlaya uyandırmaya çabalamaya devam etmişler. Sonra annelerini bırakıp en yakın köye ulaşıncaya kadar yoldan yürümüşler. Köylülere haber verdiklerinde köyün erkekleri hemen çocukların tarif ettięi yere gelmişler. Vardıklarında kadının cansız bedeni ile karşılaşmışlar. Civar köylülerden biri çocukları atının arkasına almış ve geri kaldıkları kafiyleye yetiştirmiş. Bu kızlar Nesibe nineyi her zaman ziyaret ederlerdi. Onunla oturur annelerinin

tek başına bir şeyler söylüyordu. Halime'yi uyandırdı ve önünde yürümesini söyledi. Bebeğini kucağına alıp mıcırılı yola çıktı. Klimalı oradan çıkınca bir fırın kapısında duruyormuş gibi yüzüne sıcak hava esintisi vurdu. Çadırına döndü ve akşam yemeğini getiren arabayı beklemeye başladı.

Çadır halen daha güneşin sıcaklığıyla yanıyordu. Kapalı bir buhar hamamı gibi olmuştu. Kapılarını açıp Halime'ye kardeşine dikkat etmesini ve ne olursa olsun çadırdan çıkmamasını söyledi. Sonra boş tencereleri alıp diğer kadınlarla birlikte kendilerine adeta sadaka gibi verilecek yiyecekleri bekledikleri acizlik sırasına geçti ve çadırların arasını ayıran sokağın kenarında saf tuttu. Kadınların çoğu gözyaşı denizine dalmış sessizce duruyorlar, kimisi yüzünün yarısını kimisi ise tamamını kapatarak acizliğini gizlemeye çalışıyordu. Ancak açlık ve çocukların ağlamaları bu duyguları kabul etmezdi. Bu nedenle son derece acı, aşâğılık ve utanç hissederek yolun kenarında beklemeye devam ettiler.

Hatice payına düşen yemeği alıp çadırına döndüğünde kızını panik içerisinde buldu. Çaresizce kardeşinin ağlamasını susturmaya çalışıyor, kendisi de onunla birlikte ağlıyordu. Çadırın kapısında durunca Halime koştu ve annesine sıkıca sarıldı. Bir yandan gözünden yaşlar akıyor bir yandan da bir daha kardeşiyle onu bırakmamasını istiyordu. "Eski göç yolunda ölen Nuriye teyze gibi sen de ölmeyeceksin değil mi anne?" dedi. Hatice besmele

– Kimsenin umurunda mı sanki? Gel bak sokaklara bir sürü ağlayan görürsün.

– Necah ve teyzesi Afaf ne yapıyor?

– Onlar alevi evlerine bitişik semtte kalıyorlar. Bir kere yanına gittim, evinin balkonuna altında sünni pazarı gördüm.

– Sünni pazarı ne ki?

– Alevi mahallelerinde kurulan halk pazarı. Sünnilerin evlerinden yağmaladıkları malları satıyorlar. Pazarda ne buldum biliyor musun? İncilerle süslenmiş ahşap bir sandık. Nişanlandığımız gece Ahmet bana hediye etmişti. Takılarımı o sandıkta saklardım. Kapağına adlarımız ve nişanlanma tarihimiz yazılmıştı. Satın alıp eve getirdim. Ama bu bana Ahmet'in cansız bedenini babamın evine getirdikleri gün kadar ağır geldi. Düşünsene. Bütün bu olanlardan sonra hala içimizden bazı aptallar mezhepçilik hakkında konuşmaktan korkuyorlar. Onlar sünni pazarlarına gidiyor, mobilyalarımızı elbiselerimizi ve eşyalarımızı onur kırıcı bir şekilde üç kuruşa satıyorlar. Sonra da aman mezhepçilik yapmayın diyorlar. Bundan ala mezhepçilik mi olur?

Bilgisayar odasından çıktığında başı ağrıyordu. Kan basıncı da düşmüştü ve neredeyse bayılacaktı. Çocuklarını aradı. Halime salıncakta durmuş boynu bükülmüş boyuyordu. Hamza ise anaokulunun yatağında

— Tabi ki... Ama güneş doğudan doğduğu süreci dünyada hayırlı şeyler olacak.

— El Haffe'deki geniş evimizi ve özel odamı kaybettikten sonra etrafında hiçbir hayır görmüyorum. Halimize bak. Üç aile iki odaya dolmuş. Çocukların ağlamaları bitmeden, gülmeleri yada çekişmeleri başlıyor. Bütün vaktimiz yemek yapmak, çamaşır bulaşık yıkamak ve çocukların dağıttığını toplamakla geçiyor. Ne ceza ne mükafat hiçbir şeye fayda vermiyor. Her şeyi elimizde yıkıyoruz. Sadece bir günlük yemek yapabiliyoruz. Çoğunlukla elektrik kesik, su da aynı. Hep çalışıyoruz ama hiçbir netice vermiyor.

— Ailemin durumundan haberin var mı?

— Çok önemli bir durum olmadıkça evden çıkmıyoruz. Sadece en yakın dükkandan ihtiyaçlarımızı alıp dönüyoruz. Çünkü bir serseri mermiye kurban gitmekten ya da tutuklanmaktan korkuyoruz.

— Sen? Sen nasılsın peki?

— Ahmet öldükten beri hayattan hiçbir tat almıyorum. Bazen delirmem gerektiğini düşünüyorum. Evden tek başıma çıkıp amaçsızca sokaklarda dolaşılıyor, yoruluncaya kadar yürüyor sonra da bir köşeye veya otobüs durağına çekilip ruhum sakinleşinceye kadar ağlıyorum. Sonra da eve dönüyorum işte.

— Sokaklarda nasıl ağlıyorsun? İnsanların dedikodu yapmasından korkmuyor musun?

alevi bir çöpçü bile sünni bir bakandan daha fazla söz hakkına sahip. Muhaberat birimlerinden herhangi birindeki en ufak bir unsur millet meclisi üyelerini, hatta bakan ve yardımcılarını bile insanların önünde küçük düşürebiliyor ve onu karakola nezarete alabiliyor. Mahmut El Zabi olayı yaşanmalı daha çok olmadı.

İlk konuşma bu sözle bitmişti. Hatice midesinin bulandığını hissetti. Sait bey ile konuşmayı bırakarak arkadaşı Ahlam ile konuşmaya başladı. Bu genç kız nişanlısını destekleyerek ilk gösterilere katılmıştı. Nişan merasimleri herkesi büyülemiş ve civarda konuşulur olmuştu. Gösteriler esnasında sevgi kuşları gibi caddelerde dolaşırlardı. Nikahları kıyıldı, ancak düğün merasimleri devrim sonrasına ertelendi. Ahlam Ahmet'in elinden tutup düğün hayalleri kurardı. Mutluluk, aşk ve güven duyardı. Devrim için daha fazla atılır ve kendini feda ederdi. Öğlene doğru eve döner ve onlarca dürüm hazırlar, sonra çıkıp caddenin başında durur ve birer birer göstericilere dağıtırdı. Ahmet'e ayırdığı dürümler en güzel ve en dolgunları olurdu. Böylece bir haftayı geçmemişti ki yine bir gün mutfağında göstericiler için yiyecek şeyler hazırlıyordu. Bir grup gösterici genç evin açık kapısından içeri girdi. Rejim askerlerinin mermisi ile vurulmuş olan Ahmet'in cansız bedenini taşıyorlardı...

— Hayırlı akşamlar Ahlam..

— Bizim görüşmelerimizde hayır mı kaldı?

ları olmuş. Kendileri gibi alevilerin sahip olduğu köylerde çiftçilik yapmışlar. Alevi ağalar sünni ağalardan çok da merhametli değil tabi ki. Ama rejim baba Esed'in yönetime başladığından beri işi mezhepsel nefrete dönüştürmüş durumda.

Hanımefendi! Herkesin bilmesi gerekir ki zulüm devletinın adamları halkın tüm oluşumlarına bağlılar ve sadece alevi değiller. Bak mesela Abdülhalim Hüddam, Rüstem Gazali, Halit El Abut, millet meclisi ve bakanların büyük çoğunluğu sünnilerden. Ancak onlar da bizim katledilmemizi alkışlıyorlar, tebrik ediyorlar ve kanımızı içiyorlar. Fakir aleviler bu rejimdeki hakim ailenin bireyleri yanında köle gibi çalışmaktan başka hiçbir şey elde edemediler.

— Hayır Sait bey! Sizin sünni diye bahsettiğiniz kimseler aslında sünnetten haberi olmayan kişiler. Laiklik gömleğini giymişler, ama sadece kendi taraflarına düşmanlık hususunda laikler. Siz de biz de eminiz ki bu kişiler devlet kademelerinde karar sahibi değiller. Hiçbiri bir memurun hatta bir kişinin bile tayin edilmesine, şehirlerinde bir yol açılmasına bile karar veremiyorlar. Onlar sadece tiyatroyu tamamlayan dekorasyonlar. Her birine ayrı ayrı bakın. Kendi taraflarına ve köyelerine faydadan çok zararları olmuştur. Yaptıkları tüm icraatlar Esed ailesinin çıkarlarına yarıyor. Onlar av köpeklerinden başka hiçbir şey değiller. Herhangi bir bakanlıktaki

İkindiden sonra sıcaklığın şiddeti biraz hafifleyince çocuklarını aldı ve yönetime gitti. Orada prefabrik internet salonu ve çocuk bahçesi yapılmış olduğunu keşfetti. Bu çok büyük bir keşifti. Herkesle iletişim kurabilecekti. Hatta belki de kocasına veya bazı köylülerine ulaşacaktı. Ancak işin nereye doğru gittiğini öğrenmek için Sait beyle konuşmasını tamamlaması gerekiyordu. Öncelikle çadır kentte mülteci olarak yaşamaya başladığını duyuran bir paylaşım ile yazmaya başladı. Sonra arkadaşlarını bulmak için arama penceresine girdi. El Haffe ve civarındaki köylerden onlarca kişiye arkadaşlık isteği gönderdi.

— Nice yıllardır insanların kalplerindeki korlar sönmessin diye mezhepçilik ateşini tutuşturdukları bu düşmanlığa ihtiyaç duyuyorlardı.

— Düşmanlık mı? Hesaplaşma mı? İntikam mı? Rejim düştükten sonra bizim emniyet subabı olmamız gerekiyor. Gördüğüme göre konu fazla uzamayacak. Önemli olan köylerimize ve evlerimize dönmemiz. Herkesin yaşayabileceği bir ülke istiyoruz. Beşşar Esed, babası ve ailesinin koca ülkeyi kendi sülaleleri ve avaneleri için bir tarla edindiklerini ve insanları köle saydıklarını anlatıyoruz.

— Biz bunu açıkça görüyor ve anlıyoruz. Etrafımızda fakirliğin sefaletinde boğulan birçok alevi bunu görüyoruz. Bunların Esed yönetiminde ne toprakları ne de un-

ğında yüzünü ıslak havlu ile silen birini gördü. Adam Usame'ye gülümseyip afiyet diledi. Ardından kolundan bir iğne yaptı ve Usame yeniden bilincini kaybetti. Birkaç yaralı ile birlikte bir araca koyularak Türkiye'ye götürüldüğünü hiç hissetmemişti. Bu bayılma ve ayrılma nöbetleri sırasında telefonunu kaybetti ve annesi ile olan iletişimi koptu.

Kadınlar çadırlarına girdiler. Hacer hanım halen efkarında seyreliyordu. Bazen ağlıyor, bazen ise dua edip yalvarıyordu. Allah'tan en yakın zamanda zafere kavuşmalarını ve hem oğulları hem de sadece canlarını ve azıcık cephanelerini alıp çıkan diğer mücahitlerin selametle kurtulmalarını istiyordu. Onlar ki insanca bir hayata kavuşma arzusu ile ya onurlarını ve özgürlüklerini koruyacaklarını ya da ellerinden geleni yaptıktan sonra ölerək rablerinin huzuruna şehit olarak varacaklarını bilmekteydiler.

Hatice çantasını açtı. Neler var diye kontrol etmek için karıştırdı. Bu sürgün yerinde nelere ihtiyacı olduğunu düşününce çok şeye ihtiyacı olduğunu anladı. Geceleri soğuk gündüzleri ise yaz sıcağı olan bu çöl ikliminde çocuklarına uygun elbiselere ihtiyacı vardı. Çocukları için çadır kentin zeminine serilmiş kenarları tırtıklı çakıl taşlarına dayanabilecek ayakkabılara ihtiyacı vardı. Dış dünya ile iletişim kurmaya ihtiyacı vardı. Asla burada hapis olmayacaktı, mutlaka bir yol olmalıydı.

daha düzelemeyeceğini gördü. Kopan parça azıcık bir şeyle tutunuyordu. Cebindeki bıçakla tamamen koparmak istedi ama arkadaşlara engel oldular. Usame'yi yüklenip oradan uzaklaştırdılar. Bu sırada Usame'nin Telefonu çaldı. Arayan Lazkiye ilindeki abisiydi. Durumunu sorduğunda iyi olduğunu ama yağmur yağdığını söyledi. Aslında mermileri kastediyordu.

Gördükleri ilk evde durdular ve sertçe kapıya vurdu lar. Kapı açılınca evin avlusuna girdiler. Ev sahibi ve hanımı kapıdan gözetliyor ve ne olduğunu anlamaya çalışıyorlardı. Kadın gençlerin kollarında taşıdıkları yaralıyı ve kana bulanmış elbiseleri görünce bayıldı. Kocasını kadını içeri taşıdı ve gençlerin yanına döndü. Yaralanan ayağı sessizce kontrol etti, sonra birkaç havlu ve sebze koymak için yapılmış ahşap bir sandık getirdi. Sandığı kırdı ve uygun birkaç tahta parçası çıkartarak ilkel bir sargı yaptı. Gencin ayağını bağladıktan sonra en yakın meydan hastanesine bir an önce götürmelerini söyledi.

Usame susadığını hissetti ve su istedi. Ev sahibi şu an kanaman var, su sana zarar verir diye cevap verdi. Ancak Usame ısrar etti ve art arda defalarca rica etti. Bunun üzerine ev sahibi bir bardak su getirdi, ve çok fazla içmemesini söyledi. Suyun yarısını içmişteki gözleri karrardı ve bilincini kaybetti.

Uyandığında Cenkel evlerinden birindeydi. Gençler onu meydan hastanesine götürmüşlerdi. İlaç ve ilk yardım malzemeleri de hazırlamışlardı. Gözlerini açtı-

Usame Zarnada yolunu tutarak habis nehrine ve Derin vadisine doğru yöneldi. El Haffe tarafına doğru kayadan kayaya ve dikenli orman çalılarının arasında zıplayarak yoluna devam ediyordu. Bu yol yetmiş yıl önce dedesi ve arkadaşlarının gittiği yolun aynısıydı ve aynı hedefe doğru gidiyorlardı, yine aynı düşmanla savaşmak için. Genç adam elinde av tüfeği ile koşuyordu. Bulduğu birkaç mermi nedeniyle sevinçliydi. Dereyi geçtikten sonra asfalt yola ulaştı. Evin girişinde bekçi olarak dikilmiş Abdülkadir isimli köylü gençlerden biri ile karşılaştı. Nereye gittiğini sorunca savaşmaya gittiğini iyi söyledi. Abdülkadir hemen Usame'nin elindeki av tüfeğini savaşmaya daha uygun olan kendi elindeki otomatik silahla değiştirdi. Bekçilik yapmak için av tüfeği yeterliydi. Usame Mustafa ile karşılaşınca kadar koşmaya devam etti. Mustafa Usame'yi motorunun arkasına ardına aldı ve çatışma alanına vardılar.

Çatışma alanında mücahitler mermi yağmuru altında asfalt yolu aşarak hastaneye ulaşmak için planlar yapıyorlardı. Usame komutanın işaretini beklemedi, duygularına kapılıp bir anda atıldı, ayağına mermi isabet etti ve koşmaya devam edemeyerek yere düştü. Arkadaşları geriye sürünmesi için bağırdılar. Asfalta ulaşınca kadar süründü. Etrafına düşen mermiler yerde derin çukurlar açıyordu. Ayağına bakmak için ayakkabısını çıkardığında bir parçasının kopmak üzere olduğunu ve

cianın üzerinden henüz daha kısa bir zaman geçmişti. Ancak evde oturamadı ve ağabeylerinin peşinden doğruca sokağa çıktı. Sokakta Ahmet ile karşılaştı. Silahın var mı diye sordu. Ahmet yok diye kafasını salladı. Yanaklarından aşağı kahır gözyaşları akıyordu. Haydi mescide gidelim mi? Mücahitleri cesaretlendirmek için tekbir getirelim. Çatılardan kadınların bağırdığı gibi bizde bağıralım.. İki kişi birden mescide girdiler. Hoparlörü açtılar ve tekbir getirmeye başladılar. Ancak kısa süre sonra yerlerinden ayrıldılar ve köy ile çatışma alanının arasındaki kayalık araziye gittiler. Orada ağlayıp dua eden birkaç kişi daha buldular. Diğer ağlayanlar ile birlikte acizlik ve kahır içinde ağlamaya başladılar. Ahmet'in amcasının oğlu da geldi ve bir av tüfeği getirdi. Tüfeği şevkle kaptı ve çatışma alanına doğru koşmaya başladı. Usame olduğu yerde duruyordu. Sessiz ağlamaları ağıtlara dönüşmüştü. Ebu Fadi yanına geldi. Kendisinde sadece bir av tüfeği olduğunu söyledi ve birkaç mermi ile birlikte tüfeği Usame'ye verdi. Tüfeği aldığı gibi ağlaması sevinç ve neşeye dönüştü. Hemen vedalaşmak için eve annesinin yanına döndü. Annesine kendisinin savaşmaya gidenlerden daha faziletli olmadığını, kadınlarla birlikte evde oturan bir korkak olmayı kabul etmediğini söyledi ve ona dua etmesini istedi. Silahını alıp en yakın ve en sapa yoldan koşup gitti.

mezdi. Hacer hanımın başına gelenler belde ahalisi arasında tüm tafsilatıyla konuşulur olmuştı.

Hacer hanım içinde gidip gelen, ancak açıklamaya gücü yetmediği soruyu sorduktan sonra ağlamayı bıraktı. Kim bana oğlum Usame'den haber getirecek? Ambulansla Türkiye'ye getirildiğini biliyorum. Türkiye küçük bir köy değil ki şehir şehir hastane hastane dolaşım onu bulayım. Hatice susmuştu. Etrafındaki kadınlar da onunla birlikte sustular. Ortamda sadece çadırın rüzgardan sallanan sesi ve çadırın dışında oynayan çocukların cıvıdamaları duyuluyordu. Bağırıyorlar, çekişiyorlar ve devrim şarkıları söylüyorlardı. Kadınlar çadırlarına gidip kendileri tercihi etmedikleri, bilakis mecbur bırakıldıkları bu yeni hayatı keşfetmeye başlamak için birer birer ayrıldılar. Her biri çocuklarına kaybolmamaları için çadırdan uzaklaşmamaları gerektiğini söylediler. Hangi kaybolmadan bahsediyorlardı ki? Burada herkes kayıptı, evsizdi, garipti. Herkes emindi ki buradaki ikametleri kısa sürmeliyi. Geçmişte Tunus, Mısır, Libya ve Yemen'de düşen rejimlerin en kötüsü olan Suriye rejimi düştükten sonra kendi ülkelerine ve evlerine dönmeleri gerekiyordu.

El Haffe'deki büyük çatışmanın yaşandığı gün Hacer hanımın oğlu Usame'nin evden ayrılmasına kardeşleri izin vermemişlerdi. Ondan sevdiği oğlunu daha yeni yitirmiş annelerinin yanında kalmasını söylediler. Zira evinin direğini, en sevdiği oğlu olan büyük oğlunu kaybettiği fa-

ve onu sadece iyileşmesi umuduyla baş başa terk ettiler. Bir sonraki gün geldiklerinde yatağında değildi. Hemşireye sorduklarında duygusuzca ve soğuk bir kalple öldü diye cevap verdi. Sanki ne onu ne de karşısındakileri ilgilendirmeyen bir şeyi söylüyordu. Kardeşleri “nasıl öldü? Onu siz öldürdünüz” diye bağırmaya başladı. Hemşire onların bağırmasından daha yüksek bir sesle Hafız Esed bile öldü kardeşin mi ölmeyecek? diye cevap verdi. Tabii ki Hafız Esed ebediyete adanmış bir kimseydi. Onun öleceğine kimse inanmıyordu ama ölmüştü. Hasan mı ölmeyecekti? Muhsin hemşirenin sözlerine dayanamadı ve sert bir tokat atarak yere serilmesine neden oldu. Nöbetçi doktor da hemşireyi destekleyerek olaya karışınca ona da vurdu, sonra Hafız Esed ve Beşşar Esed’e kötü sözler sarf etti. Hemen hastane polisleri geldiler ve Hasan’ın dört kardeşiyle dayısını tutuklayarak hapse götürdüler. Hacer hanım oğlu Hasan’ın naaşı ile birlikte tek başına köye döndü. Sanki oğlunun ölümü miskin annenin belini kırmaya yetmemiş, bir de dört çocuğu ve iki kardeşinin tutuklanması eklenmişti. Birkaç ay dönmediler. Ne kadar işkence gördüklerini ve ne kadar psikolojik ya da bedensel eziyet gördüklerini Allah’tan başka kimse bilmiyordu. Zaten hapse giren hiç kimse bunlardan kurtulamazdı. Yine Allah’tan başka kimse Hacer hanımın ne kadar sabrettiğini ve ne dertlere göğüs gerdiğini bile-

vam etmişlerdi. Sonra kendi kendine cevap verdi. Ama henüz etnik bir ayrımcılık yaşanmadı. Göçtükleri ülkelerde kalanlar kendiliğinden o ülkelerin vatandaşları olarak kayda geçtiler. Ancak siz mültecisiniz, dilencisiniz, insanların yardımlarını ve sadakalarını bekliyorsunuz. İçinden bir başka ses hayır biz mücahitleriz. Zafer kazanıldıktan sonra kesinlikle ülkemize döneceğiz. Başından beri devrimi Allah için ilan ettik. Para veya makam için değil. Başından beri senden başka amacımız yok ey Allah'ım diye dua ettik. Biz Allah'a sadakat ve samimiyetle tevekkül etmişken, o bizi zelil etmez.

Hacer hanım ise “Oğlum Hasan'ın kabri henüz daha kurumadı. Hapisten çıkan kardeşleri ise devrim ordusuna katıldılar. Bu nasıl bir sefalettir?” dedi.

— Senin oğulların zulme başkaldıran birer kahraman! Onlarla övünmen gerekir. Allah'ın rahmetinden ümidini kesme. Bütün erkeklerimiz orada, etrafına bir bak. Kadınlar, çocuklar ve yaşlılardan başka kimseyi görebiliyor musun?

Hacer hanımın oğlu hasan iç savaş patlak vermeden kısa bir süre önce arabasıyla kaza yapıp yaralanmıştı. Kendisi şeref ve nezaket kelimelerinin manasını bilmeyen emniyet kurumu içerisinde nezaheti ile tanınan bir polisti. Kazadan sonra hastaneye kaldırıldı. Annesi ve kardeşleri yanına geldiğinde baygın değildi ve durumu gayet iyi görünüyordu. Ancak doktorlar aşikare ihmal ettiler

dağıtılıyorlardı. Hatice de sırada yürüyordu. Ancak bilinçsizlik halinden kurtulmuş, dikkatle etrafı incelemeye başlamıştı. Burada ne kadar kalacaklarını kimse bilmiyordu. Etrafına bakındı, Hacer hanım arkasında yürüyordu. Torunlarından birini yüklenmiş diğerinin elinden tutuyordu. Hemen yanında da kızı Mehasin vardı. Onun da elinde çantalar vardı. Arkalarından da gelinleri geliyordu. Altmışlı yaşlarda olan kadın hüznünü ve acısını gizleyemedi, gözyaşları sel oldu. Acizlik hissi daha da arttı. Sessiz gözyaşları hıçkırıklara dönüştü. Onunla birlikte hemen kızı ve gelinleri de ağlamaya başladılar. Türk memurlar durup kadınların hiçbir şey anlamadığı kelimelerle teselli etmeye çalıştılar. Ancak etkilendikleri seslerinin tonundan belliydi. Grup çadırlara doğru yol almaya devam etti.

Hatice halen daha kadınlar arasında en kuvvetlisi ve en sabırlısı idi. Eşyalarını çadırına koydu, sonra Hacer hanımın yanına gitti. Sabır tavsiyeleri vermeye ve teselli etmeye başladı. Sağlıklı ve güvenli bir şekilde evine tekrar döneceğini vaat etti. Bunların hepsinin bir kaç günlük olduğunu, hep beraber döneceklerini söyledi. Hatice yaşlı kadınla fısıltıyla konuşuyor, başını ve omuzlarını okşuyor, onu teselli ediyordu. Ancak bu esnada derinlerde kendi kendine sen bir yalancısın diye bağıyordu. Daha öncekilerin göçü beş yıl sürmüştü. Kimisi köyüne dönmüş, ancak kimisi göçtükleri yerde yaşamaya de-

diđeri sloganları keserek tekbir diye bađırıyor, hep beraber Allahuekber diye haykırıyorlardı. Anneleri ise gülüyordu. Bir grup Türk görevli geldiler. Ellerinde defterler ve kayıtlar vardı. Gölgeleđe yaklaştıklarında çocukların sesi kesildi ve herkes sessizce dinlemeye başladı. Göç yolculuđu başladıđından bu yana meçhulden meçhule dönüp duruyorlardı. Ufuklar her türlü sevgi ve beklentiye karşı kapalıydı. Yerde oturan kadınların bakışları gelenlerin yüzüne çevrildi. Yanlarında durduklarında adeta düşünce-leri kafalarında güreşiyor, sonra baygın olarak yere düşüyordu. Memurlardan büyükçe olanı garip bir aksan ile selam verip esselamu aleyküm dedi. Kadınlar selamı alırken, çocuklar aralarında fısıldaşıyorlardı. Selamı alış tarzlarının altında merak gizliydi. Memur Türkçe bir şeyler söyledi ardından tercüman fasih ama kırık bir Arapça ile söylediklerini tekrarladı. Tercümanın konuşmalarından kadınlar karşılama çadırındaki ikametlerinin bittiđini anladılar. Gece boyunca hazırlanan tablo doğrultusunda ve istatistiklere bađlı olarak artık kendilerine özel çadırları verilecekti. Memur isimleri okumaya ve eliyle işaret etmeye, tercüman da ardından tekrarlayarak anlattıklarını açıklamaya ve çadırlarının yerini göstermeye başladı. Kadınlar çocuklarını ve ellerinde kalan küçük elbise çantalarını yüklediler. Çakıl taşı döşeli yolda yaya olarak memurların peşinden batıya doğru gittiler. Sün-ger döşekler, ince yaygılar, bir kaç tabak tencere ve kaşık... Yani sadece bu kadar eşya ile döşenmiş çadırlara

ve çocuklarla dolmuştu. Yıkayıp çıkıyorlar, ardından defalarca tekrar yıkıyorlar, hassas bedenlerinin alışık olmadığı sıcaklığın şiddetini böyle gidermeye çalışıyorlardı. Bu kadar kısa vakitte sıcak hava ile uyum sağlayamamışlardı. Güneş doğduğundan bu yana düzlüklere ve bozkır araziye ateş topları yolluyordu. Çadır yüksek hararetili bir kapalı fırında dönmüştü. Sıcaklığı içinde tutuyor, hava akımının geçmesine izin vermiyordu. Kadınlar dışarıda oturacakları bir gölgelik aradılar. Onlar kapalı ev hayatına alışıklardı. Onları sadece kapıyı çalıp içeri girmelerine izin verilenler görebiliyordu. Mecburen açık havada oturup sabah esintilerinden faydalanmaya ve çocuklarını çadırın sıcaklığından korumaya çalışıyorlardı.

Sabah saat yedi olduğunda güneş artık kuşluk yerine doğru yol almaya başlamıştı. Türk görevliler ahşap el arabalarıyla mültecilere yemek dağıtmaya başladılar. Ameliyat odalarındaki doktor kıyafetlerine benzer kıyafetler giymişlerdi. Ellerinde eldivenler ve ağızlarından maskeler tek tip elbiseleri vardı. Ekmek, peynir, reçel, zeytin ve süt dağıttılar. Gayet güzel bir kahvaltıydı. Ancak... Nerede o kendi evinde kahvaltı hazırlamalar? Aç çocuklar yemek için birbirine girdi, dalaştılar, ağlaştılar... Sonra yediler ve oyunlarına döndüler. Anneleri ise gözleri yaşlı, utanarak yaklaştılar ve bir şeyler yediler. .

Çocuklar halka halka dizilip gösterilerde ezberledikleri şarkı ve sloganları tekrarlıyorlardı. Bazen biri bazen bir

birlikte söylediklerini tekrarladı. Aklından geçmiş günleri hatırladı. Dolunaylı yaz gecelerinde kızı Halime'yi uyuttuktan sonra yatağına yatırır ve balkondaki yatağına kocasının yanına gelirdi. Burada hayata dair şundan bundan konuşurlardı. Fısıldaşırlar, birbirlerine sevgi ve aşk kelimeleri söylerler, ayı ve yıldızları seyrederdiler. Ta ki Hay camisinden sabah namazı için müezzinin sesi duyuluncaya kadar.. Susup ezanı dinlerler, sabah namazını kıldıktan sonra uykuya dalarlardı. O geceler ne kadar da güzeldi? Acaba bir daha gelir miydi?

Tuvaletlere yöneldi, abdestini aldı. Bildiği tüm dualarla ümmetin kurtulması, kocasına sağlıklı ve afiyetle kavuşmak için dua etti. Sabah namazını kıldıktan sonra çocuklarının yanına uzandı ve kısa sürede uykuya daldı.

Güneşin doğuşu uyuyanları uyandırmıştı. Bölgede karasal çöl iklimi hakimdi. Gündüzün sıcağı ile gecenin soğuğu arasında muazzam bir fark bulunuyordu. Güneşin ilk ışıklarının yer yüzüne vurmaya başlamasıyla birlikte hava sıcaklığı da yükselmeye başladı. Büyük çadır bir buhar hamamına dönüşmüştü. El Haffe'de ve sahil kesimindeki diğer Siyon köylerinde yumuşak havaya alışmış olan bu bedenlerde ter dereler gibi akıyordu. İçeride bir ağlama dinletisi başlamıştı. Çocuklar sıcağa dayanamıyor, tahammül edemiyorlardı. Anneler banyolarından başka harareti hafifletecek bir yol bulamıyorlardı. Banyolar sabahın erken saatlerinden itibaren kadınlar

kında bizleri kaygısız ve güvenli hayatımıza geri dönmek için yeniden toplayacak..” Kederlerini unutmuş ve yavrusunun sevincine katılmıştı. Kulağına tatlı sözler fısıldamaya ve dağlarda savaşılan babasının hikayelerini anlatmaya başladı. Yavrusuna zulmün ortadan kaldırıldığı zalimlerin hüsrana uğradığı bir ülkeye muzaffer bir şekilde dönüşün umudunu anlatıyordu.

Yavrucuk sakinleşti ve uykuya daldı. Annesi onu yere yatırıp karşısında oturdu ve derin duygularla düşüncelere daldı. Babasına ne kadar da benziyordu. Evliliğin ilk yıllarında aynı böyle oturur ve uyuyan kocasının yüzüne bakardı. Kocasının yüzünün çocuklar gibi saf ve masumiyet yüklü olduğunu düşünürdü. Böyle bir kocayı kendisine nasip ettiği için Allah’a binlerce defa şükrederdi. Peki Yahya şimdi neredeydi? Aralarında yüzlerce kilometre vardı. Yaralı mı yoksa şehit mi düştü bilmiyordu. Yoksa sapaşağlam halen daha savaşıyor muydu? Göç eden grupla birlikte evden ayrılırken ne Hatice ne de çocukları ile vedalaşamamıştı. Köy meydanındaki ve diğer Cebeli Ektrat köylerinde uçakların bombardımanlarından kaçan diğer ailelerle birlikte kendilerini koruyan özgür ordu askerlerinin arasında onu görememişti. El Haffe çatışmalarından sonra kimse onun hakkında bir haber getirmemişti. Acaba Yahya neredeydi?

Çadır kentteki mescitten müezzinin sabah ezanı sesi yükseldi. Durup huşu ile ezanı dinledi ve müezzin ile

nin ayazında soğuk hava ve ıslak elbisesi yüzünden titriyordu. Aya işaret ederek eğlendirmeye çalıştı. Ama çocuk ne ay ne de yıldızlarla ilgilenmiyor, sadece acısını dinmesini istiyordu. Bekçi bir kez daha yanına geldi ve bir şeye ihtiyacı olup olmadığını sordu. Çocuğa işaret ederek ne olmuş buna dedi? Hatice elbiselerinin kuru elbise ile değiştirilmesi gerektiğini, ancak yanında hiç elbise bulunmadığını söyledi. Bekçi hızla ayrıldı ve kulübenin arkasında kayboldu. Bir süre sonra elinde büyükçe bir poşetle döndü. Poşeti uzattı ve “ihtiyacın kadarını al arkadaşlarından ihtiyacı olanlar varsa onlara da ver” dedi. Hatice bebeği alıp hemen banyoya gitti elbiselerini çıkardı. Musluklardan akacak soğuk suyun gecenin soğuğu ile birlikte çocuğunu daha fazla hasta etmesinden korktu. Ancak akan su sıcaktı. Tuvaletler, tertemiz aynalar ve sabunlar, her şey yerli yerindeydi. İçinden Allah’a hamt ederken misafirperver Türkiye’nin çabalarına da teşekkür ediyordu. Çocuğunu yıkadı ve temiz elbiselerini giydirdi. Çadırına döndüğünde artık ağlamıyordu.

Düşüncelerine yeniden dönebilmek için Hamza’nın uyumasını umuyordu. Ancak Hamza gülüyor mutlulukla baba baba diye cıvıldıyordu. “Seni bu kadar sevindiren ne yaramaz çocuk? Bu acı ve kahr kuantumunun ortasında seni cıvıldattıran ne? Oğlum benim, kederime neden kulak vermezsin? Boş ver sen, cıvılda sevin... Elbette Allah yakında bir çıkış yolu gösterecek. Elbette çok ya-

halen daha önünde duruyordu. Kendini topladı. On yıllar boyunca ırktaşlarının düştüğü acizliği bu adam karşısında geçen daha fazla gözler önüne sermek istemiyordu. Fakat ne yapabiliirdi?

Çadırın içinden oğlunun ağlaması durumu kurtardı. Sandalyeyi bıraktı ve Hamza'ya koştu. Hemen kucağına alıp kollarında sallamaya başladı. Elbisesinin ıslak olduğunu fark etti. Bunun için yapacak hiçbir şeyi yoktu. Gözleriyle etrafında uyuyan kadınları ve çocukların üstlerini süzdü. Bekçinin söyledikleri halen daha kafasında bir sağa bir sola yuvarlanıp duruyordu. Söylediklerinin hepsi doğrudu. Ancak nasihatlerini uygulamanın yolu acaba ne idi? Tüm bu insanları gafletinden uyandırmak, olanların ve haklarında olması istenenlerin hakikatini anlatmak gerekiyordu. Çocuk kucağında susmadı, aksine daha fazla ağlamaya başladı. Belki de batıda Suriye Türkiye sınırında başlayıp doğuda bir yerde biten ve uzun saatler süren yolculuk boyunca ıslak elbisenin altında kalan cildi pişik yapmış, onun acısıyla sızlanıyordu. Kalıp çadırın içerisinde ileri geri yürüdü ancak yinede susturamadı. Bu bitkinin insanların günahı neydi ki oğlunun ağlaması nedeniyle uyansınlar? Çocuğu kucağında çadırdan dışarı çıktı. Mevsimlerden yazdı. Kafiye boğucu sıcak bir gündüz vakti süratle yol almıştı. Bebeğin üzerinde kolları ve bacakları açık bir elbise vardı. Ama gece-

Bu topraklara iltica etmiş olan Suriyeli kardeşlerim, lütfen sizden rica ediyorum.

Filistin trajedisinin Suriye’de de tekrar yaşanmasını istemiyoruz. Bu nedenle bazı Suriyelilerin Türkiye’de yaşamaya devam etmeyi düşünmemesi için bu topraklardaki yaşam koşullarını güzelleştirmek istemiyoruz.

Sizin için Suriye’den başka alternatif yok. Alternatifiniz yok, bunu anlayın.

Adam konuşmayı bırakmıştı. Hatice cevap verecek bir şey bulamıyordu. Konuştukları hakikatin ta kendisiydi. Ancak bu kadar kalabalığa sesini kim duyuracaktı? Söyledikleri bu kadar kişiye nasıl ulaştırılacaktı? Herkesin bunun farkında olması gerekiyordu. Yersiz yurtsuz kaldıkları bu göç yolculuğunda bu sözlerin herkesin elinde kandil olması gerekiyordu. Türk hükümeti onlara mülteci dememiş, misafir diye nitelemişti. Misafir olan kimsenin misafirlik adabına riayet etmesi gerekiyordu. Koşullar ne olursa olsun misafir eden kişinin evinde fazla kalmamaya çalışmalıydı. Bu çadırların geri dönmeye teşvik eder nitelikte olması gerekiyordu. Kesinlikle...

Utancı ve eziyet ile kuşatılmış bir şekilde suskun kaldı. Hatice iki çocuğuyla kurtulmayı tercih ederek gelmiş zayıf bir kadındı. Peki kurtulmayı seçmek hakkı mıydı? Elbette hayır. İsterdi ki kocasının yanında velev ki ateşler altında kalsın. Ama bu kendi elinde değildi. Türk adam

– Doğru söylüyorsunuz. Biz Filistin’li mülteciler gibi yaşamak istemiyoruz.

– Güzel siz de bunu biliyorsunuz. Filistin’liler birkaç saat sonra geri dönme umuduyla anahtarlarını alıp evlerinden çıkmışlardı.

Saatler uzayıp günler oldu. Günler uzadı yıllara dönüştü. Peş peşe gelen yıllar on yıllar oldu. Nesilden nesile Filistin’liler iltica ettikleri topraklarda doğdular, büyüdüler, yaşlandılar.

Halen daha mülteci olarak kendilerine kucak açan Arap ülkelerinde üçüncü sınıf vatandaş muamelesi görüyorlar. Hatta belki de daha düşük seviyedeler. Peki şimdi ne oldu. Geçen on yıllar boyunca onlardan kurtulmaya ve sınır dışı etmeye çalıştılar. Bununla birlikte saflarını bölme ve birliklerini dağıtma çabaları hiç durmadı.

Oslo anlaşmasından sonra Kaddafi ülkesindeki bütün Filistin’lileri bir gemiye topladı ve onları denizin ortasına saldı. Onlara haydi artık bir vatanınız ve hükümetiniz var. Sizi bizim ülkemize ne bağlıyor ki? dedi.

Mısır’da ise Gazze ile Sina arasında açılan tüneller her defasında yeni bir bahaneyle hemen yeniden kapatılıyor. Filistinliler sefalet geçitlerinde kaybolan insanlıklarını bulmayı bekliyorlar. Lübnan’da yaşadıkları tasfiye ve sınır dışı olayları da yine herkes tarafından bilinmekte.

fısıldadı; “Yahya seni seviyorum!” Hatice çocukluğundan beri ayın bütün hallerine aşıktı. Bu nedenle bakışlarını azat etti ve düşüncelere daldı. El Haffe’de böyle ovalar yoktu, dağlık arazide ve yamaçlarında meyve ve zeytin ağaçlarıyla tarım yapılırdı. Dağları ise tamamen ormanlarla kaplıydı. Ay ışığı ormanın ürkütücülüğüne ayak uydurur, daha kapalı ve korkunç bir hale getirirdi. Dağların eteklerine sığınan kız çocukları bağırsır, feryatlarının sedası ormanlarda kaybolurdu. Gönlü aydınlatır, ruhu lezzet boşluklarına salardı. Manzaranın görkemi ve gecenin sakinliği insanı kendinden geçirirdi. “Peki şimdi nelerdesin Yahya’m?”

Türk bekçi yeniden döndü, selam verdi ve durdu. Bir şey isteyip istemediğini sordu. Uzun ve yorucu bir yolculuk geçirdikleri için dinlenip rahat etmesini söyledi. Vatanı çalınan kimseler rahat edemezler diye cevap verdi Hatice.

— Kültürlü bir kadına benziyorsun. Bu nedenle yaşadığınız kriz hakkında daha geniş konuşabiliriz.

— Buyrun, istediğinizi konuşabilirsiniz.

— Çadır kentler ve sığındığınız bu topraklar sizin vatanınız değil. Burada yaşamın zorluğuna katlanmanız gerekiyor. Sakın refahı aramayın. Buradaki zorlu hayat sizleri vatanınıza dönmeye teşvik etsin.

rıklarına karıştı. Adam bir müddet ortadan kayboldu. Bir müddet sonra elinde bir bardak lezzetli Türk çayı ile döndü. Son derece terbiyeli bir şekilde çayı ikram etti. Hatice'ye ve içinde bulunduğu duruma karşı çok nazik davrandı. Hatice teşekkür ederek çayı aldı ve ağlamayı bıraktı. Gözlerini gökyüzüne dikerek yavaşça yudumlamaya başladı. Yakınında ayakta duran adama döndü, çadır kentte hayatın nasıl devam ettiğini ve Türkiye'ye gelen mültecilerin sayısını sordu. Şahsı adına hoş karşılanmaları ve gönül genişliği nedeniyle Türk hükümetine teşekkür etti. Sonra ortama sessizlik hakim oldu. Çayını bitirdiğinde bardağı koyabileceği bir yer arayarak etrafa bakındı. Adam hızlıca geldi, bardağı aldı ve yeniden kulübesine döndü.

Gökyüzü geniş mi genişti. Çadır kentte bolca yayılmış olan çok sayıdaki lambanın ışıkları yıldızların parlaklığını perdeliyordu. Dolunay uzaklarda bir yerde duran sönük bir lamba gibi görünüyor, ışığıyla keşfe çıkmak için derinlere doğru sarkmaya çalışıyor, ancak bu mutsuz manzara karşısında aciz ve utangaç bir şekilde geri dönüyordu. Evlerinden ve vatanlarından sökülüp atılmış kahır yüklü mülteciler karşısında... Çakıl taşlarının üzerine serilmiş uyuyan... Bunun yerine ışığını çadır kentin sınırlarının dışında uzayıp giden ve hasat mevsiminde buğday biçimi yapılan ovalara yaymakla yetiniyordu. Ay ile birlikte Hatice de ovalara doğru baktı. Ruhunda hafiften sevinç hissetti ay'a doğru gülümsedi ve

derken yanlarında götürdükleri develer eşyalarını ve yiyeceklerini taşıyordu. Develerin verdiği süt gıda desteği sağlıyordu. Zaten kendisi de bizzat yiyecekti, bazılarını kesip etini yiyorlardı. Halbuki bu sırada düşmanlar yurtlarından ve yiyeceklerinden uzaktı. Bu söz intikama susamış olan Yahya'yı ikna etmedi. İşi bilenlerin tavsiyelerini ve önerilerini görmezden gelerek büyük bir savaşın hazırlıklarını yürütmeye başladı. Böylece iki ay sonra El Haffe çatışmaları başladı.

Türk bekçiler Suriye'de ve etrafında olanların farkındaydılar. Çadır kent içerisinde olan tüm olaylara karşı çok dikkatli davranıyorlardı. Bu nedenle tüm çantaları aradılar, daha doğrusu mültecilerin elinde kalan birkaç çantayı.. Yemek bıçaklarını, makasları ve tüm kesici aletleri aldılar. İnsanların çadır kent içerisindeki hareketleri devamlı bekçiler ve gözetleme kameraları tarafından gözetleniyordu. Bekçilerden biri Hatice'nin yanına geldi. Kıvrık bir Arapça ile bir şeye ihtiyacı olup olmadığını sordu. Bu sırada yakıcı bir kederle gözyaşı döken Hatice hayır diye işaret etti.

Bekçi Hatice'nin gözyaşları karşısında çaresiz kaldı. Daha iyi Arapça konuşan bir arkadaşını çağırmak için gitti. Arkadaşı hoş bir lisan ile selam verdi ve herhangi bir şikayeti ya da isteği olup olmadığını sordu. Tuvalet ve lavaboların yerini tarif etti. Fakat Hatice bir kelime bile cevap veremedi. Aksine suskun gözyaşlarını gizlemeye çalışsa da gücü yetmedi ve gözyaşları hıçkı-

gözyaşları kadınların gönlüne düşer? Döktüğün gözyaşlarının her şeyiyle sana aşık olan eşinin ruhunda ne yaralar açtığını bilmez misin? Devrim bile gönlündeki kahır tozlarını kaldıramadı mı Yahya'm?...

Kenel köyüne baskın yapılmadan birkaç gün önce köyün giriş ve çıkışlarını gözetlemesi için ordu gözetleme birliklerini göndermişti. Köydeki akıllı kimseler yakında bir süpürme operasyonu yapılacağını anladılar. Gençlere köyün çevresindeki ormanlara ve arazilere çekilmelerini mağaralara ve dere yataklarına saklanmalarını söylediler. Çünkü ellerinde birkaç av tüfeğinden başka hiçbir silah yoktu. Bu nedenle karşılaşma yaşanmaksızın çekilmekten başka çare bulunmuyordu. Bu sırada gökten Allah'ın yardımını da geldi ve bir dakika bile kesintisiz sağanak yağmur yağmaya başladı. Böylece zarar sadece şebbihaların evlerden yağmaladıkları bazı mobilya parçaları, birçok sığır, at ve eşekler, bir de tuzak ve intikam amaçlı olarak şehit edilen üç gençti. Onlar devrimin ilk şehitleri ve dökülen ilk kanıydılar.

Köydeki yaşlılar gençlere savaşın güç dengesi gerektirdiğini söylediler ve tarihi örnek gösterdiler. İslam fetihlerinin sadece duygularla zafere ermediğini, bilakis çok yönlü kuvvet hazırlıklarının yapıldığını söylediler. Romalıların ağır ve hantal altlarına karşılık Müslümanların elinde çevik Arap atları vardı. Onların ağır ve büyük mızraklarına karşı hafif kılıçlara sahiptiler. Savaşa gi-

sinde halka halka olmuş teni onu yalanlıyordu. Hapisten çıktıktan sonra henüz daha eşine karşı eski sevgisine dönmemişti. Bilakis evin geçiminde eşinin maaşına muhtaç olduğu için acizlik hissediyor ve uzun bir sessizlikle gözlerini daima ondan kaçırıyordu. Hatice gizlice kocasının cebine para koyardı. Ancak sonra görürdü ki parayı ya yere ya da yatağın üzerine bırakmış ve ceplerine acizliği doldurarak gizliden çıkıp gitmiş. Hatice uğraşlarından bıkmamış ve usanmamıştı. Evin ihtiyaçlarını bizzat kendisi görüyor, sonra köye evine dönüyordu. Yahya'nın elinde paralar son derece cimrilikle harcanır olmuştu. Zira kömürden kazanılan kuruşlar kendisi gibi karaydı. Ancak ne olursa olsun bu miktar bile Yahya'ya onurunu ve erkekliğini hissettirmeye yetiyordu.

Bu sırada Hatice sabır üzerine sabır eklerken, sırrının kadınlar arasında dedikoduya dönüşmesinden korktu. Sessizce çadırın dışına sıvıştı. Avluda ters çevrilmiş bir sandalye buldu. Sandalyeyi çadırın kapısının yakınına getirerek oturdu ve bu soğuk dolunaylı gecede gökyüzünü seyretmeye başladı. Hava kuru ve tozluymuştu. Sessizce oturup gözyaşlarını serbest bıraktı. Yahya'm neredesin? Yaşıyor musun yoksa şehitler kervanına mı katıldın? Yoksa yaralandın da Türkiye'deki hastanelerden birinde bir başına mısın? Etrafında sana bir bardak su verecek kimse yok mu? Halen daha kahır gözyaşları dökmek için yalnız kalma fırsat arıyor musun? Hala ağlıyor musun? Bilmez misin Yahya'm erkeklerin döktüğü

işaret ediyordu. Hatice de o günden beri suskundu. Soruları ve cevaplarıyla onu sıklmıyor, ne kendisi ne de ailesi için ondan bir şey istemiyordu. Buna rağmen Yahya vaktinin çoğunu evinin dışında geçiriyor, sadece ve sadece uyumak için eve dönüyordu. Her seferinde sebep ne olursa olsun onu uyandırmamasını söylüyordu.

Yıllar böylece devam etti. Kadın sabırla susuyordu. Yanındaki bu kızgın adamla birlikte dul hayatı yaşıyordu. Ancak bir yıl üç aydır, yani devrim başladığından beri hali tamamen değişmişti. Daha etkin ve canlı bir hal almıştı. Hanımına karşı sessiz bir özlem duyduğunu hissettiriyor, onu tutkuyla seviyordu. Sanki geçen yılların özlemini ve mahrumiyetini telafi etmek istiyordu. Ardından aynı tutkuyla gözlerini kaçırıyor ve konuşmak istemiyor, geldiğinden daha hızlı bir şekilde uzaklaşıyordu. Devrimin dokuzuncu ayının sonunda oğlu Hamza dünyaya geldi. Bu dönemde El Haffe'de devrim adına sadece mitingler düzenleniyordu. Yahya baltasını bırakıyor, kömür ocağını çalıştığı kimselere terk ederek bu mitinglerde öncülük yapıyor, sanki askeri bir birliği komuta eder gibi yürüyüşler düzenliyordu. Pankart planlamalarını denetliyor ve yazılacak metinleri seçiyordu. Çok mutluydu ve daima suskundu. Yüz mimiklerinde belirgin bir mutlulukla gösterilerden dönüyordu. Arkadaşlarıyla birlikte yemek yediğini söyleyerek sofranın başına oturmuyordu. Ancak solmuş bedeni ve zayıflığın pençe-

yoluma çıkardığı bir kutsi insan mı? diye düşünürdü. Çoğu kere nazar değmesinden korkar ve annesinin “nime sadece sahibi haset eder” sözünü hatırlar, kendi kendine kıskanıp nazar değdirmekten korkardı. Sonra da verdiği bu nimetten dolayı rabbine şükrederdi. Ta ki o güne kadar...

Yahya deniz kuvvetlerinde bir subaydı. Aynı seviyedekilerin sahip olduğu gibi, komuta ettiği gemide kendisine özel bir odası bulunuyordu. O gün Yahya odasında öğle namazını kılıyordu. Ama odanın kapısını kilitlemeyi unutmuştu. Askerlerden biri odanın kapısını açtı ve sonra hızlıca kapattı. Yahya namazını bitirdiğinde artık o günün askeriyedeki son günü olduğundan emindi. Mevki komutanı soruşturma için kendisini çağırды. Daha sonra kesintisiz dokuz ay boyunca hapiste kaldı. Hanımı ve ailesi bıkmadan usanmadan onu aradılar. Ellerinde avuçlarında olanı olmayanı nüfuz sahibi kimselere ve araçlara rüşvet olarak verdiler. Sonunda onu hapisten çıkardılar. Ancak rütbeleri sökülmüş ve görevden atılmıştı. Tüm suçlularda olduğu gibi tüm medeni haklardan tecrit edileceğine dair siciline kırmızı damga vurulmuştu. Ezgin, hayal kırıklığına uğramış, mutsuz ve neşesizdi. Ailesine döndüğünde sanki tanıdıkları Yahya'dan başka biriydi artık. Ne annesinin sorularına ne de kızının cıvıldamalarına katlanamıyordu. Hanımıyla hiçbir şey konuşmuyor hanımı onunla konuşmaya başlayınca eliyle sus diye

büyükçe iki çadıra doğru insanları yönlendirdiler. Bunlardan biri kadınlara ve çocuklara, diğeri ise erkeklere ayrılmıştı. Kadınlar pardösülerini çıkarıp çakıl taşları serilmiş olan yere serdiler ve çocuklarını üzerine yatırarak yanlarına uzandılar. En şanslıları çocukları olmayanlardı. Onlar çoktan bitkin bedenlerini çakıl taşlarının üzerine bırakmışlar ve sessizce uykuya dalmışlardı. Ta ki bekçiler akşam yemeğini karton tabaklarda getirdiler. Bu sırada kadınların ve çocukların büyük çoğunluğu çoktan uyumuştular.

Halime yol boyunca tetikte beklemiş, soru sormamış otobüsün camından etrafı seyretmişti. Geçtikleri köyleri ve aydınlatma direklerini saymıştı. Yemeğinin yarısını yedikten sonra o da uyudu. Annesi de onun hemen yanına oturdu ve kızının nefes alıp verişini ve boğuştuğu sıkıntılı rüyaların göz kapaklarının altındaki göz seyirtmelerini izlemeye başladı. Hatice oturduğu sırada etrafındaki herkes uyumuştular. Ancak yorgun gözlerine uyku girmiyordu. Hayalinde elindeki en mutlu yıllara, evlilik yıllarına doğru yolculuğa çıktı. O dönem sanki bir rüyaydı. Yahya evden çok zor ayrılır, özlem dolu bir şekilde eve dönerdi. Ne hanımına ve evine ne de ailesine ve komşularına karşı yerine getirmesi gereken görevlerinden hiçbirini unutmazdı. Hatice daima bunun sırrını kendi kendine sorar, acaba Yahya da diğer erkekler gibi normal biri mi? Yoksa o, ben en şanslı kadın olayım diye Allah'ın

lunu ara. Adı Hür'dür. İşte bu da telefon numarası, birkaç dakika içinde sorunu çözecektir" dedi.

Hatice numarayı aldı ve aradı. Hür olumlu ve destekleyici yönde konuştu, iyi haberler vaat etti. Hatice ve diğer köylüler sinirleri bozuk bir şekilde bekledi de bekledi, ancak şeyh cevap vermedi. İki gün ulaşmaya çalıştı ama telefona bakmıyordu. Sonra başka bir telefonda arayınca telefona cevap verdi. Hatice kendisini tanıttı ve Meysere'nin akıbetini sordu. Şeyh özür dileyerek Beytüş Şakuhi köyü ile ilgili etkisinin olmadığını ve isteklerini yerine getirecek bir makama sahip olmadığını söyledi. Meysere'nin kanunlara göre emniyet birimlerine teslim edildiğini de sözlerine ekledi.

Hatice durumu hemen Sait bey'e haber verdi. Şeyhin yalan söylediğini ve kendisine asla doğru söylemeyeceğini ifade etti. Tüm sahil halkı biliyordu ki şeyh Fadıl veya evlatlarından herhangi biri bir köyün girişinde durular yaşlılar bile gençlerden ve çocuklardan önce elini öpmek için yarışır. Hem bahsettiği hangi kanun? Silahlı birliklerle yolları kesmelerine izin verenlerin kanunu mu? Yol kesip göz açıp kapayıncaya kadar konuyu sonuca bağlayanların kanunu mu? Meysere kayboldu ve akıbetini kimse öğrenemedi.

Otobüsler çadır kente ulaştığında Türk bekçiler ve polisler kafiledelikleri misafirperver bir şekilde karşıladılar. Yeni gelenlerin karşılanması için hazırlanmış olan

linde ülkeyi tarumar ederek intikam alacaklar. Bizi hiç bir şekilde bizim savaşımız olmayan bir savaşa çekmek istiyorlar. Öyle değil mi? Bu rejim inmeyi ve gitmeyi aklından geçirmeye bile tahammül edemiyor. Aynı şekilde halk da rejimin yerinde kalmasına tahammül edemiyor. Ama başaramayacaklar. Onlara bu fırsatı asla veremeyeceğiz. Rejimin bize dayattığı şiddet ve askeri baskının psikolojik etkilerinden halkı kurtarabilmek için tonlarca akla ve karınca misali çalışmaya ihtiyacımız var...”

Sait beyin sözleri Hatice’yi rahatlatmıştı. Ancak her ikisi de biliyordu ki rejim ile aynı mezhebe mensup olan muhalifler seslerini karar sahiplerine asla ulaştıramayacaklardı. Eğer kalabilirlerse “Ez’afül iman”1 babında böylece kalacaklardı. Yine de kendisiyle yeni bir konu açmaya çalıştı. Beytüş Şakuhi köyünde amcasının oğlu Meysere’nin tutuklandığını haber verdi. Meysere dinine bağlı bir gençti. Motosikletiyle El Haffe çatışmalarında yaralananları Cebeli Ektrat’taki meydan hastanesine taşıyan aracın önünde yol açarken silahlı bir şebbiha grubu tarafından durdurulmuş, motosikletine el konulmuş ve kendisi de tutuklanmıştı. Sait bey olayın sükunetle halledilmesi gerektiğini söyledi ve “Köylerimizde fitne ateşini tutuşturmak istemiyoruz. Sen Şeyh Fadıl Gazzal’ın öğ-

1 “Kişi bir kötülük gördüğünde onu eliyle düzeltsin. Buna gücü yetmiyorsa diliyle düzeltsin. Buna da gücü yetmiyorsa kalbiyle buğz etsin ki bu imanın en zayıfıdır” (Tirmizi- Fiten -11)

demmişti; “Devlet adamlarının yaptığı bu delilik kendi gevşekliklerinin ve devrimin Şam’daki karargahlarına kadar ulaşmasından korkmalarının bir neticesidir. Bu nedenle Humus’a yoğunlaşıyorlar. Özgür ordunun yakında başkente ulaşacağı yönünde söylentiler var. Bu nedenle şiddetin zirveye ulaştığını görüyoruz. Kuvvet dengesinin olması lazım. Yoksa durum bir halk devriminden mezhep çatışmasına dönüşecek ve halk birbirini kırmaya başlayacak. Devlet ise seyirci konumunda kalacak ve ardından kendi devlet rolünü üstlenerek birbiriyle savaşanların arasını ayırarak. Sonrada basın aracılığıyla halkı silahlı terör örgütlerinden koruduğu yönünde yalan haberler yayacaklar. Bunu da sadece şebbiha sürüleri ve korkutulmuş gruplar kabul edecekler. Sadece kendi yardımcılarını aynı safta toplayabilecekler. Bu köpekler bizzat kendileri insanları etnik ve mezhepsel çatışmalara sevk ettiler. Durum bundan ibaret ve sadece daha fazla sürece halkın sırtına binebilmek için. Bu vahşiler sadece insanları ve hayvanları öldürmüyorlar. Bilakis insanların gönüllerindeki iyilik pınarlarını da kurutuyorlar. Toplum hakkında sadece kendilerine bağlılığa devam etmelerinden başka bir şey umurlarında değil. Nefretler ürettiler, halkı galeyana getirdiler. Terk etmeleri ha-

– Anne... Nesibe ninenin aç kaldığı gibi bizde aç kalacak mıyız?

Hatice cevap vermedi. Uyuyormuş taklidi yaparak gözlerini kapattı. Aslında küçük kızın cevap veremediği sorularından kaçıyordu. Şimdi Halime, ninesinin yaşadığı göç yolculuğunun ayak izlerinden yürüyordu. Zihninde halen daha ninesinden dinlediği hikayelerle şu an gözlerinin önünde gerçekleşenleri birbirinden ayırmaya çalışıyor, ancak başaramıyordu. Bu nedenle de hep daha fazla soru soruyordu.

– Anne uyudun mu? Anne... Büyük bağı sattığınız gibi bir teneke un karşılığında bizim evi bir de ninemin bağını satacak mısınız? Anne o unlar yeniyor mu?

Küçük kız çantasından hikayeleri çıkarıp çıkarıp zihninde canlandırıyor. Kuşatılan köyler, yakılan ekinler, otları ormanlardaki meşe kozalaklarını ve keçiboynuzlarını yiyen insanlar.. Bir sürü insan açlıktan ölmüş, bahçeler ve evler azıcık yiyecekler karşılığında satılmış. Hamit Taha iki altın liraya bir somun ekmek almış, ancak eve döndüğünde yesin de doysun diye ekmek aldığı kızının hayatını kaybettiğini görmüş...

Acaba Sait bey şimdi neredeydi? Şam'daki evinden sürgün mü edilmişti? Yoksa mezhepsel kökeni kendisini güvende mi tutmuştu? Evden ayrılmadan önce Hatice'ye internet üzerinden kendisiyle yaptığı bir görüşmede söyle

İkindiden birkaç saat sonra insanlar otobüslere toplandı ve yola çıkarıldılar. Kimse nereye gittiklerini bilmiyordu. Bomba sesleri uzaklaşmaya başlamış ve gittikçe kaybolmuştu. Otobüsün gürültüsünden ezan sesleri duyulmuyordu. Derin sessizlik dudakları kilitlemiş neredeyse kalpleri durduracaktı. Çocuklar korkuyla annelerine sarılmış ve soru sormayı bırakmışlardı. Bazıları kendilerini korkudan derin uykuya bırakmışlardı. Bazıları ise gözleri açık boşluğu seyrediyorlar ve nereye gittiklerini bakıyorlardı. Kimse bir şey bilmiyor ve kimse bir şey sormuyordu. Bu derin sessizlik çocukların daha da fazla korkmasına neden olmuş ve kimisi ağlamaya başlamıştı. Kimisi ise karın ağrısı ya da baş ağrısından şikayet ediyordu. Çoğunluğunun başı dönüyor ve keskin mide bulantısı nöbetleri geçiriyorlardı. Anneler şimdiye kadar hissettiklerinden çok daha fazla acizlik hissetmeye başlamışlardı. Yolcuların ağırlarından başka hiçbir şey hissetmediği bu yolda otobüsler karanlığın içerisinde kükreyerek ilerliyordu.

Kendi kamyonet şoförünün yanına oturdu. Hanımı da kucığında uyuyan kızıyla kocasının yanına oturdu. Bu yolculuk şu an yaşadıkları yolculuğa benzese de bir noktada ayrılıyordu. Çünkü o zaman yanında Yahya vardı, ancak şimdi yoktu.

Hiçbir şey sormadı Hatice. Sadece tahmin etti ve tahmininde doğru çıktı. Yahya köye dönme kararı almıştı. Köydeki ve çevre köylerdeki ormanlardan ağaç kesecek ve onları kömüre dönüştürecek. Böylece başı boş gzmekten kurtulacak ve kendine bir geçim kapısı açacaktı. Küçük sandıklar satın alabilecek, içinden oyuncaklar çıkacak, kızı Halime'nin rüyaları gerçek olacak ve şarkılar söyleyecekti.

Onu kaç defa teselli etmeye çalışmıştı. Ev ve içindekilerin halen daha onun parasıyla döndüğüne ikna etmek için ne kadar çabalamıştı. Ancak kendisi de biliyordu ki kocası her şeyin farkındaydı. Bileziklerini bile satıp biriktirdiği paraya katmış, hatta evin bazı mobilyalarını satmış, parasını kocasını askeri muhaberattan kurtarmak için harcamıştı. Bu nedenle sözleri onu sakinleştirmiyor, bilakis daha fazla infial uyandırıyor ve ağlayacak noktaya getiriyordu. “Ben işimi kaybettiğim ve askeri rütbelerimden soyutlandığım için ağlamıyorum. Ancak biz nasıl dinimize ve itikadımıza böyle bir alçaklık vermişiz? Nasıl onurumuzu yerlere serip sabretmişiz? Bu hiç Allah katında sabır sayılır mı? Bizden önceki nesiller niçin sabretmiş? Bu canileri bizleri yönetmeye mecal bulmaya niçin bırakmışlar? Allah bunu bizim yanımıza bırakmaz. Kendi kendimize yaptığımız, kendi aleyhimize işlediğimiz bu günahımızı bizden asla affetmez. Allah bu ezikliği bizi bizden bağışlamaz...”

Aynı gün gece geç saatlerde Yahya eve döndü. Kapının önüne bir kamyonet durmuştu. Hanımını uykudan uyandırdı ve evden ihtiyacı olan şeyleri toplamasını söyledi. Köydeki dedesinin evine taşınmaya karar vermişti. Bu kesin bir karardı ve tartışılmazdı. Hatice evdeki elbiseleri ve kap kaçağı topladı. Eşyaları karton kutulara koydu. Yahya ise dolapları söküyor, yatakları topluyordu. Sonra taşımaya yardım etmeleri için hamalları çağırırdı.

madığını gördü. Yatak odasına girdiğinde kocasını çıplaktı. Elbise dolabında bir şeyler arıyordu. Sırtındaki ve omuzlarındaki kamçı izlerini ve mor mavi benekleri görünce dehşete düştü. Acaba neden olmuştu. Kocasını hanımının girdiğini anlayınca hızlıca yatağın çarşafıyla sırtını kapattı ve bağırarak hemen odadan çıkmasını istedi. Hanımı bu isteğe uydu, sessizce çekildi, kapının arkasındaki koltuğa oturup seyretmeye başladı. Gözlerinden fırlamak üzere olan gözyaşlarını dindirmeye çalışıyordu. Ancak kızı anlamasın diye kendini tuttu. Bir müddet sonra kocası daha önce giymemeye karar verdiği eski bir pantolonla gömleği giymiş olarak odadan çıktı. Hızla kapıya yöneldi, kapının kulpunu sertçe çekti ve hiçbir şey demeden çıkıp gitti. Geride dağlar kadar sabır yükünü yüklenmiş hanımını bıraktı. Küçük kız ise şaşkıncı. Önünde olanların ne anlama geldiğini bilmiyordu. Yeniden ağlamaya sığındı.

Hanım işlerini tamamladı. Üzerini giyindi ve kızını okula götürdü. Ardından içine attığı kahırla birlikte işine yöneldi. Öylesine nadide bir adamın hapishaneden çıktıktan sonra hissettiği aşağılık duygusunu anlamıştı. Gördüğü işkencenin bedeninde bıraktığı izleri en yakınlarından bile gizliyordu. Bedenini kendi hanımına bile göstermiyordu. Omzundaki yıldızları sökülerek işten kovulduktan sonra yaşadığı işsizlik ve hanımının maaşına muhtaç olmanın ne denli kahredici olduğunu anlıyordu.

Dördüncü Bölüm

Halime'nin ailesinin hayatında önemli bir sabahı. Anne sabah kahvaltısını hazırlıyor, Halime ise kucığında oyuncak bebeğini sallıyor ve şarkı söylüyordu;

Babam bana sandık getirmiş,
Sandığın içindeki acaba neymiş,
Renkli renkli şekilli şekilli,
Acayip acayip şeyler varmış,
Yükseğe zıplayan top ...

— Sus!.. -Baba azarlayarak kızgın sesle bağırdı.- Baban sana hiçbir şey getirmedi. O işsiz. Karısının kazandığını ekmeği bekliyor.

Küçük kız bir müddet sustuktan sonra acı acı ağlamaya başladı. Mutfağa annesinin yanına koştu. Ben babamı kızdıracak ne yaptım anne diye sordu. Annesi kızını kucağına aldı. Korkusunu gidermeye çalıştı. Babasının başının ağrıdığını, belki de yüksek sesle şarkı söyleyince rahatsız olduğunu ve ağrısının arttığını söyledi. Tabakları sofraya koymak için geldiğinde kocasının yerinde ol-

rüme emri verdik. Suyun bulanık olduğunu görmüştün değil mi? İşte domuzlar geçtiği için bulanıktı.”

Zeynep hanım ileriden gidenlerin yanına yetişti. Onların dağınık zihinlerine de hikayeyi anlattı ve gençleri büyüttü de büyüttü. Diğer tüm kadınlar gibi o da polis merkezinde adını kaydettirdi ve herkesin arasına katıldı. Meydanda kendi kabilelerinden önce buraya gelmiş çok sayıda erkek, kadın ve çocuk vardı. Türk polisler bisküvi ve şekerleme gibi bazı hafif yiyecekler ve çay ikram ettiler. Çadır kentlere götürecek otobüsleri dolduracak kadar yeterli sayıda kişi toplanması için öylece açık havada beklettiler. Çocuklar yemek gelmesini beklemedi. Bitkin vücutlarıyla yere serildiler ve uykuya daldılar. Çocuklar uyumuştur ama büyükler nöbetteydi. Sessizce düşünüyorlardı. Ya da belki de hiçbir şey düşünmüyorlardı. Akıllar da kalpler de donmuştu. Neler neler yaşamışlardı. Acaba gelecekte neler yaşanacaktı? El Haffé çatışmaları git gelleri ile birlikte on gün kadar sürdü ve devasa ordu birliklerinin lehine sonuçlandı. Onlardaki silahlar direnişçilerde yoktu. Bölgeyi içindeki her şeyle birlikte teslim etmekten başka çare kalmamıştı ve sonunda bu göç gerçekleşmişti. Bekledikleri yer sakin bir yer değildi. Diğer sınır vilayetlerinden peş peşe gelen gruplar ve aileler birikiyordu. Sonunda yeterli sayı toplandı.

Kafile şafak vakti Türkiye sınırındaki polis merkezine ulaşmıştı. Jandarmalar kafileyi etrafı dikenli tellerle çevrili büyükçe bir alana aldılar. Zeynep hanım gözleriyle işin sırrını söyleyeceğini vaat eden genci kesiyor ve onu arıyordu. Bir ara gözüne ilişince hemen koştu ve sorularıyla sıkboğaz etmeye başladı. Genç gayet sakin bir şekilde kendisi ve arkadaşlarının her gün göç kabilelerine refakat ettiklerini söyledi. “Biz bu yolları avuçlarımızın içi gibi ezberledik ve etrafın haritasını çok iyi biliyoruz. Ama oradan bir domuz sürüsü geçiyordu. Ben ve arkadaşlarım kadınların domuzları görüp korkudan bağırmasından korktuk. Çünkü bağırma sesi bu hayvanları harekete geçirebilirdi ve nasıl tepki vereceklerini bilmiyorduk. Belki de bu bağırımlar Suriye ordusunun dikkatini çekebilirdi ve o zaman felaket olurdu. Bir de Türk jandarmasının dikkatini çekerse kafile iki ordu arasında yaşanabilecek çatışmanın arasında kalabilir ve daha büyük bir felaket yaşanabilirdi. Bu nedenle iki şerden hafif olanını tercih ettik. Çocukların daha fazla ağlaması kimseye zarar vermezdi. Domuz sürüsü uzaklaşınca tekrar yü-

Birkaç adım sonra gençler kafilenin önünde durdu ve önlerinde genişçe bir dere olduğunu, suya düşmemek için dikkat etmeleri gerektiğini söylediler. Çocuklar susuzluğun ateşiyle bir kez daha su içmek için sürünmeye başladı. Gençlerden biri bir şey bulmak için küçük çakmağının ışığını tuttu ve dikenliklerin, çalı çırpıların arasına girdi. Az sonra elinde boş iki plastik kap ile döndü ve içlerini suyla doldurdu. Sonra kafiye devam etme emri verdi. Kafiledekiler su bulunduğundan dolayı sakinleşince, karınlar açlıktan guruldamaya başladı. Çocuklar yemek istiyor, büyükler ise sabretmelerini, yakında yemek bulacakları ve rahat edecekleri yerlere varacaklarını söylüyordu.

Ezgin ve yaşlı kadın Zeynep hanım acılarını unuttu ve kafilenin önünde giden gençlere yetişmek için adımlarını hızlandırdı. Birinin kollarından tuttu ve fısıldayarak orada niye durduklarını ve niye yerli yersiz kahkaha attıklarını sordu. Genç de aynı fısıltıyla, ancak kafiye güvenli bir yere vardıktan sonra kendisine anlatabileceğini söyledi.

Ah Őu gençler! Őu dere den sonra mola vermeleri gerekmez miydi? İinden bir sűrű saydı durdu. İlk fırsatta gençlere hi de hoŐlanmayacakları sűzler sűylemeye karar verdi. Onlara ocuklar ađlarken bu yersiz gűrűŐmelelerinin sebebini soracaktı. Ama sessizce yűrűmeye devam etti. Kafasında űlűp biiyor, bűylesine zorlu bir yolculuk esnasında yaptıkları Őamatadan dolayı hak ettikleri lafları semeye alıŐıyordu. Bu sırada gençlerden birinin sesi dűŐűncelerini kesti. Birka adım sonra daha bol ve daha temiz suyu olan bir dere daha gűreceksiniz. Haydi peŐimden gelin. Őimdi daha da kızmıŐtı. Sinerden elleri ayakları titremeye baŐladı.

Kafile baŐka bir yoldan gitmek iin ayrılan Halil DerviŐin kız kardeŐlerinin vedası sonrasında sadece ađlayanların hikırıklarının bozduđu bir sessizlikle yoluna devam etti. Kızlar ađabeylerinin kendileri iin kiraladıđı eve dođru yűneldiler. Cihat yolculuđuna artık buradan devam edeceklerdi. ocuklar yine dereye koŐtular, susuzlukla daha gememiŐti. Zeynep hanımın ayađı kaydı ve yolun kenarında kıŐ sellerinden oluŐan kuru bir ukura dűŐtű. İmdat diye bađırınca gençler koŐup geldiler. Biri arkasından ukura indi ve ıkmasına yardım etti. Diđeride elinden tutup Zeynep hanımı yukarıya ekti. Kadınlar etrafında toplanıp kolunu bacađını yokladılar ve kırılan bir yeri var mı yok mu kontrol ettiler. Ardından herkes yűrűmeye devam etti.

güçsüz bedenlerini engebeli yola boylu boyunca sererek bir nebze dinlenmek için uzandılar. Gençler birbirleriyle boş boş konuşmaya ve yüksek sesle kahkahalar atmaya başladılar. Ne kahkaha atılacak yerd, ne de konuştukları kahkaha atılacak şeylerdi. Yaşlılar içten içe kızmaya başlamışlardı. Burası hiç gırgır şamata yapma yeri miydi? Niye istirahat için durmuştuk? Halbuki bir önceki mola dan sonra kafil e daha çok kısa bir yol almıştı. Mola da gençlerin kahkahaları da uzadı da uzadı, aniden ve sebepsiz yere.. Sonrasında kafil e ye yürümelerini işaret ettiler, buldukları yerin sadece birkaç adım ötesinde su pınarı bulunduğunu müjdelediler. Bazı anneler gençlere içten içe söylendi. Nasıl böyle dalga geçerler, çocukların ağlamasını görmezden gelirlerdi. Kafil e karanlıkta birkaç adım yürümüşü ki gençler ellerindeki çakmak ışıklarıyla engebeli ve kaygan yolu aydınlattılar. Yerde ışığı cimrice yansıtan su parlıyordu. Çocuklar bu büyük keşfin onuruna sevinçten bağır dılar. Küçücük bir derenin bulanık suyu taşlarla toprak arasında usulca akıyordu. Çocuklar kimsenin emrini beklemedi. Kendilerini yere atıp suyu avuçlamaya başladılar. Zaten yanlarında ne su içecek kapları vardı, ne de bir şey aramak için sabırları. Yaşlılar ağlamaya başladılar. Kurtuluşa erdirmesi için feryat ederek Allah'a yakardılar. Bu sefalete sebep olanlara bildikleri tüm bedduaları ettiler. Zeynep hanım mola yerine birkaç adım yakınlıkta su bulunduğundan dolayı kızdı.

yandığını söylemişti Hatice; “Döndüğünde barut kokusundan başka bir şey koklayamayacak..” “Çam kökleri ölmez. Eskisinden daha yeşil ve daha gür fidanlar yeşerecek. Vatan zalimlerden kurtuluşa erecek. Bıraktığımızdan daha güzel ve daha sıcak bir yurt olacak” diye cevap vermişti Sait bey. Söylediklerine inanıyor muydu? Yoksa sadece iyi hissettirmek için mi?

Gece uzadıkça uzuyor, karanlık git gide artıyordu. Bazen neredeyse bir kişinin bile zor geçeceği kadar daralan yolda kafile ağırca ilerliyordu. Yolun iki tarafında orman ağaçları göz kapakları gibi kenetlenmiş dikenlerini yayıyorlardı. Yaşlılar gibi çocuklar da iyice yorulmuşlar. Ancak Türkiye'nin Yayladağı ilçesine varıncaya kadar yürümeye devam etmekten başka bir yol yoktu. Halil Derviş şehit olmadan önce henüz daha ayrılığı nedeniyle gözyaşları kurumamış olan bacılarının sığınması için burada bir ev kiralamıştı. Çocuklar iyice susadılar ve ağlamaya başladılar. Ne yolda ne de kafiledekilerin yanlarında bir damla bile su yoktu. Büyükler çocukları hoş sözlerle avutmaya çalışıyorlar, yakında yemek ve su bulacaklarını, rahat edeceklerini vaat ediyorlardı. Ama çocuklar daha fazla ağlıyor, sudan başka bir şey istemiyorlardı. Şu ürkütücü ormanda su ne kadar da değerli bir şey olmuştu!

Kafilenin önünde giden iki genç istirahat işareti verdi. Yaşlılar hemen toprağa çöktüler. Çökmek de yetmedi,

- Anne... Çanta benimle gelmek istemiyor.
- Bırak o zaman, peşimden gel.
- Elbiselerimiz?
- Bırak hadi, yetiş bana...

Onlarca çanta, büyük küçük poşetler ve elbise bohçaları... Sahipleri tarafından yolun kenarına bırakılmış... Onca uzun mesafeden sonra artık taşımaya güçleri yetmediği için... Çantalarından ve içindekilerden vazgeçmişler. Elbiseler eşyalar ve hatıralar... Çocuklarını kurtarmayı tercih etmişler. Sefalet yolculuğuna ya da belki de umut yolculuğuna devam etmişler. Dedelerinden duyduklarını zihinlerinde canlandırmışlar, benzer detaylara sahip hikayeleri.. Yönelişleriyle ve çalkantılarıyla aynı sebeplere ve aynı sonuçlara sahip hikayeleri... Kafileyi gölgesi altına alan ve seferinde, molasında ona eşlik eden umut bulutu ile birlikte.. Yolun sağına soluna dağılmış eşyalar... Daha önce aynı yerde daha fazla dayanamayıp kalan ve yolun sağına soluna defnedilen meçhul bedenler gibi...

Çam kokusu, tüm güzelliğiyle ve keskinliğiyle burunların direğini sızlatıyordu. Hatice bu ortamda Sait bey'in hapishane arkadaşı olan şairin sözlerini hatırladı; "Döneceğiz.. Göğsümüzü çam ve dağ kekiği kokusuyla doldurmak için... Vatanımızı daha fazla sevmek daha fazla bağlanmak için..." Çam ve meşe ağaçlarının hepsinin

anlaşma yapmışken, Fransızlar onun gönlünü hayallerle doldurmuşlar ve eski mezhepçilik tohumlarını onun kalbine ekmişlerdi. O da yolundan dönmüş ve Fransızlarla birlikte saf tutarak Siyonlulara karşı savaşmaya başlamıştı. Onları kuşatıp aç bırakmış ve hiçbir yiyecek girmesine izin vermemişti. İnsanlar açlıktan etraflarındaki ormanlarında bulunan otları, keçiboynuzu meşe ve pelit kozalaklarını yemek zorunda kalmışlardı. Fransız orduları ile bir olup askerleriyle köylere baskın yapmış, yağmalamış, yakmış, yıkmış ve öldürmüştü.

Sanki devamlı ninesinin yanında olan küçük kızın zihninde olaylar iyice karışmıştı. Aslında kendi ninesi değildi, babasının ninesiydi. Annesinin memurluk vazifesi ile meşgul olduğu dönemde, evde yokken ninesi ile beraber kalıyor, hikayelerini dinliyor ve şarkılarını ezberliyordu. Bu akşam yaşadıkları hikaye ise ninesinin hikâyelerine çok benziyordu. Yoluna çıkan her şeyi yiyip bitiren bir savaş ve onlarca yıldır yaşadığı aşağılık ve utanç sonrasında insanlığını isteyen bir halk. Ve yüzlerinde hissettikleri zorba bir güç... Her şeyi yıkan, vatanlarından ve yakınlarından uzaklaştıran...

— Anne artık sırtımdaki çantayı taşıyamıyorum.

— Elinde tut o zaman.

Sivri taşları olan topraklı yolda çantayı birkaç adım sürüklemeye çalıştı. Çanta artık neredeyse yerinden hiç oynamayacak hale gelmişti.

rında ezberlediği şarkılardan söylüyordu. Aslında ninesinin hikayelerinde ve televizyon ne de çakmaklar vardı. Ama tüm bunlar rüya değildi. Aksine apaçık ortada olan bir gerçektir. Annesini durdurmaya çalışıp sordu; “Anne nereye gidiyoruz?” annesi içten içe ağlarken cevap veremedi. Gençlerden biri Halime’yi omzuna aldı ve şarkıya devam etmesini söyledi.

Halime genç adamın omzunda biraz rahat etti. Yüksek sesle nağmeleri haykırıyor, ardından da diğer çocuklar tekrarlıyordu; “Suriye’ye özgürlük gerek...” Çocukların sesleri yavaş yavaş azalmaya başladı. Yorgunluk ve korkudan şarkıya devam edemediler ve kendilerini suskunluğa teslim ettiler. Halime ağaçların dallarının yüzüne ve göğsüne vurup duran tokatlarından acıyla ağlamaya başladı. Genç adamın omzundan sarkarak annesine dönmeyi istiyordu.

— Anne babam nerede? Niye bizimle birlikte değil? Aziz dede ve yanındaki savaşçı çeteler nerede?

Annesi babasının dağdaki savaşçılarla birlikte olduğunu köylerini ve evlerini savunduğunu söyledi.

— O zaman Nesibe ninemin kardeşi Aziz dede nerede? Atı nerede? Çete nerede? Ali Bedur yeniden mi geldi?...

Halime bu isimlerin hepsini nenesinden öğrenmişti. Ancak bilmiyordu ki; dağ bölgesinde bir lider olan Ali Bedur Siyonlularla birlikte Fransızlara karşı savaşmak için

mişti. Ama eşyaları taşıyan eşek ve katırlardan, kafilenin yanında sürü halinde gelen inek koyun ve keçilerden bahsetmişti. Etrafına defalarca bakındı. Ama yorgun kafilide ninesinin anlattıklarından bir eser bulamadı. Annesi kızının elinden sıkıcı tutuyor ve her seferinde daha hızlı gitmesi gerektiği konusunda uyarıyordu. Küçük kız bir ara sağ elini göğsüne koydu. Bu uzun yolculukta taşıyabileceği elbiselerini koyduğu bohçasını sırtına sarkıttı. Annesi ağlıyordu. Allah Allah... O kocaman güçlü annesi çocuklar gibi niye ağlardı ki? Yoksa ninesinin hikayesi mi ağlatmıştı. O gidip evi süpürse, yemek pişirse ve çamaşırları yıkasa ya! Bıraksın iki Halime'yi, nine ile torununu da hikayenin kalanını tamamlasınlar...

Halime annesine yetişebilmek için hızlı yürümeye çalışıyor, etrafında bakınarak rüya gördüğünü söyleyen bir şeyler bulmaya çabalıyordu. Daha ninesinin hikayesi tatlı bir şeker gibi mutlu sonla bitecek, sonra annesi onu kucaklayıp sıcacık yatağına götürecekti. Ancak yol engeliydi. Gözleri kervanın önünde gidenlerin ellerindeki çakmıklardan veya cep telefonlarından çıkan ışıklardan başka etrafta hiçbir şey görmüyordu. Büyükler çocuklardan devrim şarkılarını söylemelerini istediler. Kelimeler yavrucukların bitkin dudaklarından titrek titrek dökülmeye başladı. Kervana eşlik eden gençler seslerini yükselterek çocuklara destek oluyorlardı. Halime de o güçlü ve saf sesiyle televizyonun karşısındaki uzun oturuşla-

ağaçların uyarılarını umursamıyorlar, kimi az kimi çok yüklendikleri eşyalarıyla umut yolculuğuna devam ediyorlardı. “Dedelerimiz de bizden önce bu yollardan geçtiler. Sonra daha güçlü, daha olgun ve nitelikli olarak döndüler. Vatana daha fazla sarıldılar ve yeniden inşası için daha canla başla çalıştılar.”

Ninesi anlatmaya devam ediyordu. “Ormanı geçtikten sonra Ektrat dağına ulaştık. Önce Dorin köyü geliyordu. Bir müddet burada kaldıktan sonra Salma köyüne geçtik. Kardeşim Aziz ve çete arkadaşları ellerinde tüfekleriyle atlarına binmişler, etrafımızda saf tutup kuşatarak kabileyi koruyorlardı. Manzara gönülleri galeyana getiriyor ve arzuları kabartıyordu. Çiftçiler korkuyla köylerinin sınırında duruyorlar ve verilen emirleri dinleyerek kafilemize yaklaşmıyorlardı.” Küçük kız ninesinin sözlerini hafızasından çıkarıp çıkarıp duruyordu. Kafile Dorin köyüne ulaştıktan sonra gözleri kafilenin etrafındaki atları ve çeteyi aradı. Kafilenin yanında, önünde ve arkasında yürüyen eli silahlı adamların gölgelerini gördü. Ancak dedesi Aziz aralarında değildi. Ali Fahrettin, Ebu Ubeyde, Ebu Malik ve Ebu Bedi’yi görüyordu. Gördüğü insanların kimisini tanıyor, kimisini ise tanımıyordu. Bazı motosikletliler yanlarından hızla geçiyor ve kafilenin etrafında dolaşıyorlardı. Sonunda kafile ormanın derinliklerinde bir patika yola girdi. Çete ise başka göçmenlere refakat etmek için geriye döndü. Ninesi bunlardan hiç bahsetme-

şekerleme ve dondurmalarından alırdı. Sonra da bu abur cubur ziyafeti ile birlikte hikayenin kalanını nenesinden dinlemek ve keyfine devam etmek için gelirdi.

Ninesi Nesibe bir sene önce ölmüştü. Cenazesinde bir sürü adam ve kadın toplanmışlar, kadınlar sessizce ağlamışlardı. Kasetten çalan Kur'anı Kerim tilaveti ortama daha ürkütücü hale getiriyordu. Hatice kızına ölenlerin toprağa gömüldüklerini ve bir daha ailelerine hiç dönmediklerini, onu sadece rüyalarda görebileceğini söyledi. Eğer güzel işler yapmışlarsa, yalan söylememiş ve hırsızlık yapmamışlarsa cennete giriyorlardı. Minik kız annesinin söylediklerini kabul etmiş ve ninesi Nesibe'yi bir daha hiç görmemişti. Ancak bu gece durumdan şüphelenmeye başlamıştı. Ninesi Nesibe niye toprağın altından çıkmıştı ve korkutucu bir edayla hikayelerini yeniden anlatmaya başlamıştı. Gözlerine niye uyku girmiyordu. Gördükleri rüya değildi, çünkü uyumuyordu. Nesibe nine neredeydi? Hani neredeydi onun sıcacık kucağı ve yumuşacık tertemiz yatağı?

Yol biraz doğuya doğru gittikten sonra kuzeye yönelerek ormana giriyor ve kfile iki tarafına rastgele orman ağaçlarının saf tuttuğu dikenli dar yolda ilerliyordu. Ağaçların dalları yoldan geçenlerin yüzlerine çarpıyor, elbiselelerini çekiyor, parçalıyor ve dikenlerini tenlerine batırarak adeta haykırıyordu. "Bizim gibi olun! Vatanınıza sarılın! Vatanını terk edene fakirlik gelir." Ancak kfiledekiler

— Hadi kızım hızlan! Birazdan rahat edeceğimiz bir yere varacağız. Haydi bir tanem..

Hikayenin bu bölümünde Halime'nin gözleri uykudan seyirmeye başlamış, Halime'yi kapıp rüyaların etkileyici bahçelerine kaçırıyordu. Ama göz kapakları bu uğursuz gecede inatçılaştı ve Halime'yi bir kabustan başka bir kâbusa çekiyordu. Dikenlerin çizdiği bacaklarını ovuşturmak için ellerini uzattı.

— Şimdi diken çıkarma vakti değil - diye seslendi anesi-. Kafile bizi geçti kızım. Bizi bu zifiri gecede ormanda kaybetme. Hadi kızım...

Ninesinin yüzündeki kırışıklıklar yüz yaşını bir miktar geçtiğini hissettirirdi. Evlerinden sürgün edilen insanlarla birlikte köyden Zaviye dağına yaptıkları yayan göç yolculuğunu her gün anlatır dururdu. Ninesinin çocukluğunda yürüdüğü yolları sanki görür gibi hayal ederdi. Hatta bu yağmurlu kış gününde balçık çamurlarda ninesinin ayak izini sanki görürdü. Havanın ısırın soğukluğunu her yerinde hisseder, adını koyan ninesinin anlattıklarını tutkuyla takip ederdi.. Bakışları ninesinin dişsiz ağzına, buruşuk dudaklarına, bir de çamaşırının arasına sakladığı kesesine odaklanırdı. Hiç dişi kalmamış ağızla hikayeler anlatarak keyif verirdi. Para kesesinden de bozuk paralar vererek mutlu ederdi. Hemen koşarak Hacı Bedi'nin dükkanına gider, canın çektiği

Üçüncü Bölüm

— Hadi Halime koş, hızlı! Hadi daha hızlı kızım, sıranın en sonunda kaldık, herkes bizi geçti. Geri kalırsak yolda kayboluruz. Ormandaki vahşi hayvanlar bizi yakalar, etlerimizi parçalarlar. Hadi kızım daha hızlı.

Küçük kız koşmaya çalışıyor, ancak bitkin düşmüş bacakları bırakmıyordu. Ağlayarak ayaklarını toprağın üstünde sürüklüyordu. Yoksa ninesi Nesibe'nin hikayesi bitmemiş miydi? Arkaya doğru baktı. Karanlık etrafındaki her şeyi kuşatmış, sadece annesinin elbisesinin eteğine kadar görebiliyordu. Kendi kendine -acaba uykuda mıyım?- diye soruyordu. Sanki yan odadan babasının arkadaşlarıyla muhabbetini dinliyor, yükselen tantana içerisinden birkaç lafi anlamaya çalışıyordu. Babası ve arkadaşları kağıtlarla oynuyorlar, Halime'nin çocuk aklının idrak edemeyeceği konularda yüksek sesle konuşuyorlardı. Ayakta rüya görüyordu. Etrafta ormanın ağaçlarının arasında uğuldayan ve sedası yaralı bir vahşi hayvanın bağırtısı gibi vadide yankılanıp duran rüzgar sesinden başka hiçbir şey duyulmuyordu.

— Ama çok olanlar cesarete yenilir. Bu mezhep savaşı bir soykırım. Görmüyor musunuz?..

Sait bey o gün cevap vermemişti. Belki elektrikler kesilmiş ya da internet gitmişti. Belki de cevap vermek istememişti. Sait bey'in mesajını bir sonraki gün gördü. Sanki konuşmaları hiç kesilmemiş gibi cevap veriyordu.

— Bence bunun sebebi rejimin insanların kalbinde oluşturduğu evham, korku ve ürkeklik. Tabi bir de siyasi konumlarının bağlı olduğu tarihi çalkantılar da var. Bence Suriye'de bir vatandaşlık ve hukuk devleti kurulacak. Şu azınlıklara ait taassup sahibi kimselerin kendilerini düşmeye yüz tutmuş rejimin değil sadece hukukun koruyabileceğini bilmelerini ne kadar isterdim. Bu rejimin gözü hiçbir şey görmez, hatta tüm halkı feda etse bile.. Rejim sadece kendi grupları için çalışır. Her dört kişiden bir grup oluşturur. Yönetimi ele geçirdiğinden beri hep böyle yapmıştır. Tarihe baktığınızda bunu göreceksiniz. Biz ise bütün imkanlarımızla vicdanımızın ve insanlığımızın gereğini yerine getirmeye çalışıyor, ailemize, ülkemize ve vatanımıza olan sevgimizle mücadele ediyoruz. Önemli olan... El Haffe'ye yapılan bu saldırının mümkün olduğu kadar az zayıyla son bulmasını ümit ediyorum.

Sait bey bu kadar sözü nereden buluyordu?..

Fayha da oturmuş kendi kızlarına dantel örmeyi öğretiyordu. Hatice ise yeniden kendi dünyasına dalmıştı. Sait bey ile konuştukları hafızasında taşta kazınmış gibi duruyordu. Adam kültürlüydü. Kendi yurttaşları tarafından zulme uğramıştı. Aynı mezhebe sahip kimseler bile korunmamıştı. Zulmün ne dini nede mezhebi vardı. Sait bey ile aralarında geçen son konuşmada El Haffe'de şu anda tam bir savaş yaşandığını söylemişti. Rejim uçaklarla topraklarla ve ellerindeki tüm silahlarla halka savaş açmış, alevi köylerine kurulan mevzilerden El Haffe'nin bombardıman ediliyordu. Ne kadar rezil, ne kadar alçakça bir şeydi. Mezhepçilik ateşini yakmışlardı. Mahzun bir şekilde sordu.

— Peki Golan tepeleri kurtarılabilir mi? Yoksa tarihi mi düzelterekler? Sizi de düşman görüyorlar mı? İtiraz ederken niye sesinizi daha yüksek çıkarmıyorsunuz? Niçin onların ellerini tutmuyor ve suç işlemeleri engelleyemiyorsunuz? -Hatice cevaplarını bildiği halde soruyordu.-

— Eğer alevileri kastediyorsan ben alevi olduğum için ne gurur duyuyor ne de üzülüyorum. Bu bizim elimizde olan bir şey değil.

— Evet alevileri kastediyorum. Niçin kendi mezheplerini bu ne olduğu belirsiz rejimin elinde soykırımlara teslim ediyorlar?

— Onlar azınlık.

— Anne ben de gelin olacak mıyım?

— Tabii ki bir tanem. Sen dünyadaki en güzel gelin olacaksın. İnşallah de bakayım.

— Yani ben Ahmet'in kardeşi Fatma gibi ölmeyeceğim değil mi anne?

— Sana hiç kötülük dokunur mu kızım! Daha büyüyeceksin, evleneceksin. Nesibe nine gibi yaşlanacaksın, onun sana anlattığı gibi torunlarına bu yolculuğu anlatacaksın. Allah rahmet eylesin de bakayım.

— Allah rahmet eylesin.

Gün Hatice'nin çocukların korkusunu sakinleştirebilme, neşelerini yerine getirebilme ve dehşete kapılmış gönüllerine umut ekebilmenin umutsuz çabalarıyla bitti. Ancak Halime çabucak usanmıştı. Tuvalete gitme baha-nesiyle oradan ayrıldı. Gizlice sıvışarak bahçeye yöneldi. Kapının eşiğine geldiğinde gördüğü manzara karşısında şaştı kaldı. Duvar yıkılmış, salıncak da yere inmişti. Koşa koşa annesine geldi ve ağlayarak durumu şikayet etti.

— Salıncağı ne yapacaksın kızım?

— Oynamak istiyorum.

— Gel dantel örmeyi öğren. Bak çiçek yaptım, ne güzel değil mi?

— Dantel örmek istemiyorum, resim çizmek istiyorum.

— Güzel, ara bakalım evde kağıt kalem var mı? Varsa çizersin.

da unuttu. Kendinden de çocuklarından da geçti. Kafasında farklı farklı düşüncelerle herkesin önünde kocasını ve kardeşlerini aramaya başladı. Acaba ölmüşler miydi? Hepsini mi ölmüştü?

– Ümmü Ahmed! Bombardımanda ölen oldu mu?

– Bazı evler ve duvarlar yıkıldı ama çok şükür erkeklerin hepsi iyi.

Hatice bayadır el çantasında unuttuğu bazı eşyalarını hatırladı. Çantasından yün, ip yumağı, çengel çıkardı ve çocukları çağırdı.

– Haydi Halime, İslam, Nur gelin size çengelle yün örmeyi öğreteyim.

Korkudan dilleri tutulmuştu.

– Yarın hepiniz büyüyeceksiniz, gelin olacaksınız. Sonra nişanlılarınız diyecek ki, sizin anneleriniz ne kadar beceriksizmiş hiçbir şeyi öğretmemiş size. Gelin olmak istemiyor musun sen İslam? Bak en büyükleri sensin, önce senin düğünün olacak. Hepiniz çeyizlerinizi kendi elinizle hazırlayacaksınız. Kocalarınız mutlu olacak haydi...

Kızlar yüzlerinde küçük bir tebessüm açarak geldiler. Kendilerini düğünlerinde gelin olarak hayal ediyorlardı. Etraflarında da kadınlar zılgıt çekiyorlardı.

– Önce çengelli böyle sağ elinde tutarsın. Sol işaret parmağına ipi dolarsın. Serçe parmağından da geçirirsin. İp öyle kolayca akar. Önce zincir yapacaksınız.. Sonra..

koru topu sustu kaldı. Çocuklarını göğsüne çekti. Telaşla gökyüzüne bakıp dua etmeye başladı. Bu sırada Fayha ve kızları bilinçsizce bağıyor ve korkuyla duaları Hatice'nin dualarına karışıyordu.

Bir müddet sessizlik oldu. Ortamın tek hakimi korkuydu. Kanatlarını her yana yaymıştı. Gözleri yerlerinden çıkacak gibiydi. Etrafta binlerce soru dolaşıyordu. Ağzlarında dilleri kurumuş, dudakları sanki kilitlenmişti. Bir kelime bile edemiyorlardı. Helikopter uzaklaştı ve kükremesi dindi. Hatice bir kez daha çocuklara yemeğe gelmelerini söyleyerek sofraya yaklaştı. Ezberinde içinde uçak geçen bir çocuk şarkısı ya da bir hikaye aradı ama bulamadı. Bir lokma ekmekle bir peynir parçası kopardı. Gözlerini kırparak Fayha'ya uzattı ve sen yersen çocuklar da yer dedi. Fayha ablasının uzattığı lokmayı yerken korkudan elleri titriyordu. Ardından bir lokma da büyük kızına yedirdi.

— Herkes kendi eliyle yiyecek. Yoksa ben yedireceğim. Benim payım bitmeden herkesinki bitmiş olacak. Haydi bismillah deyin.

— Su getirmeyi unutmuşum. -Fayha araya girdi.- gidip de getireyim.

Fayha mutfağa girdi. Patlayan bombanın ne yaptığını görmek için gizlice dışarı çıktı. Feryadü figan eden adamlar ve kadınlar vardı. Onlar da suskun, ne olduğuna bakıyorlardı. Aralarına katıldı. Suyu da kahvaltıyı

kineli tüfeklerini çalıştırıyor, roketlerini fırlatıyor ve dağları yerinden oynatıyorlardı. Vadiler de bu sedaya cevap veriyordu. Fayha'nın kızları korkudan ağlayarak uyandı. Annelerinin gözlerinin yaşlı olduğunu gördüler ve imdat nidalarıyla annelerine yapıştılar. Fayha'nın hazırladığı sabah kahvaltısı olduğu yerde kaldı, kimse dokunmadı. Halime'nin kardeşi Hamza da feryada karıştı. Ona devrimin ilk çocuk şehidinin adı verilmişti. huysuz bir şekilde ağlayarak uyanmıştı. Annesi kollarına almış susturmaya çalışıyordu. Annesinin korku dolu yüzüne baktığında sakinleşmeyi bırak, daha şiddetli ağlamaya başladı.

Hatice kendine geldi ve çocuklara yöneldi. Niye ağlıyorsunuz kızlar? Ortada korkulacak bir şey yok. Ben acıktım, yemek yiyeceğim, haydi sofraya. Bu kurşunlar yağmur gibi. Sadece altında yürüyenlerin elbisesini ıslatır. Bakın bizim başımızda çatı var. Bize ne kurşun gelir ne de yağmur. Sokakta durmazsak tabi. Hadi önce yemek yiyelim, sonra aptal helikopterlere ve onları gönderen aptallara gülelim. Hadi Halime ezberlediğin şu özgür ordu şarkılarını tekrar söyle.”

– Banane şarkı istemiyorum. Bu seslerden korkuyorum ben.

– Korkma kızım. Görmüyor musun özgür ordu etrafımızda bizi koruyor bekliyor? Onlar...

... Derken evin avlusunda bir bomba patladı. Bir parçası bahçenin duvarlarına geldi. Hatice yüreğinde bir

— Korkma bir tanem. Korkacak bir şey yok.

— Korkmuyorum anne teyzem bana kızıyor. Eve dönmek istiyorum. Bu ev bizim değil.

— Hayır bizim evimiz bir tanem.

— Bana yalan söylemeyin. Burası bizim ev değil. Biz şimdi Dorin köyündeyiz. Ninem Nesibe göç yolundayken birbirinden garip evden eve dolaşıp durduklarını bana anlatmıştı. Bir günden fazla kaldıkları ev olmamış. Ben evimizi istiyorum.

— Hayır kızım onlar masaldı. Hiç anneye yalan söylüyorsun denir mi? Ne kadar ayıp!

— Hayır masal değil, Nesibe ninem yalan söylemez ki. Göç yolculuğunda o sekiz yaşındaymış, benim kadarmış. Biz de mi göç yolculuğundayız anne?

Nesibe'nin çocukluğunun beş yılı ailesi ve diğer köylülerle birlikte evlerinden uzak, köyden köye göçmekle geçmişti. Akrabalarından bir mücahidin gelmesini, durumlarını sormasını, yiyecek vermesini, karıştıkları çatışmaları, kazandıkları ganimetleri, telafisi olmayan kayıpları, giden canları, dökülen kanları, hepsini ama hepsini anlatmasını sabırla bekliyorlardı. Kuru incir ve hurma getirmesini.. Belki de tatlılar.. Yada çocukları sevindirecek hediyeler.. O zamanlar erkeklerden biri döndüğünde herkes bayram ederdi.

Helikopterler köyün semalarında geziniyor, öğle sıcaklığında vızıldayan sinekler gibi dönüp duruyorlardı. Ma-

Fayha küçük kızı salıncağında bırakmış, bir gölgeye bir güneşe gidip geliyordu. Yalnız başına hüzünlü ve başıboş... Fayha aslında içindeki cehaletinden kaçmak için mutfağa girmişti. Mutfak onun en fazla içli dışlı olduğu ve çalışmayı en iyi bildiği yerdi. Bu sırada gökyüzünde birden bir helikopter belirdi ve makineli tüfek tarakaları duyulmaya başladı. Fayha koşarak salıncağın yanına vardı. Halime'yi kucaklayıp hızla balkonun altına sığındı.

– Bu helikopter kimin teyze? Niye köye ateş ediyorlar?

– Bilmiyorum... Soru sormayı bırak! Susmayı bilmez misin sen? Hadi bir kör kurşun canını almadan içeri gir!

– Çocukları da öldürürler mi?

– Sus dedim sana!..

Cevap vermekten aciz kaldığını haykırırcasına yüzüne bağırdı. Evin içinde bir kez daha acı bir ağlama koptu. Annesi gelip Halime'yi şefkatle kucağına aldı. Korkusunu hafifletmek için saçlarını okşamaya başladı.

basında yer bulmadığından yakındı. Zira ordu birlikleri caddeleri ve hükümet binalarının etrafını kuşatmıştı. Askerler kamuflajlarıyla ve tüm teçhizatlarıyla meydanlara dağılmışlar, kışkırtıcı bir şekilde insanlara mezhepçi ifadeler kullanıyorlardı. Sanki tarihi düzeltmek için gelmişlerdi. Belki de yok yere heba olacakları bir savaşın hazırlığını yapıyor gibiydiler.

Sait bey Hatice'nin gerginliğini gidermek istedi ve sakinleştirmeye çalıştı. Ancak buna gücü yetmiyordu. Ne olursa olsun mezhebin hiçbir zaman vatan yerine geçemeyeceğini ve rejimin bu kışkırtıcı hareketlerinin ancak şiddet olaylarını arttıracığını düşündüğünü söyledi. "Bir savaş çıkmamasını Allah'tan ümit ederim. Çünkü dozajı gittikçe artan bu şiddet olayları devrim fikrini yolundan döndüremeyecek. Aksine bir de mezhepsel kutuplaşmayı arttıracak. Biz tarihi düzeltemeyiz. Ölülerimizi bırakalım kabirlerinde yatsınlar. Biz güzel vatanımızın çatısı altında hep beraber bugünü yaşayalım. Geçmiş düzeltmek zorunda değiliz, kendimizi düzeltmek zorundayız. Maalesef henüz daha akıl çağına ulaşamadık."

ve bazı hatalar yapıyordu. Bu durum da daha fazla kan dökülmesine oluyordu. Ancak sonuçta bir vatandaşlık ve hukuk devletine götürecektir siyasi bir devrim yapabilmek için başka yol kalmamıştı.

Köyünün bir temsilcisi sayarak konuşmaya başladığından beri Sait beyin sözleri sanki tamamen Hatice'ye ayrılmış gibiydi. Sait beyin söyledikleri Hatice'nin zihninde bir takıntı haline gelmişti. Olanları ve olacakları hep bu sözler ışığında tartmaya başlamıştı. On üç yılı aşkın kaldığı hapis yıllarının etkisi her bir cümlesinde saklı duruyordu. Birbirlerinin telefon numaralarını ve mail adreslerini aldılar. Artık Sait bey ile olan sohbetleri bu zor zamanda hiç bırakmadıkları günlük öğün haline gelmişti. Özellikle de köyleri askerler ve zırhlı birlikler tarafından yağmalandıktan sonra..

Mayıs ayının onunda Sait bey Şam'ın meydan mahallesindeki durumdan bahseden bir mail yazdı. Caddelerde yayaların kalmadığını söyledi. Sadece askerlerin rap rap sesleri duyuluyordu. Askerlerin sesleri insanlarda korku ve endişeye neden oluyor, herkes sessizce olanları izliyor ve ortamdaki hava daha zor günlerin geleceğini hissettiriyordu. Hatice "Meydan mahallesinden mi bahsediyorsunuz yoksa El Haffe'den mi?" diye sordu. Sait bey bugünlerde haberlerde El Haffe hakkında bir haber görmediğini ve El Haffe'de neler olduğunu bilmediğini söyleyerek özür diledi. Hatice bu gibi haberlerin çıplak gözle görmedikçe

saldırması. Yani mezhep savaşını kastediyorlar. İkincisi söylentileri mezhep devletlerinin kurulması. Üçüncüsü ise yabancıların konuya dahil olması. Tabii bu acımasız bir işgal anlamına geliyor. Bu söz daha çok sahil bölgeleri için geçerli olabilir ya da daha kötüsü tüm Suriye'nin yaşanılmaz hale gelecek kadar bombardıman edilmesi. Bunun için her şeyi kullanıyorlar. Tutuklamalara ve katliamlara gerekçe göstermek için her şeye sarılıyorlar. Bir gün Şam'a gidersen şebbihaların otobüslerinde ve duvarlarda "Ya Esed kalacak, ya da tüm ülkeyi yıkarız" yazılarını görürsün."

Hatice sordu; - "Peki ya sonra? Bu devrim nasıl bitecek? Bütün halkı öldürecekler mi?" Sait bey kendi inancına göre devrimin halkın zaferi ile son bulacağını, ancak bunun kolay görünmediği ve daha çok Suriyeli'nin kanının döküleceğini düşündüğü söyleyerek cevap verdi. Hükümeti destekleyen yürüyüşlerden birinde olmadık sloganlar attıklarını, özgürlüğü kötülediklerini ve Esed'in ayakkabılarının gölgesinde kalmayı övdüklerini söyledi. "Düşünsene.. Dünyanın tüm ülkelerinde insanlar hükümeti değiştirmek için kendilerini feda ediyor. Buradaysa başkanlarını korumak için bir halkın tamamını yakıyorlar. "Afişlerle, sloganlarla hepimiz ebediyen şebbihayız. Senin yaşamın için ey Esed!" diyorlar." Diğer yandan Hatice'ye rejime darbe vurmanın asla kolay olmayacağını söyledi. Devrim ordusu daha çok yeniydi

lerin mülkiyetini bu şahısların üzerine yapmıştı. Sonrasında çevre köylerdeki bazı aileler yönetim merkezinde katılmak için köylerini terk etmişler ve böylece El Haffe genişleyerek çevre köylerden daha büyük hale gelmişti.

Halime oyununa ve bakınmalarına devam ederek evin avlusuna döndü. Bu sırada annesi ise bebeğini emzirmiş, elbiselerini değiştirmiş, bebeğini uykuya kendisini ise düşüncelerinin kollarına salıvermişti. Sait bey'in sözleri kendisiyle Süleyman bey arasında fısıltı olmayı aşmış ve tamamen kendisine yönelmişti. Sait beyin artık sadece Hatice'ye doğru konuşuyor, Süleyman bey ise sadece bu ikisi arasında geçen konuşmaları dinliyordu. Sait bey Hatice'yi sanki köyünün temsilcisi sayarak muhatap alıyordu. Hatice ise onun akıllıca sözleri karşısında susuyor ve zihninden farklı farklı sorular geçiyordu. Acaba bütün bunlar sadece kendi görüşü müydü? Yoksa arkasındaki bir oluşumunu temsil ediyordu? Arkasındaki insanların duruşuna etki edebilir miydi? Yoksa sesi koca vadide yankı bulmayan bir çağrıdan mı ibaretti?

Devrimin başlarında Hatice'ye öyle demişti. "Aslında rejimin güvenlik güçleri daha fazla korkuyor. Çünkü onlar bir yandan devrimci harekete son vermek isterken, diğer yandan da bir takım farklı söylentileri en fazla onlar yayıyor. Devrim başladığından bu yana üç farklı söylenti yaydılar. Birincisi falanca mezhebe ait üzerinde sloganlar yazan araçların filanca gruba hücum etmesi ve

mecbur bırakıldıklarını bilmiyorlardı. Aleviler ilkin birinci dünya savaşında zafer kazanan Almanya'nın yardımıyla, diğerinde ise Fransa'nın yardımlarıyla yakıp yıkmışlardı. Fayha ise bunlardan hiçbirini bilmiyordu. Nereden bilecekti ki, o zaten bilgi öğrenilen ortamları ve bilim konularını elinin tersiyle itmişti. Bu hayatta sadece güzel kadınların kendini gösterme halleriyle yetinmişti.

Küçük Halime salıncağı bıraktı ve koşa koşa gidip annesine sordu; - Anne! Hani Fransalı komutan dedem Aziz ve arkadaşlarından korktuğunda Ali Cedur'a demiş ya, "Siyonlulardan yüz tanesine sahip olsaydım tüm dünyayı ele geçirirdim" diye! Orası burada mı? Siyonlular nerede anne? Annesi sükunetle cevap verdi; "Siyonlular bizim kızım. Yüzlerce yıldır bizim bölgemizde Siyon derler. Ebu Zeyd El Hilali'nin hikayelerinde bizim köy ve çevresindeki köyler hep Siyon diye geçer. Ninen sana anlatmadı mı, yurtlarından çıkarılıp Tunus ve Fas topraklarına kadar giden Hilalileri?"

Halime daha küçüktü. Şu an annesi ona olayları anlatsa bile belki de anlayamayacak ve Fransızların yönetim merkezini Siyon kazasından genelde hıristiyan ahaliden oluşan ve içerisinde yaşayan müslüman ailelerin sayısı bir elin parmaklarını geçmeyen El Haffe'ye nasıl naklettiklerini kavrayamayacaktı. Fransız hükümeti hıristiyanlara, kilise adamlarına ve askerlerine eskisinden daha geniş yetkiler tanımış, birçok arazi ve gayrimenkul-

Fayha, İbrahim Hanano'nun Osmanlı Devleti'nin Halep valisi olduğunu ve Osmanlı sancağı altında Fransızlarla savaştığını bilmiyordu. Osmanlı yıkılıp bölge toprakları farklı devletler arasında paylaşılmaya başlandığında silahını ve savaşmayı bıraktı. Ancak Ömer El Baytar ve arkadaşı Şeyh İzzeddin El-Kassam bırakmadılar. Aksine ölünceye kadar savaşmaya devam ettiler. Allah'ın kelimesini en yükseğe taşımak için Allah yolunda cihat grupları oluşturduktan sonra, Ömer El Baytar Antakya mezarlığına İzzettin El-Kassam ise Filistin topraklarına defnedildi. İzzettin El-Kassam Filistin'de savaşıyor, Ömer El Baytar ise Türkiye üzerinden ona silah yardımı yapıyordu.

Ne Fayha ne de annesi bölge topraklarında düşmanlarla savaşan Ömer El Baytar ve beraberindeki Siyonluların kim olduğunu şehit olanların ve düşmanlardan öldürülenlerin sayısını hiç sormamışlardı. Cebele'den Cenkel'e gelen buradaki camilerde insanlara vaz edip Fransızlara karşı cihat etmek için insanların duygularını harekete geçiren, daha sonra Ömer El Baytar, Mustafa Derviş, Zaki El Baytar ve Muhammed Abdo Dib gibileri ile birlikte omuz omuza çatışmak için Şırnak'a intikal eden İzzettin El Kassam ve adamlarının isimleri kendilerine anlatılmamıştı. O günler de Siyon bölgesindeki evlerin nasıl yakıldığından ve talan edildiğinden haberleri yoktu. Ahalinin bugün göçe mecbur bırakıldıkları gibi alevi komşuları tarafından bir asır içerisinde üç defa peşe peşe nasıl göçe

— O zaman hani İbrahim Hanano? Dağda özgür ordu ile birlikte mi? Ninem bana anlattı ki o çok kuvvetli bir adammış. Babamın özgür ordu ile birlikte savaştığı Fransızlar nerede teyze?

Fayha köyündeki diğer onlarca kadın gibi sıradan bir kadındı. Gençti güzeldi. Güzelliği kendisini büyülemiş, ne okula ne de derslere önem vermişti. Yaşça kendisinden daha büyük kadınların bulunduğu ortamlarda cilvelerini sergiliyordu. Bu yüzden onu kısa sürede babasından istediler. Hemen evlendi ve çocuk sahibi oldu. Ev işleriyle ve çocuklarını büyütmeyle uğraşmaya başladı. Ne bir okulda ders almış ne de hayatına tecrübe katmak veya ülkenin tarihinden bilgi sahibi olmak için yaşlı kadınların sözlerini dinlemişti. Kuyunun etrafında ve köyün yollarında kızların atışmaları ile meşgul olmuş, aynasıyla yetinmişti. Küçük kızın soruları unu fak olmuş hafızasına taş parçaları gibi peş peşe düşüyordu. Halime'nin soruları üzüntü ve pişmanlık kamçısıyla Fayha'yı kamçılıyor, kızı yaşındaki bir kız çocuğu karşısındaki düştüğü cehaletin acısını hissettiriyordu. Sahip olduğu kısıtlı bilginin bu küçük kızın şaşkınlığı karşısında aciz kaldığını gördü. Nasıl cevap vereceğini ve bu soruların baskısından nasıl kurtulacağını bilmiyordu. Kızı uyanmadan önce kahvaltı hazırlamak için mutfağa gideceğini söyleyerek Halime'den özür diledi. Üzgünce yanından ayrıldı.

– Teyze! Nesibe ninenin şarkılarını biliyor musun? -Halime araya girdi. Fayha bu farklı çocuğun karşısında çaresizlik hissetti ancak başarısızlığı kabullenmeyi reddetti ve soruyu duymazdan gelerek başka şarkıya yöneldi.-

Hacı Ahmet amcacığım, yo ya!

Atını bana versene, yo ya!

Bağlayıp da bineyim, yo ya!

İskender'e yetişeyim, yo ya!

İskender ölmedi, yo ya!

Peşinde kızlar var, yo ya!

Küçük kız şarkıları dinliyor ama hiç katılmıyor, sadece geçen kelimeleri ve manalarını düşünüyordu.

– İskender kim ki teyze? İbrahim Hanano mu?

– Sence kim?

– Ninem bana şarkılar söylledi;

Bir uçak geceleyin uçtu,

İçinde askerler, içinde atlar

İçinde İbrahim Hanano var,

Binmiş atının sırtına

Hezimete uğratmış düşmanın öncülerini...

Ne İbrahim Hanano'yu ne çocuklarını ne de İskender'i biliyordu Fayha.

– Belki de odur dedi.

Dorin, Nesibe ninenin anlattığı gibi halen daha küçük ve fakir bir köydü. Evleri vadinin ortasında toplanmıştı. Ancak köyde yeni bir şey daha vardı. Medeniyet köyün tepelerini yeni binalarla sarmıştı. Tepelerin gümüşten merdivenlerine bu yeni binalar yayılmıştı. Binalar alçak kemerleri olan tek katlı süslü yazlık evlerdi. Tepeye yayılmaları evlere güzellik katıyor, yazlıkçıların daha fazla haz alabilmesi için manzaranın çevredeki dağlara ve ormanlara kadar uzanmasına imkan sağlıyordu. Halime dururken teyzesi ipe uğraşmaya başladı. Kapının yüksek eşığının üzerinden ipi birkaç defa attı ve bağlayıp düğümledi. Evden küçük bir minder getirdi ve ipin üzerine yerleştirerek sağlam ve güvenli bir salıncak haline getirdi. Halime'yi kollarına aldı ve salıncağa oturttu. İleri geri sallamaya başladı.

— Teyze! Göçmenlerle Ali Bedur ordusu arasında savaş yapılan Dorin meydanı nerede?

— Gel tatlım şarkı söyleyelim. -Fayha soruyu duymazdan gelerek cevap vermişti.- Haydi...

Ağustos böceği karıncaya dedi ki,

Bana dört buğday verir misin,

Beni ölümden kurtarırsan bu iyiliğine teşekkür ederim

Git dedi buradan ey tembel,

Ben tembelleri hiç sevmem!...

Ayağıyla yuvarladı, arkasından birkaç adım koştuktan sonra durdu. Belirli bir şeye odaklanmadan ne aradığını bilmeden sağa sola bakındı. Ağacın yaprakları arasında gizlenen bir kedi gördü. Korkutmak için koşunca kedi kaçtı. Biraz avlunun pürüzlü duvarlarına tutundu. Duvarın öbür tarafına yola indi. Bu garip yere biraz bakındıktan sonra taş merdivenin ilk basamağına oturdu ve acı acı ağlamaya başladı.

– Canım benim niye ağlıyorsun? -Fayha yanına gelmiş, kollarıyla Halime'yi sarıp, saçlarını okşamaya başlamıştı.-

– Bilmiyorum, evimizi istiyorum.

– Döneceksin canım benim. Hepimiz evlerimize döneceğiz. Bak burada ip var sana salıncak yapayım mı?

– Salıncak istemiyorum- eve dönmek istiyorum.

– Anneni burada mı bırakacaksın? Hem yolu biliyor musun, nasıl tek başına gideceksin?

– Hayır.

– Bak o zaman, hani benim kocam var ya Nur ve İslam'ın babası, hem o hem de senin baban geldiğinde hep birlikte evlerimize döneceğiz. Hadi gel şimdi salıncak yapmaya bana yardım et.

– Teyze burası neresi.

– Dorin canım. Biz şu an Dorin köyündeyiz.

bakta yemek ikram edilmiş. Üzerinde güzel süslemeler ve Kur'an'ı Kerim ayetlerinden işlemeler varmış. Yemeği afiyetle yedikten sonra süsleri düşünmeye başlamış. Ev sahibi gülerek söze girmiş; “Hacı Ahmet ağa garipseme. Bunlar dedemden kalma tabaklar. Siyon dağı savaşlarında ona ganimet kalmış. Siyonda öyle her evde dededen toruna kalma eşya bulamazsın. Çünkü Siyon savaş ve yağma için yaratılmış.” Evet Siyon halen daha savaştaydı. Evleri hiç duraksamadan yağma üzerine yağmaya maruz kalıyordu. Seksenli yıllardaki muhaberat denetimlerinde de en zengin evler yağma edilmemiş miydi?

— Anne evimiz nerede?

— Burası yeni evimiz. Sessiz konuş Halime, kardeşin uyanacak.

— Vedat'la Nur da bizimle mi kalacak?

— Evet bir tanem.. -Fayha cevap verdi.- Cenkel köyünde Ayşe'lerle birlikte sizinle beraber kalmıştık ya!

— Ben bu evi istemiyorum. Cenkel'deki Ayşe'lerin evini de istemiyorum. Lazkiye'deki evimize dönmek istiyorum ben. Kendi elbiselerimi ve oyuncaklarımı istiyorum.

Her iki kadın da bu sözlere bir cevap veremedi. Halime yeni evi tanımak için aralarından ayrıldı. Yorgunluk ve eziyet içerisinde geçen uzunca bir geceden sonra derince uykuya dalmış olan iki kızını bırakan Fayha da peşinden gitti. Halime evin avlusunda büyük bir top gördü.

ler sırasında Halime'nin elbiseleri ıslanmıştı. Şaşkın bir şekilde annesinin eli ayağına dolaştı. Çantasını ve bohçasını defalarca aradı, ama süt paketi yoktu. Belki evde veya kamyonda unutmuştu. Ya da belki de köy meydanında kalmış veya evlerinden göçen diğer insanların çantalarından biri ile karışmıştı.

Fayha ayağa kalktı. Kendisi Şirkak köyünün genç hanımlarından biriydi. Diğer göçmenler gibi ailesi birlikte göç etmişti. Diğer üç aile ile birlikte Hamza'nın annesiyle de evini ve azığını paylaşacaktı. Göçün daha sonraki günlerinde de kendisine arkadaş olacaktı. Sahibini tanımadıkları bu eve beraber girmişlerdi. Fayha kalkıp küçük evin sağını solunu kontrol etti. Ev sahibinin gitmeden önce depoladığı her hangi bir yiyecek var mı diye aranıyordu. Biraz sonra yanaklarında beliren gülümsemeyle geldi. Elinde bir süt paketi vardı.

— Hatice, al bunu.. Oğluna içir, sonra elbisesini değiştir.

— Hatice bu hediyeyi memnuniyetle aldı. Burada artık evler arasında hiçbir fark kalmamıştı. Sanki tüm ülke tek bir ev haline gelmişti. Ahalinin tamamı birbirinin akrabası hatta aynı evde yaşayan tek bir aile gibi olmuştu. Bu sırada babasından defalarca dinlediği hikaye aklına geldi. Dağ köylerinden birinde bir eve misafir olduğunda, kendisine düğün yemeklerindeki gibi büyük bir bakır ta-

tirmeye çalışıyor, ama zeytinyağı ile su gibi birbirine karışmıyordu. Kamyon durmuş, motosikletler hızla etrafını sarmıştı. Hatice kendine geldiğinde yol arkadaşlığı yaptığı kadınların inmek için yarıştıklarını gördü. Yorgun ve endişeliydi. Kucağında uyuyan kızı ve uzun bir süre ağladıktan sonra daha yeni susan bebeğine şefkatinde biraz yavaş davrandı. Ortamın ürpertisinden gözleri açılmıştı. Eşyalarını topladı ve ailelerin güvenli bir yere ulaşmasına yardımcı olmakla meşgul olan yerdeki gence doğru itirdi.

Sıra dağların arkasından ve ağaçların tepelerinden sabahın somurtkan aydınlığı belirirken, etraftaki bohçalar çantalar ve toprağın üzerinde uyuyan çocuklar görünmeye başlamıştı. Peşinden aynı yönde ilerleyen güneşin solgun ışınları ağır ağır vurmaya başladı. Utangaçlık kızgınlık ve şefkat adeta güneşin ışıklarıyla güreş tutuyordu. Güneş altın renkli ışıkları ağaçların gövdelerine vurduktan sonra ufuktan ayrıldı ve dünün hararetinden kurtulmuş ağaçların gölgesindeki göçmen çocukların üzerine sakince bir uyku serpti. Halime uykuya dalmış, kucaktan kucağa dolaşıyordu. En sonunda evlerini terk edip Lazkiye'deki akrabalarının evine göçen bir ailenin evindeki hasırın üzerine yerleşmişti. Annesi ise yanına yığılmış çaresizce bebeği Hamza'yı susturmaya çalışıyordu. Böylesinde bir dağ havası sabahında bebek açlıktan ve soğuktan bağırarak ağlıyordu. Uzun yolculuk ve bekleme-

söylediği gibi mezhep çatışmalarından birinde Cenkel'den Ekkrat dağına doğru yapılan yolculuk gibi sayılır mıydı? Birden hayaline İbni İshak isimli deli geldi. Kapının arasından kafasını uzatmış ve en yüksek sesiyle Allahu Ekber diye bağırmişti. Bu arada Sait bey gülümsüyor ve Süleyman bey ise iç çekiyordu. Hatice hatırladığı olaya hayalinde devam etti. Deli bütün ofislerin kapısından teker teker giriyor ve her girdiğinde Allahu Ekber diye bağırıyordu. Ardından kapılardan ve pencerelerden yüksek sesle kahkahalar yükseliyordu. Gülüşmeler Sünni memurlar arasında virüs gibi yayılırken, alevi memurlarda ise aynı ölçüde korku dalgası oluşuyordu.

— Burada ineceğiz.

Kamyon karanlık bir alanda durduktan sonra erkeklerden biri bağırmişti. Halime dalgın gözlerini zorla açtı ve elinin dışıyla gözlerini ovuşturdu. Geldikleri yeri tanımaya çalıştı, sonra döndü gözlerini kapattı ve yeniden uykuya daldı. Kamyonlar dizilmişti. Hatice onlarca aile ile birlikte Dorin meydanına indi. Adamlardan biri Halime'yi aldı. Gelen ailelerin sığınacağı içinde kimse bulunmayan bir ev bulununcaya kadar Halime'yi kaldırırma yatırdı ve başını çantaya yasladı.

Hatice kamyonun kasasında kendisini sallantılara bırakmış oturuyordu. Gözlerini karanlığa dikmişti ve etrafında olanlardan habersizdi. Söylenen sözleri birleş-

çerli hale getirebilir? Tarihte yaşanan savaşlar çoğunlukla mezhep savaşlarıydı. Bu bölge Nesibe ninenin tarihin uzantılarından anlatıp durduğu, yine babasından ve annesinden hikayelerini dinlediği mezhep savaşını iyi bilmekteydi. Her seferinde savaş tüm ağırlıklarını bırakıp gitmiş ve herkes birbirine muhtaç komşu hayatı yaşar olmuştu. Almışlar, satmışlar, konuşmuşlar, değiş tokuş etmişler, bu karmaşık engebeli coğrafyada birbirlerinin köylerinden geçmişler ve uzun yıllardır intikamın adını unutmuşlardı. Ancak sanki dışarıdan bir el gelip, küllerin altında kalan korları harlayıncaya ve ateşi yeniden tutuşturup kan dökünceye kadar... Tarih çizgisinin hangi noktasına bakarsanız bakın bu merhaleyi göreceksiniz.

Sait bey şöyle diyordu. “Suriye sahillerini vuran hareketlilik ve çatışmalar bir hukuk ve vatandaşlık devletinin kurulma çabası yönünde sonuçlar doğuracaktır. Bazen anlamsız mezhep savaşları olarak bazen ise çirkin şiddet eylemlerine dönüşmüş çatışmalar olarak görünse de, bunların dar ve sınırlı bir alanda kalacağını düşünüyorum.” Sait bey birden konuşmayı bıraktı ve Hatice’ye dönerek sordu. “Sen vaziyeti benden daha fazla yaşıyorsun. Senin görüşün nedir komşu köylü?...”

Sait bey bir anda Hatice’ye ağır bir sorumluluk yüklemişti. Kendi mezhebi adına konuşma sorumluluğu. Düşündü, ürperdi ve cevap vermedi. Bu yolculuk Sait beyin

Hatice perişan halde konuşmalarını dinliyordu. Bu adam gayet akıllı ve milli bir düşünce ile konuşuyordu. Keşke herkes onun sözlerini dinleseydi ve ona uysaydı. Ailesi tehdit ediliyordu. Köyü tehdit ediliyordu. Mezhepçilik azgın başını tarih odalarından çıkarmış uzatıyor, devlet güvenlik birimlerinin eliyle yeniden geldiğini ilan ediyordu. Onurlu bir yol bulunması için El Haffe’de gerçekleştirilen genişletilmiş toplantıda göstericiler ikna edilmeye çalışılıyor ve halk yeniden boyunduruk takılmaya ve aşağılanmaya zorlanıyordu. Devlet güvenlik yetkilisi doksan yıla yakındır adeta haykırıp durdukları “sahilde bir alevi devleti kurma” düşüncesini ilan ediyordu. Yetkili toplantı esnasında şöyle diyordu. “Ey insanlar, dinleyin ve anlayın! Suriye’yi bölme projesi uzun süredir hazırda bekliyor. Alevi devletinin kurulması artık kaçınılmaz bir durumdur. Her kim bizim devletimizde yaşamak istiyorsa çoğunluğun yaşamak istediği gibi takunya ile yaşayacak. Ülkemizde ezan sesinin yükselmesine asla izin vermeyeceğiz. Caddelerimizde örtülü kadınların dolaşmasına asla izin vermeyeceğiz. Bu sözler kimin hoşuna gidiyorsa kalsın ve devletin bütün kanunlarına bağlı kalsın. Bunlara itiraz edenlerse kendine başka bir vatan bulsun. Ama bu bölgenin, yani bizim bölgemizin dışında.”

Sait beyin sözleriyle devlet güvenlik yetkilisinin sözleri arasındaki fark ne kadar da büyük! Peki hangisi daha gerçekçi? Hangisi fikirlerini yayabilir ve yeryüzünde ge-

hareketlenmeler başlamış ve devlet adamları şu veya bu yönde bir takım ıslahatlar yapıyor izlenimi vermek zorunda kalmışlardı. İnsanlar devletin en iyi hizmetleri sunduğuna dair yalan yere şahitlik yapmaları için zorla televizyon programlarına çıkarılmışlar, gösterilere katılanların sayılarının çok az olduğunu, bu nedenle halkı temsil etmediklerini söyleyegelmişlerdi. Gösterilere katılanların terörist gruplar olduğunu güya itiraf eden şahıslarla televizyon programları düzenlemişler ve gösterilere katılan kimselerin bu nedenle para aldıklarını söylemişlerdi. Yalan olduğu her yanından belli aptal haber yapma uğraşları halkı gına getirmişti. Rejimi destekleyen din adamları ve diğer kesimlerden kimseler basın sayfalarında geniş bir yer tutmuşlar, kanaldan kanala gezmiş dolaşmışlar, sağdan soldan sühuletle fetva vermişler ve tavuğun önüne buğday tanelerini serpmişlerdi.

Sait bey millet meclisi seçimlerinde aday olmak için Tela Aleviye köyünden kalkıp gelen bir hocaya şöyle demişti. “Din işleri ne zaman siyasetten ayrılacak? Bu ailenin adamları yatırım tarlası haline getirdikleri hocalık makamına mirasçı olmaktan ne zaman el çekecekler? Sanki rablerine vekâleten insanların boyunları hakkında hüküm veriyorlar. İnsanların ücretini önceden bu hocalara ödedikleri bir cenneti reddettiğini artık anlamaları gerekmiyor mu?” Bu esnada Süleyman bey ise iki eliyle Sait bey’e “Sus, bizi mahvetme!” diye işaret ediyordu.

hapse girenlerle birlikte yakışıklı bir genç olarak girdiği hapisten, vücut şekli bozulmuş ama dirayetli bir adam olarak çıkmıştı. Hapis yılları onun gücünü yıpratamamış, çektiği işkenceler azmini kıramamıştı. Aksine kendisini daha ısrarcı ve katı bir adam haline getirmişti. Birkaç gün önce onu karşılayan Süleyman beyin yüzünde korku alametleri beliriyor, vurdumduymazlık perdesi altında Sait beyi saklamaya çalışırken elinden tutuyor ve oturması için masasının yanındaki sandalyeye çekiyordu. El işareti ile “Ne oluyor? Nereye gidiyoruz?” diye sordu. Sait bey kendinden emin bir şekilde gülümsedi ve “Bu doğru yolda atılan iyi bir adım” dedi. Sonra yüz hatları yeniden ciddileşti ve devam etti. “Birçok dikenleri ve engelleri bulunan bu yolda sürü olmak yerine, vatandaş olarak yaşayacağımız medeni bir topluma doğru adım attığımızı düşünüyorum. Bu nedenle halkımızın, intikam fikri ve intikam düşüncesinin hegemonyasından uzak bir şekilde geleceğe yönelmesini, bizleri geçmişimizin ve şimdinin en çirkin şahsiyetlerinin değil bilakis hayallerimizdeki ve düşlerimizdeki en iyi şahsiyetlerin yönetmesini temenni ediyorum.”

Bu konuşmalar nisan ayının sonlarına doğru gerçekleşiyordu. Gösteriler yurdun dört bir yanına yayıldığından beri bir yılı aşmıştı. Rejim kızgın halkı sakinleştirmek için her yolu denemiş, ancak tüm bu çabalar faydasız kalmıştı. Hatta devletin önde gelen şahsiyetleri seviyesinde

lerinin konuştuklarını dinlemiyordu bile. Ancak bundan sonra her şey serbestti. Artık konuşmalara dikkatle kulak veriyordu. Burada konuşulardan her bir kelimenin belli bir ağırlığı vardı. Cümlelerden her biri, tarihin yakın veya uzak, aynı zamanda tozlu sayfalarından bir perdeyi kaldırıyordu. Süleyman bey aylık toplantılarda Baas partisinin teşkilatından gelen akrabalarını karşılar ve onlara büyüleyici bir karşılama düzenlerdi. Yumruklarını havaya kaldırır, toplantılarda onların attığı sloganları taklit ederek sloganlar atar ve yaşasın işçi, yaşasın çiftçi diye bağırırdı. Toplantılarda söylediklerini tekrar ettikten sonra her defasında bu konuşmalara bir sözü daha ekler ve “Hiç kimse sizin yaptığınız gibi havadan yemedi. İşçiymiş, çiftçiymiş...” derdi. Herkes güler, sarılıp öpüşmeler havada uçurdu.

Yeni ama eski bir adam Süleyman bey ve arkadaşlarının konuşmalarına ve mevzularına girmeye başladı. Orta boylu bir adamdı. Daima sakin ve daima güler yüzlüydü. Zorluklara ve engellilere aldırış etmez, tüm engelleri hafif sayardı. Korkan kimselerin korkularıyla adeta alay ederdi. Bu kişinin adı Sait'ti. Esed rejimine ve Baas partisine karşıt alevilere ait bir köy olan Keferiye köyü ahalisindendi. Hatice kendisini beş on yıl kadar gıyaben tanıdıktan sonra, ilk olarak hapisten çıktığı gün görmüştü. Kendisi seksenli yılların başında Komünist Çalışma Derneği ve İhvanı Müslimin gruplarından

daşları birbiriyle sohbet edebiliyor ve çay içebiliyorlardı. Hatice'nin arkadaşı Sina anaokuluna bıraktığı oğluna bir an önce kavuşmak için fırsat kolluyordu. Böylece daire müdürü Süleyman bey için misafirleri ile siyasi olayları kısık sesle diledikleri gibi konuşabilecekleri bir ortam oluşuyordu. Yoksa bu gibi konuları aşikare konuşmaya cüret edemezlerdi.

Süleyman bey ve ziyaretçileri ilk Baas partisindendiler. İslahat hareketi sonrasında hayatının bir kaç yılını Esed hapishanelerinde geçiren Salah Cedit'in yardımcılarıydılar. Süleyman bey hapse girmedi ama görevine bedeviler ya da bedeviye benzeyen insanlar arasında devam etsin diye doğu vilayetlerine sürgün edildi. Kendisinin siyasi görüşleri ve bu gibi fikirlere inanan arkadaş gruplarıyla hiç alakası olmayan bir ortamdı. O döneme ait siyasi hareketler soğuduktan sonra yeniden sahil kesimine gelmişti. Dayısı bazı yüksek makamlara geldikten sonra ise tayini konusunda etki etmeye imkan bulmuştu.

Süleyman bey ve misafirleri Hatice'nin duyacağı yerde konuşmaktan korkmuyorlardı. Zira o siyasetle alakası olmayan hatta ve hatta siyasetle ilgili konularda konuşmaktan korkan basit bir kadındı. Ailesinden beş kişi İhvanı Müslimin'e bağlı oldukları iddiasıyla tutuklanmıştı. Önceleri sadece kendi işiyle meşgul oluyor veya dairede müracaat edenlerin bulunmadığı saatlerde bazı kitap ve dergileri inceliyordu. Korkudan Süleyman bey ve misafir-

bu eşyalar parayla alınabiliyor. Alınıp satılabilen her şey zaten ucuz. Hatta kendini para karşılığında satan insan bile.. Çok ucuz..” Adamın gülen ağzı dondu kaldı. “Ama sizden kaç kişi öldü?” diye yeniden sordu. “Biz inanıyoruz ki ömür dediğin sayılı nefeslerle sınırlı. O üç kişinin ömrü zaten dolmuştu. Ancak Allah onlara şehitliği ikram etti. Biz hiçbir şey kaybetmedik. Bilakis kazancımız var ki; bilinçlenmemiz..” diye cevap verdi Hatice.

Gadir isimli bu memur Kinsabba istasyonuna yapılan bu saldırıyı duyduğunda koşup tuvalete kaçmış ve ne zaman tuvaletten çıksa korkudan yeniden tuvalete girmişti. Korkusundan sinirleri boşalmış, kendisine hakim olamamıştı. Halbuki olayın yaşandığı yer ile arasında otuz kilometreden fazla mesafe bulunuyordu. Birkaç defa tuvalet yolunda dolaşıp durduktan sonra dolabın içindekileri boşaltmış, korkunun kaynağına karşı kendini gizlemek için dolaba gizlenmiş ve küçük küçük yere sıvışıp kalmıştı.

Çalıştığı daire tek bir odadan ibaretti. İçinde müracaat edenlerin kayıtlara ulaşmaması için engel teşkil eden köşeye doğru dizilmiş iki sıra masa bulunuyordu. Müracaatlar öğleden önce çok kalabalık oluyordu. Çünkü insanlar bir an önce işlemlerini tamamlamak ve köyleri dolaşan dolmuşlar bitmeden köylerine dönmek istiyorlardı. Yoksa ya yolda kalırlar ya da yaya olarak dönmek zorunda kalırlardı. Öğleden sonra ise daire boşalıyor ve hava biraz daha sakin hale geliyordu. Böylece iş arka-

dediklerini tekrarladılar. Silahlı adamlar onlara gülüm-sediler ve tüfeklerini kaldırarak onları selamladılar. Or-tam çocukların haykırışlarının süslediği muazzam bir kutlamaya dönüştü.

Önce birinci kamyon üzerindeki ailelerle birlikte ha-reket etti. Peşinden de ikincisi ve üçüncüsü. Konvoy ay-dınlık caddeleri aşarak bahçelerin arasına, sonrasında da karanlık araziye daldı. Bu sırada gür bir ses çocuklara “Susun!” diye bağırdı. Şarkılar susmuş, ağızlar kapan-mış, çocuklar korkularından annelerine yapışmışlardı. Bir bebeğin korkuya benzer ağlama sesi yükseldi. Kam-yonlar yükleri sırtlarında toprak yolları aşıyor, kükreyen kaba sesleriyle Beytüş Şakuhi köyünün tarlaları ve me-şeliklerinden geçiyorlardı. Halime diken üstünde uyku aleminde kalabilmek için başını annesinin omzuna yas-ladı. Hatice ise bu esnada gerçek hayattan kopmuştu. Sessiz ve sakin bir şekilde kendisini kamyonun kasisli yoldaki sarsıntılara kaptırmış, gözlerini karanlığa dik-miş, düşünce ve hayal dünyasına dalıp gitmişti.

Baskından sonra işe gitmesine izin verilen ilk gün ar-kadaşı Gadir kendisini karşılamıştı. Gadir dairede daha yeni bir memurdu. Dalga geçer gibi gülerek ve hoş ol-mayan çirkin bir eda aile yapılan baskında köyde neler kaybettiklerini sordu. Hatice ise soğukkanlılıkla cevap verdi; “Hiçbir şey kaybetmedik. Olan sadece sizinkile-rin eliyle yağma edilen mobilya parçalarına oldu. Ama

Hatice bir elinde sarılı bohça diğerk elinde ise bebeđiyle geldi. Bebeđini Halime'ye uzattı. Kamyonun kasasına bir yaygı serdi ve bebeđini üzerine yatırdı. Sonra kamyonun yüksek demir kapısına zorlukla asılarak çıktı, çocukları ve eşyası ile birlikte köşeye oturdu. Silahlı adamlar insanları meydana dolduruyorlar, kalabalığı yönlendiriyorlar ve sessizce ona buna yardım ediyorlardı. Kamyona birçok aile binmiş, Halime ve annesi daracık bir yerde kalmışlardı.

— Anne ben korkuyorum.

— Neden korkuyorsun bir tanem?

— Bu silahlı adamlar kim, bize ateş edecekler mi? Kuzenim Gazvan ve arkadaşı Abdülazim gibi biz de ölecek miyiz anne?

— Bunlar bizden Halime'm. Bunlar özgür ordu. Televizyonda gösterilerde slogan atanları duymamış mıydın “Ey özgür ordu Allah seni korusun” diye?..

Halime minik başını annesini onaylarcasına salladı. Sonra ayağa kalkarak kamyonun demir parmaklıklarına tutundu. Ellerini havaya kaldırıp avaz avaz bağırdı; “Ey özgür ordu Allah seni korusun!..”

Kışın soğuşunun sönüp gittiđi gibi çocukların gönlündeki korku da sönmüş ve sükunet çiçekleri açmıştı. Okula gider gibi bir yolculuđa çıkacaklarını hayal ediyorlardı. Bütün çocuklar ellerini havaya kaldırıp Halime'nin

Adam köyüne döndü. Gördüğü her şeyi köydekilere anlattı. Haber kuru otlar arasında ateşin yayıldığı gibi yayıldı. Siyon bölgesindeki herkes bu olaydan dolayı nefretle doldu. Bölgedeki tüm araçlar, arabalar, motosikletler, traktörler ve kamyonlar toplandı. Abdülkadir'in cenazesini daha önce hiçbir cenazenin karşılanmadığı gibi karşıladılar. Cenaze böyle muazzam bir kalabalık içerisinde tüm El Haffe caddelerinde ve köylerinde dolaştırıldı. Herkes rejimin düşürüleceğine dair tezahüratlar yapıyordu. Cenazede polisler ve muhaberat adamları da vardı. Ancak sessizce olanları izliyorlardı. Kabrin başında galeyana getiren birçok konuşmalar yapıldı, meydan okuyan çokça söz söylendi. Ardından da cenaze defnedildi. İnsanların endişesini gidermek ve kim olursa olsun canilerden hesap soracaklarını vaat etmek için içişleri bakanı da geldi. Ancak bakanın vaatleri gençlerin ateşini söndürememişti. Aksine kabrin başını bir konuşma festivaline dönüştürdüler. Halil Derviş burada uzunca bir konuşma yaptı ve ardından Şecan köyünden diğer birçok kimseler... Yine uzun konuşmalardan biri olan Salah El Baytar konuşmasının sonunu; "Liderlerimiz onurumuzu geri kazanmak için bize devrim yapmaktan başka bir çare bırakmadı" sözleri ile bitirdi. Manzara El Haffe belgesi ve köylerini kaplayan gösterilerle tamamlandı. İşte o gün tutuşan kor bugüne kadar sönmedi.

Abdülkadir fakir, güçsüz ve küçük bir aileye mensuptu ama önemli bir makama sahipti. Zaten bu nedenle rejim tarafından ilk kurban olarak seçilmişti. Mütevazı bir şahıs olan Abdülkadir alevi kesimden birçok kimseyi kendisine arkadaş edinmişti. Abdülkadir onları seçmemiş, bilakis onlar Abdülkadir'i seçmişlerdi. Utangaç bir kimse olduğundan kimsenin dostluğunu reddetmiyor ve kimsenin sözünü kesmiyordu. Sadece kendi işiyle ve çiftliği ile meşgul oluyordu. Köyü terk etmiş, eşini de yanına alarak Lazkiye kendine yerleşmişti. Bu nedenle en ucuzlarından küçük bir kamyonet almış, evine çiftliğine ve görev yerine gidip gelirken kullanıyordu.

Takvimlerin Haziran ayının altıncı gününü gösterdiği o puslu günde Lazkiye'den aracına bilmiş ve Halep yolunu tutmuştu. Resmi dairelerin çalışma saati başlamadan önce bazı küçük işler yapmak ve bir göz atmak için çiftliğe gidiyordu. Ancak çiftliğine varamadı. Hemen öncesinde Behlülüye köyü sapağında aracının içinde öldürüldü. Köylülerinden biri yoldan geçerken araç dikkatini çekti. Asker, polis ve sivillerden oluşan bir çok kişi aracın etrafında toplanmıştı. Ne olduğuna bakmak için yaklaştığında gördükleri karşısında şaşkınlık kaldı. Abdülkadir direksiyonun ardında ölü olarak oturuyor, yarasından çıkan kanları aracın içine akıyordu. Ambulans ne de çabuk gelmişti! Cesedi hastaneye kaldırdılar. Abdülkadir'in aracı ise kapıları açık bir şekilde olduğu yerde kalmıştı.

penceresinde dururdu. Hafız Esed ki kendisini ülkenin en büyük komutanı olarak ilan etmişti. O, yeryüzündeki tüm güzel niteliklere (!) sahipti. Başöğretmen oydu. Baş polis, baş avukat, baş asker, baş çiftçi, baş işçi, hepsi o. Daha bunun gibi aklınıza gelen her türlü nitelik, meslek ve beceriler... Tüm bunların üstünde o Suriyeli herkesin baba komutanıydı. Aynı şekilde onun baba oluşu da okul öğrencilerine talali, şebibe ve diğer etkinliklerde slogan olarak tekrarlatılıyordu. Kumaş üzerine basılmış olan bu koca fotoğraf maliye binasının çatısından sarkıtılmış neredeyse yere degecekti. Binanın her iki katında ardında kalan tüm pencereleri kapatıyor, içeriye ne bir ışık ne de hava girmesine izin vermiyordu. Fotoğraf levhayı kaplayacak şekilde sağlam iplerle birbirine dikilmiş iki parça kumaştan yapılmıştı. Ancak daralan memurlar odalarının karanlık olduğunu bahane ederek bu dikişi bozmuşlar ve kendilerine gedikler oluşturmuşlardı. Kumaş parçalarını aralayıp caddeyi görebilecekleri alanlar oluşturmuşlardı. Abdülkadir, arkasındaki meslektaşları ile birlikte pencerenin kenarında duruyor ve eliyle bezin dikiş yerini aralıyordu. Böylece hep birlikte sayın başkanın bacak arasından, yine ona ait büstün yer aldığı meydana ve kutlamalar için toplanan kalabalığa bakıyorlardı. Bir alt kattaki arkadaşları ise aynı manzarayı sayın başkanın ayakkabılarının arasından seyrediyorlardı. Ta ki müdürleri gelip, yerlerinden ayrılarak meydana inmelerini emredinceye kadar...

ise asla yorulmamaktadır. Kutlamaları bırakıp giden birini görseler hemen emniyet birimlerine jurnal sunmakta ve bu kişinin vatandaşlığını ve hatta vatanına olan sadakatine dil uzatmaktadırlar. Hatta belki de sabah sıralarında okul öğrencilerine tekrarlatıp durdukları ulusal sloganlarda olduğu üzere; -tüm gerici ve emperyalistlerin bahanesinin terörizm olduğu gibi- eğer bu kişi laik biri ise yabancı ajan olduğunu, dindar bir kimse ise ihvanı müslimin ile birlikte çalıştığını eklemektedirler.

Abdülkadir El Susi de diğer Suriyeliler gibi ekim savaşlarındaki büyük yalanın ve zafer örtüsü altında saklanan hezimetin farkındaydı. Herkes yapılan aldatma ve dönen entrikayı biliyordu. İsrail tarumar olan Kunay-tara kentinin kalıntılarını Esed'e bırakmış, ancak bunun karşısında Esed dağları, ovaları ve en bereketli toprakları kapsayan Con'daki geniş alanları İsrail'e teslim etmişti. Zira karşlarına bir tek İsrail askeri bile çıkmadan orduya çekilme emri verilmişti. Kutlamalara katılanların tamamı bunu biliyorlar, ancak ne bir itiraz edebiliyor ne de delil getirebiliyorlardı. Baas partisi rejiminin en temel özelliği acımasız bir şekilde zulmetmesi idi. Hama şehrinin harabeye çevrilmesi de bunun halen göz önünde duran bir örneğiydi.

Abdülkadir maliye yönetimini teslim almadan önce kendi işi ile meşgul olur, maliye binasının ikinci katındaki odasının Hafız Esed'in kocaman fotoğrafı ile kaplı

tenmiyordu. Onlardan istenen sadece Hafız Esed'in ismini duyduklarında kuvvetlice alkışlamaları idi.

En ön sırada olanlar dinliyorlar, diğer sıralardakiler ise kendi aralarında konuşuyorlar ve şöyle böyle muhabbet ediyorlardı. Dışarıdan gelen alkış sesini duyduklarında ise korku virüsü tedirgin ellerine sirayet ediyor ve alkışlamaya başlıyorlardı. Her şey bundan ibaretti. Abdülkadir ilk sıraya yaklaşmıyor, bunun yerine kaldırımın kenarında Kays Zerik'in dükkanının önünde arkadaşlarıyla kalmayı tercih ediyor, bisküvi ve meyve suyu alıyorlar ve bunlarla oyalanıyorlardı. Bu kutlamalara köylerden gelen genç kızlar ve erkekler gruplar halinde katılıyorlar, bandocuların davul ve zurna sesleri arasında birbirlerinin ellerinden tutarak dabke dansı yapıyorlar. Ama kutlamalardan ne de olanlardan habersiz bir şekilde dans ettikleri bu toplantılardan geri kalmıyorlardı.

Kutlamalar altı ekim kurtuluş savaşı zaferi nedeniyle yapılıyordu. Ekim ayının ilk günü başlayan kutlamalar tüm bu kalabalık ile birlikte kasım ayının on altıncı gününe kadar her gün devam ediyordu. Kutlama günleri kutlu hazırlık (!) hareketleriyle yaklaşıyor ve her seferinde yeniden başlıyordu. Yazık ki yazık, o günlerde devlet dairelerinden birinde işi olan vatandaşların haline. Çünkü hiçbir memur yerinde değildir. Aksine herkes gibi kutlamalara katılmaya mecbur tutulmuşlardır. Çünkü muhaberatın casusları ve muhbirler uyumamakta, jurnalciler

toplantılara katılarak suskunluk ipine sarılıyor, köylüleri kendisine bu toplantılara niçin bu kadar çok katıldığını sorduğunda gizliden gülerek bir yerden bulduğu şu şiirle cevap veriyordu;

Madem ki rızkımı bu yerlerde avlıyorum,

O halde avcı mecburen köpeklerle gezecek...

Biri bitmeden diğeri başlayan El Vataniye kutlamalarının tamamına katılıyordu. Bu merasimlerde ahali El Seraya meydanında toplanırdı. Bu meydan Baas partisi Suriye yönetimini ele geçirerek ilk gösteriyi yaptıklarından bu yana El Vataniye denilen kutlamalara ev sahipliği yapmaktan usanmamıştı. Gösteriler danslar eşliğinde şarkılar söyleyerek başlamışlardı.

“Elmanın üstüne kayısı sarıldı,

Muhammed’in dini bitti ve gitti...”

Sonunda şarkılardan “Sana gerek yol ey Allah sana gerek yok. Hafız senin yerine oturuyor” sesleri yükselmeye başlamıştı. Hoparlörlerden “Açıkça söylüyoruz... İhvacıları görmek istemiyoruz.” bağırıyorlardı. Gösterilerde toplananların tamamı öğrenciler, öğretmenler ve memurlardan ibaretti. Askerlerden ve muhaberatından sıkı bir çember içerisinde tutuluyorlar, her gösteride tekrarlanan konuşmaları dinlemeye zorlanıyorlardı. Aslında dinlemiyorlar ve konuşmacıların ne konuştuğunu anlamıyorlardı. Zaten onlardan dinlemeleri ve anlamaları is-

dan biri tarafından desteklenenler haklı. Sadece parası olup hakimlere rüşvet verebilenler haklı.” Arkadaşı ise zulmün devam etmemesi gerektiğini ve müvekkillerine zulmedilmesine asla rıza göstermeyeceğini bahane ederek bu tavsiyeleri dinlemedi. Kim olursa olsun karşı taraftan asla rüşvet kabul etmeyeceğini söyledi. “Arkadaşım! Rüşvet hakime verilir, o da rüşvet veren lehine karar verir” dese de dinlemedi. Bundandır ki El Haffe’deki avukatların çoğu başarısızlıkla tanınıyordu. Bu sırada Abdülkadir diplomasını alarak birkaç memurluk için başvuruda bulunmuş ve nasibine maliye müdürlüğü çıkmıştı.

Abdulkadir Baas rejimine bağlı idi. Akıma ayak uyduruyordu. Kendi tercihi bulunmaksızın mecburen Baas partisine üye olan milyonlarca Suriyeli gibi Abdülkadir de Baas partisine üye olmuştu. Üyelik formu imzalamaları için bu insanlara topluca sunulmuş, içeriğini okumalarına izin verilmemişti. İmzaladılar... Üye oldukları için öğretmenleri kendilerini tebrik etti ve güvenli bir gelecek ile müjdeledi. Üniversitelere giriş önceliği ve memurluk görevleri daima Baas partisinin üyelerine aitti. Tüm resmi kurumların yönetiminin onların elinde olması gerekiyordu. Öğrencilerden bazısı sonuçlarına aldırış etmeden karar almış, bazıları ise önce itiraz etmiş okuldan ya da üniversiteden kovulmakla veya devlet memuru olamamakla tehdit edilerek ikna edilmişti. Buna rağmen Abdülkadir istediğinden değil, korkusundan tüm

maliye müdürüydü. Mütevazi ve hoş biriydi. Her zaman sepeti araştırır, üzümü istemezdi. Kendi görevi ile ilgilenir, kalan vakitlerini Al Abd türbesine yakın bir köyde yer alan çiftliğinde geçirirdi. Bahçesi babasından miras kalmamıştı. Çünkü babası fakirliğin pençesinde basit bir adamdı. Bahçesini ekip biçmeye gücü yetmeyen küçük bir aileye sahip dul bir kadından kiralamıştı. Bahçeyi kiraldıktan sonra fidanlarla doldurmuştu. Bahçede bu bölgede yetişebilen en kaliteli meyvelere sahip farklı meyve ağaçları bulunuyordu. Arkadaşlarıyla muhabbet ettiği ortamlarda konu çoğunlukla bu bahçe oluyor, bahçede çalışırken uyguladığı metotlar ve kullandığı hormonlu ziraat ilaçları oluyordu. Kendisini dinleyen maliye bakanlığında bu önemli görev ile meşgul olduğunu zannedirdi.

Abdulkadir hukuk fakültesinden aynı köyden bir arkadaşı ile birlikte mezun olmuştu. Arkadaşı avukatlık mesleğinde ısrarcı olmuş, Abdülkadir kendisine ne kadar tavsiyelerde bulunsa da bu tavsiyelere kulak asmamıştı. “Avukatlık mesleği sende bende olmayan çatışmacı ve güçlü bir kişilik gerektirir. Sıradan yaşantımızda bize normal bir görev yeter. Kanunları anlayınca hakkı sahibine verebileceğini sakın zannetme. Bu ülke kanunlara verdiği değer ile tanınan bir ülke değil. Her zaman güçlü olanlar ya da muhabberatta yakınları bulunanlar haklı. Her zaman hakim ailelerinin bireyleri ya da yakınlarının-

Ubeyde amca soruları cevaplamak yerine abisinin kızını kamyonun sandığına koydu. Sonra daha önce hiç olmadığı kadar hararetle sarıldı. Annesini dinlemesini ve ondan uzaklaşmamasını söylerken gözlerinde bir parça ıslaklık vardı ve ağlamaklı bir haldeydi.

– Nereye gidiyoruz amca?

–

– Bu insanların hepsi bizimle birlikte Sait amcamlara mı geliyor? Niye kamyonla gidiyoruz? Niye her zamanki gibi otobüsle gitmiyoruz? Annem nerede?

Minik kız bir yandan ağlıyor, diğer yandan amcası Ebu Ubeyde'nin cevaplayamadığı soruları sıralıyordu. Halime gözyaşlarını silmek için ellerini çözdü, sonra amcasının yüzüne baktı. Amcasının gözleri yaşlarla doluydu.

– Amca sen de mi ağlıyorsun? Erkekler hiç ağlar mı?

– Hayır bir tanem. Güzel saçların gözüme kaçtı.

– Nereye gidiyoruz amca?

– Allah'a emanet bir tanem.

– Ya bana söyleyin nereye gidiyoruz? Gösterilere mi katılacağız? Yine mi Abdulkadir Susi'yi öldürdüler?

Geçen yıl tamamen bu konularla geçmişti. Bölgedeki diğer çocuklarda olduğu gibi Halime'nin küçük zihninde de bu olaylar dolanıyordu. Abdulkadir Susi El Haffe'de

İkinci Bölüm

— Hadi Halime, hızlı... Eşyalarını topla, peşimden arabaya gel.

Halime koştu, kitap çantasını topladı, kucağında bebeğiyle iki adım koştu. Sonra durdu ve sordu annesine;

— Nereye gidiyoruz anne?

—

— Lazkiye'ye Sait amcamlara mı gidiyoruz?

— Soru sorma, hızlı!

— Niye gece gidiyoruz? Amcamın kızları şimdi uyuyorlardır. Oynayamayız ki!

— Kitap çantasını bırak. Bu çantayı al, çabuk peşimden köy meydanına gel!

Halime ağır çantayı birkaç adım sürüklemeye kalmadı, arkadan amcası Ebu Ubeyde yetişti. Bir eline çantayı aldı, diğer kolu ile de Halime'yi kavradı. Sonra meydanın ortasındaki kamyonu doğru koşmaya başladı. Meydan insanlarla doluydu. Adam, kadın ve çocuklar... Kimdi bunlar? Nereden gelmişlerdi? Nereye gidiyorlardı? Ebu

Ebtisam Şakuş

– Şimdi bir şey istemiyorum... Anne! Biz de aç kalıp yaprakları yiyecek miyiz? Ağaç kabuklarını ve pelit kozalaklarını yiyecek miyiz? Ninemin anlattığı gibi..

– La havle....

şullarda kan bağına denk oluyordu. Beraber odun kesiyorlar ve kömür üretiyorlardı. Orman bekçilerine karşı birbirleriyle yardımlaşıyorlar, onlarla karşılaşmamak ve rüşvet vermek zorunda kalmamak için devriye saatlerini birbirlerine haber veriyorlardı. Bekçileri gören köylüler cesaretleri ve cüretleri karşısında sessizce çekiliyorlar, evlerine giderek kapılarını kilit kapatıyorlardı. Ne yıllarca süren baskı, zulüm ve fakirlik, ne de emniyet birimlerinin baskıları bu cüretkar ve cesur tavrına rağmen aralarında fitne tohumlarını ekememişti. Evet belki muhaberat bazılarını muhbir olarak kullanıyordu ve duvarların arkasında yaşananları muhaberata iletiyorlardı. Ancak bu kimseler herkes tarafından biliniyor ve kendilerine uyuz köpek muamelesi yapılıyordu. Tarlalarda, vadilerde, El Vatiye meydanında, Gazil türbesi tepesinde, kıyıda köşede ne zaman toplanıp bir şeyler konuşsalar bu kimseler birbirlerine haber veriyorlar, muhbirlerden biri yanlarına geldiğinde konuşmayı bırakıp gelen muhabiri bir eğlence vesilesi olarak kullanıyorlardı. Öyle güzel dalga geçiyor ve iğneliyorlardı ki fakir ve zelil bir şekilde mecburen aralarından ayrılmak zorunda kalıyor, sonrasında ciddi konuşmalarına kaldıkları yerden devam ediyorlardı.

— Anne ben acıktım.

— Ne istiyorsun bir tanem?

rik lambaları parlayan, kanunlardan muaf alevi köylere nefretle bakıyorlardı. Alevi köyleri ahalisi rejime yakın kimselerdi. Birçoğu orduda veya muhaberatta subaydı. Bakanlar onlardan, bakan yardımcıları da onlardandı. Onların elektriğinin kesilmemesi gerekiyordu. Aynı zamanda Siyon dağının gençleri hiçbir harp okuluna ve yüksek mevkilere kabul edilmiyorlardı. Soğuk duvarlara asılan üniversite diplomaları sanki devamlı sahiplerinin yüzüne haykırıyordu; “Siz unutulmuş kimselersiniz. Sizin devletteki nasibiniz sadece yaptığınız, yapmadığınız, konuştuğunuz, sustuğunuz, isteğiniz, geldiğiniz, cebinize koyduğunuz, çıkarttığınız, meydanlarda, camilerde ve evlerinizde yaptığınız latifeler, her şey ama her şeyin kontrol edilmesinden ibaret. Bu kontrol kişiyle kardeşi, hatta kişiyle gölgesi arasına ekilmiş muhabirler üzerinden yapılıyordu.

Ancak bu diyarın ahalisi bunu pek de umursamıyordu. Diplomalarını duvarlardan indirmişler, karanlık dolaplara kaldırmışlar, ellerindeki geçim kaynaklarından istifade ediyor, tarım ile meşgul oluyor ve en kaliteli meyveleri, sebzeleri ve özellikle de zeytin üretiyorlardı. süt inekleri besliyorlar, çevre ormanların ağaçlarından kömür yapıyorlar ve ne devlete ne de hizmetlerine ihtiyaç duyuyorlardı. Kendi sınırlarını aşarak alevi köylerin sınırlarınıza girmişler ve fakir aleviler ile dostluk da kurmuşlardı. Çünkü fakirlik tek bir soydu ve bazı ko-

— Büyüyünce öğrenirler. Bırak çocuk kalsınlar kardeşim, yazıktır...

Odaya sessizlik çöktü. Ürkütücü sessizliği sadece sobanın hışırtısı bölüyordu. Gözler boşlukta dolanıyor, bu sessiz nöbet bekleyenlerden her biri derin ve karanlık bir düşünce denizine dalmış gidiyorlardı. Yanan mum biraz fazlaca ışık saçarak yalpaladı ve tükenmek üzere olduğunu haber verdi. Ayşe'nin dikkatini çekti ve bu gibi karanlık günler için birkaç mum sakladıkları mutfağın dolabına doğru karanlıkta yol aldı. Suriye'nin köylerinde ve şehirlerinde elektrik kesintisi artık normal bir şey haline gelmişti. Teknik bahanelerle yapılan kesintilere insanlar yıllardır alıştı. Zira uzun süredir elektrikler sabah altıda kesiliyor ve kesinti öğlen on ikiye kadar devam ediyordu. Sonra akşam altıda yine kesiliyor ve gece yarılara doğru ancak geliyordu. Lakin şu an yaşanan kesinti bu köye bir cezaydı. Köy ahalisi evlerinin dar balkonları ve dökük pencerelerinden köyü seyrediyorlardı. Fakir halkın ödemekten aciz kaldığı yüksek ücretler ödenmedikçe evlerinde bakım ve onarım yapılmasına izin vermeyen belediye kanunlarına mahkum idiler. Bazıları başkan ve onu bu makama getiren efendilerinin cebine gidecek paraları ödemek yerine, yıkılmaya yüz tutmuş eski evlerinde yaşamayı tercih ediyorlardı. Kendi köyleri gecenin çoğu vaktini zifiri karanlık içerisinde geçirirken, çevrelerindeki geniş caddelerinde ve meydanlarında elekt-

lını araştırıp durmuşlar, ancak köydeki yaşlıların dillerinde dolaşan birkaç mersiyeden başka ellerine bir şey geçmemişti. “Görüyor musun, şimdi biz de geçmişteki bu insanların haline düşüyorduk! Yoksa tarih aynı şeylerin tekrar yaşanmasına mı karar vermişti?” Kadın içten bir ürperti ile kollarını çocuklarına daha sıkı sardı. Gözlerinden suskun gözyaşları döküldü. Bir tanesi kızı Halime'nin yanağına düştü. Halime daha sekiz yaşındaydı. Sobanın kenarına kıvrılmış başını annesinin kucağına koymuştu. Başını kaldırdı ve endişeyle minik bakışlarını annesine çevirdi.

— Anne sen ağlıyorsun..

— Hayır bir tanem, sobadan gözüme duman kaçtı.

— O zaman bizim gözümüze niye kaçmadı? Bizi de yakacaklar mı anne?

— Onlar da kimmiş yavrum? -Yaşlı adam sordu.-

— İşte konuştuğunuz adamlar.

— Biz sadece masal anlattık Halime'ciğim. Uyumadan önce masal dinlemek istemiyor musun?

— Dede bunlar masal değil ki! Nesibe nine bana anlatmıştı. O benim kadarken olmuş, göç günlerini o da yaşamış.

— Çocukların da etrafında olanları bilmesi gerekiyor kardeşim. -Hacı Mehmet müdahale etti.-

raklarını ve onurlarını korumak adına savaşmak için dönmüşler.”

— Evimizi terk edip gidecek miyiz amca? -Hatice sordu-

— Henüz değil amcasının gülü! Belki askerler akıllanır ve tarihten ibret alırlar.

— İbret alsalardı bugünkü gibi vahşice gelmezlerdi.

— Geçmişteki saldırıları daha vahşi idi. Evleri içindeki insanlarla birlikte yakmışlar, insanları bağlayıp diri diri görmüşlerdi.

Hatice sanki gelen bir tehlikeden koruyucusuna bilinçsizce kolunu uzattı ve çocuklarını kendine çekti. Halil Derviş'in evinin bahçesinde bulduğu iskeletleri hatırladı. Balkonu uzatmak için evin doğu tarafını kazarken bir kaç metre ötede bulmuştu iskeletleri. Bir metre derinlikte kafatası bulmuş, çukuru genişletince üç büyük iskelet ortaya çıkmıştı. Cesetler kalmamış, ancak kemikler bir telle ayakları birbirine bağlanmış duruyorlardı. Bu üç kişinin canlı canlı gömüldüğü kesindi. Ne olabileceğini yaşlılara sordular. Yaşlılar Fransız işgalinin başlaması ve alevi devletinin kurulması nedeniyle Siyon dağını terk ettikleri gün üç kişinin kaybolduğunu ve bir daha kendilerinden haber alamadıklarını söylediler. Bu cesetler kesinlikle onlara aitti. Köy sonraki birkaç yıl bu cesetlerin hikâyeleriyle çalkalanmıştı. Gençler olayın as-

odada, ateşi henüz sönmemiş ama yanan zeytin ve meşe odununun sıcaklığına rağmen ihtiyar adamın gün boyu ıslak elbiselerinin altında titreyen ayaklarını bile ısıtama-yan odun sobasının başında nöbet tutuyorlardı. Mercimek çorbasından ibaret basit bir akşam yemeği yediler. Sonra çay içtiler ve konuşmaya başladılar. Daha doğrusu iki yaşlı adamın anlattıklarını dinlemeye...

Yaşlı adamlar normal günlere benzemeyen bu günün sonunda gönüllere güven vermeye çalışarak birbirlerine günlük hayata dair normal sözler söylüyor ve olanları görmezden gelmeye çalışıyorlardı. Kekemeleştiren ve gözlerini yuvasından fırlatan korkularını sakinleştirmek için herkesin mücadeleye vermesine rağmen, çocuklar ise annelerine yapışmış, korkudan dilleri tutulmuş ve gü-lücükleri sönmüştü.

Ahmet El Şib konuşmaya başladı. “Babamın hikayeleri halen daha hatırimda. Sanki onu şimdi canlı olarak dinliyorum. Olayları hayalimde tüm detaylarıyla izliyorum. Hatta sanki gerçeğini izliyor ve bizzat yaşıyorum. Babamın anlattığına göre o gençken Siyon dağına bunun gibi bir saldırı ve istila yapılmış. O gün saldırganlar bir kere dolaşmakla kalmamışlar, defalarca saldırmışlar, evleri yakmışlar, yıkmışlar, yağmalamışlar ve öldürmüşler. Erkekler, kadınları çocukları ve hayvanları doğuya İdlip yakınlarındaki El Zaviye dağına göndermek zorunda kalmışlar. Köyü boşaltmışlar, ardından da top-

köylerinin eşrafı arasında anlaşmalar yapılmıştı. Ancak bu anlaşmalar sadece birkaç gün sürdü. Ardından aleviler işgal ordusunun saflarına katılmış, Fransız ordusunun silahları ile silahlanarak, bugün köyün istila edildiği gibi onların yerine köyleri istila etmişlerdi.

Baskın sonlandıktan sonra erkekler meydanlara ve camilere giderek birbirlerini aradılar. Şehitlerini defnettiler ve elbiselerini değiştirerek durumu aralarında konuşmak için evlerine döndüler. Yakın zamanda meydana gelebilecek en kötü ihtimalleri değerlendirdiler.

Tüm bunlar yaşanırken günlerden 2012 yılı mart ayının on beşi perşembe günüydü. Yatsıdan sonra yağmur dinmiş, bulutlar çekilmiş, gökyüzü parça parça ortaya çıkmıştı. Yıldızlar bulutların esaretinden kurtulmuş, suskunca yeryüzünü seyrediyor, yanıp sönerek olanların dehşetini anlatıyor, sonrasında gördüklerinden ürperip ufukta koşuşturan bulutların arkasına saklanıyorlardı. Vurulan onlarca inek, koyun, at ve hatta köpekler kana çamura bulanmış, bazıları başlarına ya da bağırsaklarına isabet eden kurşun yaralarından halen daha çırpınıyor ve ölümün gelip rahata kavuşturmasını bekliyorlardı.

Kurşun sesleri tamamen susmuştu. Çok uzaklardan gelen kaynağı belirsiz silah seslerinden başka havada hiçbir ses kalmamıştı. Evde yaşlı adam, iki kızı ve çocuklarıyla birlikte Hatice'den başka kimse yoktu. Herkes aynı

alev söndürülemeyecekti. Ortada bir devrim vardı ve zalim muhaberata dayalı komünist rejimi düşürmek isteyen bir halk. Yaşanan bir mezhep savaşı değildi. Buna rağmen günden geriye kalan köyün gençlerinden canlarına kıyılan üç şehitti.

Erkekler sıırıslıklam elbiseleriyle gizlendikleri yerlerden dikkatlice çıkmaya başladılar. Zira bazıları bahar yaprakları ve çiçeklerinden oluşan yeni elbiselerini henüz giymemiş, emanet dallarıyla yağmuru veya güneşi engellemeyen ağaçların gölgesinde, bazıları ise sel sularının baraja dökülmeden önce toplandığı kanallara veya köyün etrafındaki nehir yataklarına saklanmak zorunda kalmışlardı. En şanslıları dağların bağrındaki mağaralara ulaşabilenlerdi. Günlerini herkesin bildiği olayları yeniden anlatarak geçirdiler. Bir kısmı El Aliyye mağarasında toplanmışlardı. Taştan oyma yataklara dağıldılar. Bazıları kandil koymak bazıları da başka eşyaları koymak için taşlardan raflar ve ekmek pişirmek için odun fırınları yaptılar. Fırının dumanı da mağaranın dışına oyma kayadan yapılan bacadan çıkıyordu. Dedeleri de Fransız işgalinin son günlerinde bu mağarayı sığınak edinmişlerdi. O dönemdeki savaşlar Siyon dağı mücahitlerinin denizden gelen Fransız ordusunu Bezfit savaşı ile karşılaması ve ağır bir yenilgiye uğratması ile başlamıştı. Aynı zamanda Fransız saldırılarına karşı aynı safta mücadele etmek üzere, önde gelen Siyon dağı mücahitleri ile alevi

lamamıştı. Halil Derviş'in evindeki alevler sönmemiş, aksine kızıldan beyaza çalan sarıya, sonra da maviye dönmüştü. O kadar ki köyde kalanlar "Bu evde böyle yanan ne? Nasıl bir bomba idi ki böyle garip renklerde alevler saçıyor?" diye birbirlerine sormaya başladılar.

Gökyüzünü terk edip şaşkın bir arayış içerisinde ufuklara çekilen bulutlardan da bir miktar zulmet alan gecenin karanlığı köyü korkunç bir hızla kaplamaya başlamıştı. Silahlar susmuş, sadece kalan birlikler köyü terk ederken halen daha var olduklarını haykırırcasına tehdit ve korkutmaya devam eden birkaç silah sesinden başka bir şey kalmamıştı. Askeri araçlar ve zırhlılar gasp edip yağmaladıkları mallar üzerlerinde, üslerine dönmeye başladılar. Köy ahalisi çaresiz bir şekilde durmuş kışlalarına dönen araçları seyrediyor, başlarını öne eğmiş çareyi suskunlukta arıyor ve komşularının başlarına gelenlerin kendi başlarına geleceği günü bekliyorlardı.

Ahali bu savaşta tek bir kurşun bile sıkmamıştı. Kendileriyle çevredeki alevi köyler arasında savaş ateşi yakmamak için büyük ve akıllı şahsiyetlerin sözlerini dinliyorlar ve tüm bu istila ile birlikte onca tutuklamalara rağmen bölgenin sessiz ve sakin kalmasını tercih ediyorlardı. Zira alevi köylerinden birçoğuyla aralarında dostluk bağı oluşmuş ve alışveriş yapıyorlardı. Bu diyara artık mezhepçilik kıvılcımı atılmıştı. Yakında diğer ülkelere ve toplumlara sıçrayacak ve -Allah göstermesin- tutuşan

- Çabuk silahlarını çıkar!
- Evimdesiniz işte! Arayın, dilediğinizi alın!
- Kendin çıkar ve bize teslim et! Sakın bizi kızdırma!
- Asla yerimden ayrılmayacağım. İşte ev önümüzde, dilediğinizi arayın!

Yaşlı adamın sakinliği ve soğukkanlılığı takım komutanını şaşırttı. Kekemeleşti ve dili tutuldu. Etrafa tehditler savurmaya başladı. Ardından askerlerine evi boşaltıp sokaktan ayrılmalarını emretti. Yaşlı adam halen daha balkondan onları izliyordu. Üstat Hasan Dib'in evine yönelerek gözden kayboldular. Ancak kurşun sesleri ve bağırtilar kaybolmamış, bilakis daha da şiddetlenmiş ve yükselmişti. Bu esnada bir başka asker grubu El Vatiye meydanından gelerek önceki askerlerin ayak izinde devam ettiler. Gruptaki askerler Ümmü Türki'nin evinin demir kapısını söktüler ve içeriye daldılar. Bu esnada yağmur sularından elbisesi ıslanan ve suları bedeninde hissetmeye başlayan Ahmet El Şib, ıslanan elbiselerini kurularıyla değiştirmek ve olanları pencerenin arkasından seyretmeye devam etmek için balkondan içeri girdi. Zira artık soğuktan titremeye başlamıştı.

Gün bitmişti. Ancak günün nasıl bittiğini, bir saniye bile durmayan sağanak yağış ve kurşun yağmuru altında kara bulutların ardında güneşin nasıl battığını kimse an-

Ahmet El Şeb ayakta zor duran ve saçlarını siyaha boyayan yetmişli yaşlarda bir adamdı. Köye baskın uyarısı ulaştığında hanımını çocuklarıyla birlikte Lazkiye kentindeki akrabalarının evine gönderdiğinden bu yana, tüm eşyaları bir hasır, birkaç yün yastık ve dünyadaki her fakir ailenin evinde bulunan bazı eşyalardan ibaret olan evinde tek başına kalıyordu. Bu yolculukta hanımına eşlik edememişti. Çünkü evin alt katında tüm serveti ve tek geçim kaynağı olan inekleri vardı. Hayvanların yedirilmesi ve sabah akşam sağılması gerekiyordu.

Yaşlı adam perişan bir halde evinin balkonunda durmuş olanları seyrediyordu. Tam teçizatlı askerler sağanak yağmurun altında delice koşuyor, evlerin kapılarını tekmeliyor ve boşaltıyor, ahırlara ve samanlıklara dalıyor, güya kontrol ediyor, aslında her şeyi yakıp yıkıyorlardı. Balkondaki yaşlı adamın şaşkın bakışları altında Halil Derviş'in evinin önüne isabet eden bomba ve arkadaşlarının tüfeklerinden çıkan kurşun seslerinin senfonisi arasında rastgele her tarafa ateş açıyorlardı. Ardından bir başka sokağa girmek için geri çekiliyor ve aynı şeyleri tekrar ediyorlardı.

Yaşlı adam askerlerden birinin dikkatini çekti ve arkadaşlarına işaret etti. Hücrenin dar ve kirli merdivenlerinden cüretkar bir şekilde peşinden geldiler. Kapıları kırdılar ve adamın etrafını sararak silahlarını doğrulttular.

Sonunda yangın kütüphaneye ulaştı. Kütüphanede üstadın okuma yazma bildiği ve konuşabildiği üç ayrı dil-den yüzlerce kitap vardı. Yine alevler el aletlerini ve Üstat Raşit'in kızlarının ustaca çalmakla meşhur oldukları defleri de yutuverdi.

Saldırı sona erdiğinde gün de bitmişti. Ancak ateş topuna dönen evdeki yangın halen daha sönmedi. Evin etrafından bazen siyah bazen beyaz, bazen de ikisi arasında mor dumanlar yükselmeye devam ediyordu. Köyden geriye kalan ahali evdeki ailenin bir gün önce köyü terk etmiş olmasına şükrederek ayrıldılar.

Bu bir baskın mıydı, savaş mı, yoksa istila mı? Hakikaten de yaptıklarında hepsi vardı. Yüzlerce askeri ve zırhlı araçlar, halinden memnun olan bu güvenli köye dört taraftan girdiler. Askerler araçlardan indiler ve köyün sokaklarına, patikalarına ve yollarına çekirgeler misali yayıldılar. Adeta Moğollar ve Tatarlar gibi saldırarak evlere zorla girdiler. Taşınması kolay ve kıymetli malları yağmaladılar. Taşıyamadıkları değerli mobilyaları ve elektronik eşyaları da parçaladılar. Köyün kendisinin ürettiği ve ailelerin geçimi için saklanan onlarca kiloluk zeytin-yağlarını, koltuklara yataklara ve halıların üzerine döktüler. Dolapları açıp, elbiseleri yerlere saçtılar ve üzerlerine işediler. Ardından gecenin ilk saatlerinde yağmaladıkları mallarla birlikte ayrılıp gittiler.

Birinci Bölüm

Siyon dağına yapılan ilk saldırı akşamdan sonra biraz hafiflemişti. Bol yağmurlu bir gün geçmişti. Köyün etrafını saran ve sokaklarında yayılan zırhlı araçlardan yapılan ağır bombardımanın gürültüsü gök gürlemelerine karışmıştı. Kapıları, pencereleri ve evlerin çatılarını tıklayan yağmur damlalarının sesi mermi vızıltıları ile iç içe geçmişti. Dağlık bölgedeki şimşek sesleri, kararlaştırıldığı gibi kızgın gönüllere korku tohumları ekmek ve devrim ateşini bastırmak için ordu birliklerinin attığı bombaların gümbürtüleri arasında kaybolmuştu.

Büyük bir patlama köyü yerinden oynattı ve evlerin duvarlarını yıktı. Ardından Halil Derviş'in evinden uzunca bir ateşten sütun yükseldi. Kara bulutların arasında dağılıp giden siyah bir duman ile son buldu. Bölgede daha önce görülmemiş bir sağanak yağmur yağmaya başlamıştı. Ancak bu şiddetli yağmur bile Üstat Raşit'in evini, içindeki tüm şık mobilyaları ile birlikte saran yangını söndürmeye yetmemişti. Halbuki ailesi bu mobilyaları toparlayıp dizmek için elli yıl emek vermişti.

İki bin on iki yılının mart ayının on beşiydi. Juba Şerrife'nin etrafını askeri araçlar sardı ve doğu taraflarına ateş etmeye başladılar. İlk salvolar Osmanlı camisinin duvarlarını vurdu, fakat çok fazla bir şey yapmadı. Sadece; önceleri aynı yerden ve aynı yöne ateş açan benzer araçların duvarda açtığı eski deliklerin yanına yeni delikler ekledi. Yıllar önce buraya ateş açıldığında erkekler dabke oynuyor, kadınlar ise nağmeler mırıldanıyorlardı. Bu insanlar bugün dabke oynayan ve nağmeler mırıldananların babaları ve dedeleriydiler. Kurşunlar aynı çizgi üzerinde vızıldıyor ve şehitler birer birer yere düşüyordu. O gün ölüm makineleri Fransız işgal ordusuna aitti ve takvimler 1919 yılını gösteriyordu. Bu günküler ise Esed'in ordusuydu.

AYAKSESLERİ

Yazan

Ebtisam Şakuş

Çeviren

Abdussamet Güneş

CANTAŞ